النجف الأشرف
و
المرجعية الدينية

العلامة الدكتور
السيد محمد بحر العلوم







النجف الأشرف
والمرجعية الدينية

بمناسبة مرور أربعين يوماً على رحيله

7 نيسان 2015 – 17 جمادى الثاني 1436

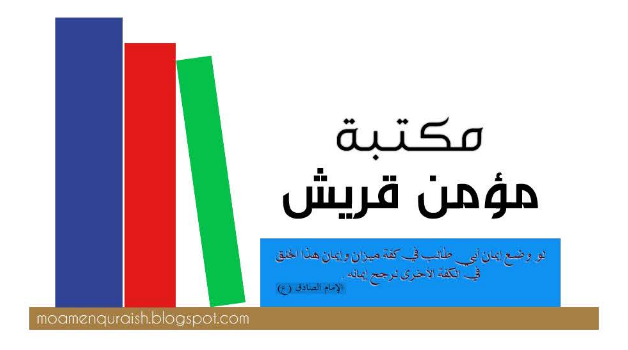
العلّامة الدكتور

السيد محمد بحر العلوم

النجف الأشرف والمرجعية الدينية

تقديم

الدكتور إبراهيم محمد بحر العلوم







النجف الأشرف والمرجعية الدينية

العلامة الدكتور السيد محمد بحر العلوم

الطبعة الأولى 2015
القياس: 17 x 24
عدد الصفحات: 343
ISBN 978-614-441-059-2

برعاية ودعم مؤسسة بحر العلوم الخيرية
مركز النجف للبحوث والثقافة
العراق - الكوفة - النجف الأشرف
العنوان البريدي ص.ب. 109 النجف الأشرف
هاتف: (00964) 07703888288
البريد الإلكتروني alalmain@gmail.com
الموقع الإلكتروني www.alalmain.com
نشر وتوزيع

شركة العارف للأعمال ش.م.م.



بيروت - لبنان
0096179839503
العراق - النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر - هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن - هاتف/فاكس 4650624 00962
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

فهرس الكتاب

بين يدي القارئ

د. إبراهيم بحر العلوم

في منتصف الستينات من القرن الماضي وكنت لم أتجاوز الثانية عشرة من العمر طرق باب بيتنا الواقع في محلة العمارة في المدينة القديمة شخص وقور وأنيق تعلو وجهه إبتسامة مشرقة يطلب ملاقاة سماحة السيد الوالد، وبكل ترحاب رافقته للطابق الثاني واجلسته في المكتبة وقدّمت له الشاي، أناقته أوحت لي بأنه ضيف بغدادي، إبتسامته ونكتته اشعرتني بنجفيته، وعرفت أثناء حديثه أنه المرحوم الأستاذ جعفر الخليلي الشخصية العراقية والكاتب والصحفي الكبير، وبعد توديعه عرفت أن هناك مشروعاً يضطلع به مع آخرين من الكتّاب والعلماء العراقيين لإعداد الموسوعة المعروفة بـ "موسوعة العتبات المقدسة"، وكان سيدنا الوالد حينها قد شارك في فكرة المشروع، وإيضاً الكتابة عن جامعة النجف بعنوان "الدراسة في جامعة النجف". وكانت زيارة الخليلي لنا هي تقديم الشكر لانجاز هذا العمل الموسوعي الخالد.

لا أدري لماذا استذكرت هذا الأمر الذي مر عليه قرابة نصف قرن من الزمن، وأنا اتصفح ما جمعه أخي سماحة السيد محمد علي بحر العلوم من بحوث ومقالات كتبها سيدنا الوالد عن حاضرة النجف وحوزتها العلمية ومرجعيتها الدينية طوال العقود الثلاثة الماضية لتشكل مساهمة لـ "مركز النجف للفكر والبحوث" ضمن الفعاليات الثقافية المختارة للاحتفاء باختيار النجف عاصمة للثقافة الاسلامية 2012. وبالرغم من صعوبة المهمة في جميع ما كتبه السيد الوالد (حفظ الله) وذلك لطول الفترة الزمنية ولكنها تستحق ذلك الاهتمام لأنها تؤرخ لمرحلة مهمة وظرف صعب مرت بها النجف حيث عكست هذه المبادرات وغيرها اهتمام وحرص المخلصين

بحراجة الموقف ومسؤولية التحرك في الأوساط الدولية للتعريف بحاضرة النجف بما يتناسب وأهميتها في الوطن الإسلامي الكبير.

* * *

البحوث والمقالات المختارة التي ضمها المجلد الأول من الموسوعة ذات الأجزاء الأربعة تركزت حول تاريخ الجامعة الدينية في النجف، وفيها تجلي للمقومات العلمية لبروزها وعناصر استمراريتها كواحدة من أبرز الجامعات في العالمين الإسلامي والعربي، وتناول العلامة بحر العلوم فيها دور المرجعية الدينية من عهد الشيخ الطوسي مؤسس الحوزة العلمية حتى يومنا الحاضر، وجاءت معظمها كحصاد لفترة التسعينيات من القرن الماضي عندما عمد النظام البائد إلى محاولات هدم العتبات المقدسة واضعاف دور المرجعية وتفتيت الحوزة العلمية وابادة الاسر الدينية المعروفة، والقارئ الكريم يلمس بوضوح التركيز على ابراز الابعاد التالية لحاضرة النجف، ومنها:

1 - **البعد التأريخي**: باعتبار أن النجف مهبط الأولياء وذات البقعة المباركة التي تميزت قبل الإسلام وقد اشتبكت مع الحيرة والكوفة لتشكل المثلث الذي احتضن الحضارة العربية الاسلامية ابتداءاً من المناذرة إلى الكوفة. كلها حلقات تأريخية منحتها الأصالة والعمق الحضاري لتؤهلها للعب دور محوري في تأريخ المنطقة والعالم العربي والإسلامي.

2 - **البعد الديني**: كثير من الأماكن والمدن التي تمتلك بعداً تأريخياً ولعبت دوراً مفصلياً في حقب تأريخية لم تحظ بأهمية دينية مثلما حظيت به النجف الأشرف. فما ورد من فضلها ومركزها الديني من أحاديث وروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وتشريف تربتها بمرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كل ذلك جعل لها قدسية متميزة عند المسلمين بعامة وأتباع أهل البيت عليهم السلام الخاصة.

3 - **البعد العلمي**: عراقة هذه المدينة امتزجت بشموخ علمي متميز قرابة ألف عام وامتازت جامعتها الدينية بتألق فكري كان رائده مؤسسها الشيخ الطوسي حتى أصبحت تعد وبفخر واعتزاز إحدى أربع الجامعات الإسلامية في الوطن الإسلامي الكبير وما تمتعت به من ثقل علمي ونتاج غزير واستمرارية في الحضور الفاعل على المستوى العلمي ميزها بجدارة عن غيرها.

4 - **البعد الثقافي**: طبيعة النجف الصحراوية يفترض أن تكون عاملاً طارداً للتمازج الثقافي، لكن معالم التلاحق الحضاري كان احد سماتها مما جعلها من المدن المنفتحة وأحالها إلى مساحة إنتاجية للثقافة العربية والإسلامية بإبعادها العلمية والفكرية والأدبية والشعرية.

5 - **البعد الجهادي**: اتسمت المدينة بريادتها الجهادية وبقدرتها على التعبئة . ومقارعة الظلم والاستبداد مما جعلها مركزاً لاستقطاب العراق في الحركة الجهادية، وكذلك محطة متميزة تشع بمواقفها السياسية على العالمين العربي والإسلامي، واحتفظت ولا زالت بسجل مميز جهادي خالد ضد الاحتلال.

* * *

وقطعاً لم يكن الهدف الرئيسي من طرح هذه البحوث هو مجرد البحث العلمي، وإن كانت تتميز به من حيث المحتوى التاريخي والفقهي والأدبي والرجالي، ولكن في العمق تخفي خلف سطورها صورة مقاتل عنيد وصاحب رسالة هادفة يطوف بها عبر القارات النائية عن العراق قرابة اربعين عاماً بدون ملل وكلل. تنظر إليها وكأنها تبدو متعددة المواضيع غير أنها تمتلك الوحدة في الموضوع وتأتي ضمن رؤية إستراتيجية للتعريف بالنجف وجامعتها وحضارتها وعراقتها ومرجعيتها الدينية وما تتميز بها مدرستها من معالم تجعلها قائمة بذاتها، تتبعها رسالة تحذير لمن يهمه الأمر إن ما تواجهه النجف من حملات قمعية وإبادة على يد صدام وأعوانه

يمثّل خسارة كبرى ليس للعراقيين فقط وإنما لكل المهتمين بالحاضنات الحضارية الحية المنتجة للفكر الرصين المعتدل والموقف السياسي العقلاني والقادر على نشر ثقافة التعايش السلمي الأهلي في المنطقة.

هذه المحاضرات والتي كان معظمها تمثل مشاركة في مؤتمرات دولية في القارتين الأوربية والأميركية لتقديم قراءة عن النجف عبر تأريخها ورجالاتها وخريجي مدرستها ومرجعيتها ومواقفها السياسية تدفع في منحى إثبات الأصالة الحضارية لها في الأداء والمنهج في الماضي والحاضر، فتارة تجده يبحث في أعماق التأريخ عن حضارة المدينة وتأريخها ويشير إلى مركزها الديني، وأخرى ينتقل إلى مناهجها وأنظمتها الدراسية عبر التأريخ ويثبت رصانتها العلمية ويتوقف عند رموز حركتها العلمية في محاولة لإثبات أن هذه الحاضرة تمتلك المفتاح السحري الذي ينظم إيقاعاتها عبر القرون بما يمنحها الاستقلالية، وهو سر نموها وصمودها وقوتها، ويبعد عنها احتمالات الاختراق بالرغم من المحاولات الخبيثة، وبالتالي لابد من توظيف الجهود للحد من توجهات النظام البائد من العبث بها وبشعبها.

* * *

ويختزل سيدنا الكبير الحديث عن خصائص النجف عندما يقول "إنها المدينة التأريخية الحية التي تختزن الماضي بايجابيته لتواجه الحاضر بسلبياته". محاولاً لمس البصمات التي تركتها النجف وجامعتها على حركة الإنسان العراقي خاصة والمسلم عامة ويقدمها للقارئ من خلال قراءة واعية تعتمد التأريخ والمعرفة في طرحها، ولكنه يطبعها بتجربته الشخصية باعتباره أحد خريجي هذه المدرسة، وهنا تكمن قوة الانطلاق في فهم قدرات مدرسة النجف ومواقف مرجعيتها ضمن الأطر الثابتة والمتغيرة، لذلك نجده يركز في بحوثه عن اندماجية الجامعة النجفية واندكاكها بالمرجعية الدينية في مسارات تحافظ على استقلاليتها وتمنحها القدرة على الصمود أمام محاولات التفكيك والاستحواذ.

إن المحافظة على استقلالية المرجعية بحد ذاتها منحتها الحصانة من التأثيرات الخارجية غير أن هناك عناصر أخرى شكلت مع بعضها عناصر قوة لاستمراريتها، منها تجاوز المنحى القومي في اختيار المرجع فاشتراط الأعلمية والعدالة بقي السمة البارزة في اختيار المرجع الديني والضامنة لتجاوز المأزق القومي، ويشير سيدنا الكبير إلى حقيقة مميزة أخرى "إن عدم اشتراط قومية معينة في اختيار المرجع لم يقف حائلا دون تفاعل المرجع مع القضايا الوطنية" وهذا ما يجعل مكانة المرجعية تكتسب موقعا مؤثرا في الوسط العراقي والمنطقة، ويرى أنه بالرغم من كثافة الوافدين من طلبة العلوم الدينية واختلاط اللغات والثقافات إلا أن الطابع العربي للجامعة بقي محافظاً عليه وحتى المراجع غير العرب كانوا يتأثرون بالتوجه العربي، وهذا لا يعني بالضرورة إلغاء الصراع القومي في داخل أروقة الجامعة لكن الأجواء العامة كانت تقف دون طغيانه.

إن هذه السمات الرئيسية في المرجعية الدينية جعلت المواقف الرئيسية للمراجع العظام في الأعم الأغلب غير متضاربة رغم اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية ففي كل الأدوار "كانت تنأى المرجعية بنفسها عن السلطة ولكنها تسعى لتوفير الغطاء للتحرك السياسي في القضايا المعاصرة التي تضر بمصلحة الدين والوطن فالمرجعية تعاملت مع السلطات بمنطق المصالح المتبادلة ورفضت أدلجة الحكم".

وأوضح سيدنا الكبير في بحثه عن الثابت والمتغير في مواقف المرجعية الدينية العديد من الأمثلة التي تشير الى أن المرجعية برغم تعددها إلا أنها عنيت بالمضمون دون الإخراج والشكل والصياغة. " والمضمون من حيث المحتوى هو السعي لحفظ الهوية والحريات العامة والثوابت الدينية والوطنية والعدالة الاجتماعية" ويقطع بخطأ من يظن خلاف ذلك حيث أكد في نفس البحث " يخطأ من يختزل التنوع المشار إليه بتعدد الاجتهاد أو عدم اكتمال الرؤية السياسية أو بعدم المشروع السياسي". ويفرد في هذا السياق محورا عن العراق الحديث ما بعد التغيير وخيارات

المرجعية في مواجهة التغييرات بما يؤكد عن "عمق الموروث في العلاقة مع المرجعية وحجم الثقة الممنوحة لها والتي مكنتها من فرض خياراتها التي تصب في صالح الأمة وعدم السماح لمصادرتها ثانية. ويؤكد في محصلة حديثه' في تقديري أن الفلسفة السياسية الحديثة التي أنتجت النظام السياسي الحديث المفرغ من الايدولوجيا والذي يعتمد صندوق الاقتراع والمصالح المتبادلة لها القدرة على التجاوب مع الفكر الشيعي السياسي في النجف لخلق منظومة سياسية قوية تظهر في المنطقة بمظهر جديد يؤمن مصالح الجميع".

* * *

ويزيد من القيمة العلمية للعمل عندما يرصد سيدنا الكبير الدور الديني والسياسي والاجتماعي للمرجعية الدينية في النجف على مسار نصف قرن من الزمن وهذا ما تناوله الفصل الثالث من الكتاب حيث يعيش القارئ محطات زمنية متواصلة عن المرجعية الدينية منذ العهد الجمهوري وحتى يومنا هذا من خلال معايشة مركّزة وقريبة لدور المراجع العظام ابتداءاً من الإمام الراحل السيد محسن الحكيم والشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر والإمام الراحل السيد أبو القاسم الخوئي وأخيراً الإمام السيد السيستاني. ويتلمّس القارئ من خلال التحليل للرؤية الفقهية والمواقف السياسية والمشاريع الثقافية والاجتماعية التي يضطلع بها المراجع العظام الدور الكبير لإرساء قواعد متينة للحفاظ على مكانة المؤسسة الدينية وأصالتها استكمالا لمسيرة المراجع السابقين، وتستمد هذه القراءة قيمتها من مشاركة فاعلة للباحث في فعاليات ونشاطات مرجعية الإمام الراحل السيد الحكيم وامتلاكه لعلاقة عمل مشترك في الحركة الإسلامية والتي تمحورت بداياتها حول الشهيد السعيد الصدر الأول واستمرت في التواصل معه في الغربة وعلاقات متميزة مع مرجعية الإمام السيد الخوئي عبر مؤسساته ومشاريعه في الخارج وتواصله مع ابرز تلامذته وفي مقدمتهم الشهيدان السعيدان السيدان علاء الدين وعز الدين بحر العلوم.

وأخيراً الدور الكبير المميز الذي تضطلع به مرجعية الإمام السيد السيستاني منذ سقوط النظام الصدامي حتى يومنا هذا بما يعزز القول بأن دور مرجعية النجف فعال ومؤثر، ليس على صعيد العراق بل المنطقة والعالم العربي والإسلامي.

* * *

ويعتبر العلامة بحر العلوم أن التحرك الديني والسياسي والاجتماعي لمرجعية الإمام الراحل السيد الحكيم انعطافة في مجمل تأريخ المرجعية الدينية حيث كسرت الحاجز النفسي في ممارسة العلماء لواجباتهم وتفاعلها مع الجماهير المستضعفة، وتمكنت مشاريع المرجعية في تلك المرحلة من التحرك لبناء القاعدة في كافة أنحاء العراق وتوعية الناس بعيداً عن الابتزاز والاستغلال من قبل السلطات والأحزاب السلطوية. وتوجهت في الوقت ذاته إلى تهيئة جيل واعٍ من خلال تطوير الدراسة في الحوزة الدينية والتشجيع على فتح كليات ومعاهد في النجف وبغداد منها كلية الفقه في النجف و أصول الدين في بغداد وشحذ الإمكانيات للنهوض بتأسيس جامعة الكوفة، وإلى جانب ذلك انبرت المرجعية بنشر الفكر الإسلامي من خلال تأسيس المكتبات في مراكز المدن و الاقضية والنواحي العراقية متزامناً مع تشكيل شبكة الوكلاء للتبليغ، ودفعت المرجعية باتجاه استثمار المناسبات الدينية في إقامة احتفالات على مستوى رفيع لتصبح منبراً للتعبير عن كل القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن أبرزها احتفالات النجف في ذكرى ولادة الحسين عليه السلام حيث شكلت منعطفا للتعبير عن الحقوق والمطالبة بالحريات وفيها تمت المطالبة بإعادة مجلس النواب ومنح الأكراد حقوقهم ومعالجة الأوضاع الاقتصادية والتحذير من مغبة إبرام العقود النفطية بعيدا عن الصالح العام وإطلاق سراح المعتقلين وما إلى ذلك.

وينتقل السيد بحر العلوم إلى الحديث عن الشهيد السعيد المرجع السيد محمد باقر الصدر مشاركاً المحبين في الغربة إحياء ذكراه في عدة

مناسبات ومسلطا الضوء على الجوانب الفكرية والقيادية لهذه الشخصية الفذة، ومستعرضا الثوابت الإسلامية التي انطلق منها الإمام السيد الصدر في بناء الحركة الإسلامية، والذي تمثل في الإصرار والعزيمة والتحدي التي يمتاز بها العراقيون باعتباره الرائد المعلم والرسالي الهادف، ويطرح عطاءه على الصعيد الفكري والتربوي والعمل المنظم واستشهاده حيث شكل استشهاده ولادة جديدة للتحرك الجهادي ضد النظام الاستبدادي.

ويتوقف السيد بحر العلوم في محطة مهمة من تأريخ المرجعية في النجف لدراسة مواقف الإمام الراحل السيد أبو القاسم الخوئي باعتباره راعياً للجامعة العلمية ومجددا لها بما امتاز به من إبداعات فقهية وأصولية ورجالية. وان حصيلة الجهد العلمي الذي بذلته المرجعية خلال هذه الفترة تجد ثماره في خريجي مدرسته وانتشارهم في البلدان الإسلامية، ويتناول الباحث في مواقع مختلفة الهم الثقافي العام للأمة الذي حملته المرجعية ويعتبر إن من عناصر قوة مرجعية الإمام الراحل السيد الخوئي انجازاته في أن لا تقتصر المراكز الرسالية على حدود العراق وإيران بل تعدت إلى آسيا و اوربا وكانت مؤسسة الإمام الخوئي في لندن ثمرة لجهود خيرة في تواصلها مع النجف. ويرى إن الإمام الخوئي استطاع أن يقف بوجه الديكتاتورية فلم يداهن الحاكم الظالم ولم يخضع لإرهاب أزلامه ووقف بصلابة يمارس مسؤوليته الدينية من مركز القيادة في انتفاضة شعبان آذار 1991.

ويبرز دور المرجعية في النجف بشكل متميز بعد سقوط النظام البائد في نيسان 2003م حيث دأب الإمام السيد السيستاني في الحفاظ على النظام العام في البلد من خلال إرشاداته وخطبه وبياناته في مرحلة تعد من أصعب المراحل التي مرَّ بها العراق، وحفظ للمرجعية الدينية في النجف استقلاليتها وتوازنها واعتدالها، وأصبحت النجف بفضل دور المرجعية نقطة استقطاب مؤثرة ليس على صعيد العراق بل على صعيد المنطقة والعالم الإسلامي، فكانت بصماتها واضحة في بناء العراق الدستوري والدفع دوما باتجاه الخيار الوطني وإبعاد العراق عن شبح الحرب الطائفية وتركزت

جهوده نحو نصح المسؤولين بضرورة اختيار العناصر الكفوءة والنزيهة إلى المواقع المسؤولة ومعالجة الحالة الأمنية وتحسين الخدمات العامة ومكافحة الفساد الإداري والمالي، إضافة إلى توثيق العلاقات مع دول الجوار. وتؤكد المواضيع التي كتبت حول هذا الدور إن المرجعية لا تداهن أحداً على حساب مصالح الأمة.

* * *

أما الفصل الأخير من الجزء الأول من الموسوعة فقد ضم أبحاثا مختلفة وجهت في محافل إسلامية تتحدث عن دائرة أوسع في نطاق ترصين أوضاع المسلمين في المهجر، فقد تطورت وكبرت الجاليات الإسلامية بفعل الهجرة وخاصة أتباع أهل البيت عليهم السلام إلى العالم في العقدين الأخريين نتيجة الاضطهاد السياسي أو تردي الأوضاع الاقتصادية في بلدانهم. وأصبح لعلماء الدين والمراكز الإسلامية دور كبير في احتضان الجاليات وتحصينهم ضد الإغراءات والانحرافات في مواقعهم الجديدة وكذلك في الوقت ذاته تترتب مسؤوليات كثيرة بضرورة تنظيم أمورهم بالشكل الذي يضمن حقوقهم كمواطنين في البلدان الجديدة.

فقد وظف سيدنا الكبير تجربته الثرة في المهجر خلال العقود الثلاثاً الماضية وتوجهه لبناء أول مركز إسلامي في العاصمة البريطانية للجالية العراقية مع رفيق مشواره السياسي الشهيد السيد مهدي الحكيم (قده) وكان لهذه التجارب الأثر في إنضاج التجربة ومواجهة التحديات، حيث شهدت الفترة الماضية في الغرب الكثير من التحركات لإثارة مشاعر الكراهية ضد المسلمين بدوافع مختلفة، وكان لابد من مواجهتها برؤية حضارية تحفظ كيان المجتمعات الصغيرة للمسلمين في الغرب من خلال الارتباط بالمرجعيات الدينية، ودعم تأسيس المراكز الإسلامية لتفعيل المنظومة الأخلاقية التي يرتكز عليها الإسلام في معركته الحضارية وما يتمتع به من مرونة لمواجهة التعصب الغربي الذي يبرز بين آونة وأخرى.

وفي أكثر من موقع نلحظ تركيز سماحة السيد بحر العلوم عن ضرورة تكيف المسلمين مع المجتمعات في بلدان الغرب في حدود الممكن بما لا يخل بالمبادئ الإسلامية وخاصة المتعلقة بالأحوال الشخصية، كانت دعوته تنطلق إلى الأخذ بحالة الاندماج والانغلاق في آن واحد. الانغلاق بما يحفظ الهوية المجتمعية الإسلامية والانفتاح بما يحقق روح التسامح والتعايش السلمي ويعبر عن الروح الحضارية للإسلام كقيم خالدة.

* * *

في ختام هذه الجولة السريعة لبعض الأفكار الرئيسية التي ضمتها بحوث هذا الكتاب، لازلت أجد نفسي قاصراً في تقديمها للقارئ لأمرين :-

الأول: لكونها تعبر عن تجربة غنية لرمز شامخ من رموز الحركة الإسلامية والوطنية قضى معظم حياته في سبيل العقيدة والوطن، خاض خلالها معارك سياسية واجتماعية وثقافية كبيرة من اجلهما، تحمّل الغربة والعناء عقوداً من الزمن، قدمت أسرته العديد من الشهداء والضحايا، صبر في تحمل شقشقات البعض وهناته وهو يمتطي صهوة الجواد السياسي من أجل إنقاذ بلده، وعاد وحلمه الأول والأخير بناء العراق الجديد واستعادة النجف موقعها الريادي، ورغم نبوءته المبكرة بوعورة المعترك فلا زال مستمراً في معركته لم تقف عجلة "الثمانون من العمر" حائلاً دون ذلك، ولم يقف أمامه صدود الإخوة وتنازعهم في أمور السلطان في مواصلة المشوار رغم شدة الإحباط والقنوط بسبب تواضع أداء السنوات التسع الماضية وهو يرى هموم البلد في إزدياد وشجونه وعذابات شعبه في تفاقم، وبداية انحسار الحلم الكبير من الأفق، ورغم عتمة المشوار أحيانا فلازال يعيش الأمل في أن يقذف الله بقلوب المخلصين من أبناء هذا البلد البصيرة للانتقال من مرحلة التنازع على السلطة إلى مرحلة بناء الدولة لتحقيق الحلم الكبير.

الثاني: استشعر أمامها بعظمة الوطن والرجال وأن هناك من الأبناء من يتحمل المسؤولية الدينية والوطنية بكل جدارة واقتدار طوال العقود العجاف بدون ملل وكلل، لم تزعزعه العواصف عن رسالته ورغم تشابك المسؤوليات في خضم الحياة لم تفتهُ رعاية ابنائه وأسرته بالغالي والنفيس حتى جعل الكل يستشعر أنه عمود في خيمته الأبوية الحانية العطوفة يتذوق منها طعم عدالة الحنان والمحبة، وفي ظلال هذه الخيمة الوارفة الكبيرة كان عادلا في تَربية الجميع وتعلمنا الكثير من مدرسته رحبةً الآفاق الواسعة المعالم مما ساعدنا في تخطي مصاعب الحياة تاركاً بصماته التربوية بكل قوة في مجالات متعددة، في مقدمتها حب الوطن وعشق النجف.

أتمنى ياسيدي أن يوفقني الله -كجزء من واجب البر- أن أكون وفياً مع الوطن والنجف وعذراً يا سيد النجف الوفي إن شططت في حديث جاء استجابة لرغبتك ورجائي أن يكون هذا اليسير مقدمة لعمل أوسع في المستقبل كي يكون موئلاً لرضاك عما أفنيته من العمر في سبيل العقيدة والوطن، ودعائي أن يأخذ الله سبحانه وتعإلى بيد أخي العلامة السيد محمد علي بحر العلوم لإكمال المشوار على خطى الآباء والأجداد وهذا ما يسعدك ويرضيك. تمنياتنا يا سيدي بطول العمر ومزيد من العطاء وأنت تتحدى الزمن مع تقبيل يديك الكريمتين.

بغداد 4 نيسان 2011

ولدكم إبراهيم

الفصل الأول

الأصالة في الجامعة النجفية

1 - الجامعة العلمية في النجف الأشرف عبر أيامها الطويلة.

2 - العمق الحضاري للنجف الأشرف.

3 - كيف حافظ النجف على أصالته؟

4 - النجف ومميزات جامعتها العلمية.

الجامعة العلمية في النجف
عبر أيامها الطويلة[1]

كلمة لابد منها

الحديث عن المدرسة العلمية في النجف الأشرف واسع ومتشعب يتسع لمجلدات، وخاصة إذا أردنا استقصاء كل ما يتعلق بهذه المدرسة العريقة ذات العمر الطويل الذي يناهز الألف عام، والتي خرّجت مئات الأعلام من مشاهير مراجع الدين في العالم الإسلامي، وتركت للمكتبة الفكرية نتاجاً ضخماً في الفقه والأصول، والفلسفة الإسلامية، والتفسير، وعلوم القرآن، والحديث ورجاله، والتاريخ، والأدب، وغيره من التراث الإسلامي.

إن مدرسة النجف الأشرف عبر تاريخها العلمي الطويل جسدت من خلال الزخم الفكري تراث أئمة آل البيت عليهم السلام، وما خلفوه من ثروة رائعة متنوعة في شتى العلوم والمعرفة، واستمر هذا العطاء يتوهج جذوة علمية تعايش العصور، وتتسع آفاقها للتطور والنمو الفكري.

وإذا كانت الأحداث القاسية في عراقنا الحبيب والتي أثيرت من قبل النظام الصدامي وطالت مدينتنا مدينة الإمام علي عليه السلام، وضربت معهدها الشامخ، وشتتت أساتذتها وطلابها بحجة وأخرى، فإن العالم الإسلامي قد استنكر هذا الاعتداء الصارخ وشاركت الجامعات والمؤسسات العالمية في هذا الاستنكار.

(1) محاضرة ألقيت في مؤتمر العتبات المقدسة المنعقد في لندن. بتاريخ 24- 26/ 5/ 1991 في كاليري الكوفة - لندن.

إن قيام «الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية»في لندن بعقد هذا المؤتمر العلمي الفني يدعو إلى الشكر والتقدير لكل الأخوة الأساتذة الذين عملوا على تحضيره وتهيئته وفي مقدمتهم الأخ الجليل المؤمن المجاهد الدكتور المهندس السيد محمد علي الشهرستاني رائد هذه الجامعة ومؤسسها، راجياً من الله سبحانه أن يتقبل من الجميع جهدهم الرائع، ويحقق الآمال والطموحات التي من اجلها أقيم هذا المعرض، وانعقد هذا المؤتمر، ومنه الأجر والثواب.

المقدمة: النجف وفضلها ومركزها الديني

قال الإمام الصادق عليه السلام :

«إن ميمنة الكوفة روضة من رياض الجنة»

النجَفّ، بالتحريك:مكان لا يعلوه الماء. وقد يكون في بطن الوادي شبيهاً بنجاف الغبيط.

والنجف: التل، والنجفة، المسُناة، والنجفة التي بظهر الكوفة هي كالمُسناة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل الكوفة[1].

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام -سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام- أن النجف كان بحراً عظيماً، وكان يسمى ني، ثم جفّ بعد ذلك، فقيل: ني جف فسمي بنيجف، ثم سمي نجف لأنه كان أخف على اللسان[2].

وذكرت المصادر: بأن على مقربة من هذا الموضع قبر الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[3] .

---

(1) راجع: ابن منظور- لسان العرب، والزبيدي- تاج العروس، وياقوت الحموي-معجم البلدان: مادة «نجف».

(2) الصدوق - علل الشرائع: «علة» ص: 22، باب26 طبع إيران.

(3) ياقوت الحموي- معجم البلدان: مادة «نجف».

كما ذكرت المصادر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الكثير عن فضل النجف وما ورد فيها من الأخبار، وأنها روضة من رياض الجنة. ومنها الحديث المروي عن الإمام أبي جعفر الصادق عليه السلام، والذي صدرنا فيه البحث، بأن«ميمنة الكوفة روضة من رياض الجنة»، وتؤكد بعض المصادر: بأن المراد من ميمنة الكوفة قبر الإمام علي عليه السلام[1].

بالإضافة إلى هذا فإن النجف من قبل: «مهبط الأولياء، ودار هجرة الأنبياء عليهم السلام، وعليها استوت سفينة نوح عليه السلام -كما في بعض الأحاديث - وبها كان منزل إبراهيم الخليل عليه السلام، واليها كانت هجرته»[2].

ولهذا كله أطلق على هذه البقعة المباركة «النجف الأشرف» وكما يطلق عليها «العتبة المقدسة»، أو «المدينة المقدسة» نظراً لقداستها في نفوس الملايين من المسلمين لما لها من الشرف العظيم، والمكانة السامية.

ولأنها تشرفت بمرقد مثال العلم والمعرفة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. الإنسان الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي مع الحق، والحق مع علي يدور حيثما دار»[3].

وقد قدر لهذه المدينة المقدسة أن تصبح بعد زمان محطاً لأنظار العالم الإسلامي يهاجر إليها الآلاف من طلاب الفضيلة للتفقه والاشتغال العلمي، وقبلة تتوجه إليها نفوس الملايين من المسلمين في أقطار العالم الإسلامي كافة. ينظرون إليها بعين ملؤها التعظيم، والإجلال، و أن تكون يوماً ما مقراً للإفتاء، والتقليد، ومركزاً للمرجعية الكبرى التي تدير شؤون الشيعة في العالم الإسلامي.

---

(1) راجع: محبوبة - ماضي النجف وحاضرها: 1/ 12 طبع دار الأضواء -بيروت 1986.

(2) محبوبة - المصدر المتقدم: 1/ 16.

(3) المظفر- فضائل أمير المؤمنين وإمامته: 2/ 302 طبع دار أحياء التراث العربي- بيروت.

النجف جامعة علمية

قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم، وعلي بابها»

برزت «النجف الأشرف» على مسرح التاريخ عام 170هـ حين اكتشف قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد[1]، وبدأ المسلمون يتوافدون عليها من كل الأطراف لزيارة ذلك المرقد المطهر والتبرك بأعتابه، وبمرور الزمن أصبحت المدينة المقدسة مزاراً للمسلمين ومحط أنظار العالم.

وبرزت «النجف الأشرف» كجامعة علمية دينية عام449هـ حين انتقل إليها شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي[2] من بغداد، وأسس معهدها العلمي أثر فتنة طائفية أثارها السلجوقيون[3] في مفتتح حكمهم في العراق.

وعلى مرّ العصور أصبحت مدرسة النجف العلمية رابع معهد علمي ديني عرف عند المسلمين، فكما اشتهرت جامعة الزيتونة في تونس و«جامعة القرويين»[4] أقدم جامعة إسلامية في المغرب -و«الأزهر» في القاهرة، كذلك اشتهرت جامعة النجف في العراق، وامتد عمرها إلى قرابة ألف عام.

لقد كان لهذه الجامعة العلمية أثر كبير في انتشار فكر مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام، ذلك التراث الأصيل الذي يمثل التفسير وعلوم القرآن، والفقه، والحديث، وأصول الفقه، والفلسفة الإسلامية، كما لم تعدم الجامعة جوانب المعرفة الأخرى مما يتصل بالثقافة الإسلامية العامة،

---

(1) محبوبة - ماضي النجف وحاضرها: 1/ 39-41.

(2) تمر ترجمته قريبا علينا.

(3) السلاجقة أتراك يسكنون وراء النهر، قريباً من بخارى، حكموا رقعة كبيرة من بلاد الإسلام وأسسوا دولة في بغداد في ظل العهد العباسي راجع: الخضري- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية: 412 - 426 طبع القاهرة، سنة.

(4) جامع في فأس المغرب بني في القرن 3هـ مشهور بأبوابه الـ 14.

وخاصة الأدب العربي، فلقد أسهمت فيه هذه الجامعة إسهاماً كبيراً يتجلى ذلك في المؤلفات المتنوعة، والكتب العديدة التي صدرت من أعلام وأدباء النجف الأشرف وشعرائها في مجال النثر والشعر.

وقد ساعد على استمرارية هذه الجامعة في هذه المسيرة الطويلة وجود المرجعية الدينية للمسلمين الشيعة الإثني عشرية في أغلب مراحلها فيها، والتي يرجع لها في أمور الدين، والقيادة الدنيوية لقرابة 250مليون مسلم شيعي في كافة أقطار العالم الإسلامي.

ورغم أن المرجعية الدينية ليس لها حق التشريع في الأمور المنصوص عليها في الكتاب الكريم والسنة الشريفة، لكن فتح باب الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ساعد كثيراً على استنباط الأحكام الشرعية في الأمور المستجدة من أدلتها التفصيلية، وهذا ما فسح المجال للتطور الفقهي في إدارة شؤون الأمة ومسايرته لمقتضيات الزمن، بما يؤكد على عدم جمود المركزية الدينية العلمائية، وتحركها بما ينسجم وقيم الإسلام، وتعاليمه الإنسانية في بناء الفرد والمجتمع في ضوء المصلحة العامة السياسية، والاجتماعية، وكل جوانب الحياة الإنسانية.

أهم مميزات الجامعة العلمية النجفية

قبل أن نتحدث عن أدوار هذه الجامعة العلمية في مسيرتها الطويلة يجدر بنا أن نشير إلى أهم مميزاتها كأسلوب دراستها، وتطور مراحلها الدراسية ومراتب طلابها، ومسؤوليات خريجيها- وذلك في حدود المتسع من الوقت.

إن الوضع الدراسي في جامعة النجف لا يختلف كثيراً عن سائر الجامعات الإسلامية ذات الجذور الأصيلة، والامتداد التاريخي البعيد، إنما تمتاز هذه الجامعة ببعض الجوانب العلمية والفنية، لعل من أهمها:

1 - إن الطالب في مرحلته الدراسية - ضمن هذه الجامعة- لا يفكر بأن ينال شهادة، أو يجتاز عقبة امتحان رسمي ليحظى بوظيفة، إنما يفكر ويطلب العلم لنفسه.

2 - كما أن الطالب حرّ في اختيار المدرس، ولا يسع المدرس التخلف عنه بوجه -إذا كانت لديه فرصة من الوقت- ولم يكن هذا الدافع خوف السلطة الزمنية وضغطها على المدرس بعدم التخلف عن الاستجابة للتدريس، إنما هي تلبية لدعوة الواجب الديني فقط.

3 - إن التدريس في الجامعة النجفية بكل أقسامها مجاني، لا يأخذ عليه المدرس أجراً، ولا يتقاضى في سبيله راتباً، إنما عمله خالص لوجه الله سبحانه.

4 - إن الدراسة في هذه الجامعة -إذا كان الطالب جاداً- تنتهي به إلى حصول ملكة الاجتهاد في الفقه الذي تختص الإمامية بفتح بابه.

5 - إن الطالب في جامعة النجف لابد له من دراسة العربية، والمعاني، والبيان، والبلاغة، والمنطق، كمقدمة لدراسة الفقه، كما يقتضى دراسة مراتب الحديث الشريف.

ليكون بذلك كله على استعداد لدراسة الفقه، وأصوله، لأنهما يعتمدان على فهم الكثير من النصوص القرآنية، والسنة الشريفة، ليتمكن من الاستدلال، ومناقشتها، ولذا فإن مراحل الدراسة التي يمر بها الطالب ضرورية للوصول إلى الغاية المنشودة وهي (مرتبة الاجتهاد) وتكون ثلاث مراحل :

أولا : الدراسات التمهيدية:

وقد يطلق عليها «مرحلة المقدمات» ويراد بهذا المصطلح الدروس الأولية لطالب الجامعة النجفية، كالنحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق

وربما يضم إلى هذه العلوم دراسة علم الحديث، والعلوم الرياضية، وبعض العلوم الأدبية: كعلم العروض، والبديع، والنصوص الأدبية، كل ذلك حسب رغبة الطالب، واستعداده للمشاركة بهذه المعارف.

وعلى الأعم تكون الدراسة في هذه المرحلة فردية، وان كان من الممكن أن يشترك عدد من الطلاب في درس من هذه الدروس.

وللطالب حرية اختيار المدرس، والمكان والزمان والكتاب، حسب اتفاق المدرس والتلميذ، والمهم في هذه المرحلة أن يوفر الأستاذ للطالب حرية النقاش معه بالقدر الذي يسع أفق الطالب وتفكيره. والغرض من هذه الحرية التوجيه والتمرين على قوة الملاحظة، ومدة هذه المرحلة من 3-5 سنوات.

ثانياً: الدراسات الوسطى:

وقد يطلق عليها «مرحلة السطوح» ويقصد بهذا المصطلح الدراسة التي تشمل متون الكتب الاستدلالية الفقهية والأصولية، ويتبع فيها محاكمة الآراء ومناقشتها بحرية كاملة، وعلى الأكثر تكون هذه المرحلة على أسلوب الحلقات، حيث يجتمع أكثر من طالب واحد في مجلس أحد المدرسين المعروفين، ويختلف عدد الطلاب في كل حلقة حسب اختلاف المدرس، وتفوقه في أسلوب التدريس وسعة إطلاعه، كما أن الحرية مطلقة للطالب في اختيار الكتاب، والمدرس.

إن كتب السطوح كلها استدلالية، وإن دراستها والاستفادة منها توسع ذهن الطالب، وتمنحه قدرة خاصة لإقامة الدليل، أو رد البراهين والدعاوى.

وقد تضم هذه المرحلة علم الكلام، والفلسفة الإلهية، والتفسير، وأصول الحديث وأحوال الرواة، ومدة هذه المرحلة (السطوح) عادة من 3-6 سنوات، وقد تزيد أحياناً، وإذا انتهى الطالب منها بإتقان استحق أن يسمى «مراهقا» بمعنى أنه مقارب لدرجة الاجتهاد.

ثالثاً: الدراسات العليا:

وقد تسمى هذه المرحلة بـ «بحث الخارج» ، والمقصود من «البحث» المحاورة والمناقشة بين الطرفين، وقد أطلق على المرحلة الأخيرة من الدراسة الجامعية الدينية اسم البحث، وذلك لتوفر الحرية في إعطاء الرأي ومناقشته والمؤاخذة على إيراد الإشكال، والدفاع والاستدلال، وتكون حجتهم موضع عناية الأستاذ والطلاب.

والمقصود بمصطلح «الخارج» الدروس التي يتلقاها الطلاب في هذه المرحلة الثالثة، والأخيرة، وأنها تكون خارج نطاق الكتب، يحاضر فيها الأستاذ ويستمع إليه الطالب دون كتاب.

وهذه المرحلة يختص بالأستاذية فيها كبار العلماء المجتهدين في الفقه والأصول، وقد يوفق الطالب فيها إلى بلوغ درجة الاجتهاد، وهي أعلى درجة، وبهذا تمتاز هذه الجامعة الإسلامية في أسلوب التدريس، وفي حرية المناقشة والرأي، وفي درجتها العلمية العالية، وقد تتطرق الدراسة إلى المقارنة العلمية بين فقه المذاهب الإسلامية.

وميزة هذه المرحلة عمق البحث ودقته، وسعة أفقه، والحرية الكاملة في نقد الآراء ومناقشتها مهما كان صاحبها، وإلى هذا النهج الدراسي يعزى السر في تطور الدراسات الفقهية والأصولية في جامعة النجف على مر القرون.

ولعل نظرة واحدة في كتب الفقه والأصول في القرنين الرابع والخامس مثلاً، ومقارنتها بكتب القرون الأخيرة، وبخاصة كتب هذا القرن نعرف مدى التطور الذي بلغه البحث العلمي في هذا الشأن.

ومدة هذه المرحلة تستمر لعدة سنوات، حتى تتم دورة كاملة في أبواب الفقه أو الأصول[1].

---

(1) لزيادة الإطلاع على هذه المراحل الدراسية، يراجع: محمد بحر العلوم- الدراسة =

ولم تتقيد جامعة النجف بمحل واحد للدراسة، إنما تتخذ من الجوامع والمدارس الدينية-المعدة لسكن طلاب العلوم، والصحن العلوي الشريف أماكن للتدريس[1].

والشيء الذي لابد من الإشارة إليه هو:

إن أساتذة وطلاب الجامعة النجفية على اختلاف مراتبهم ومكانتهم لا يعتمدون في تكاليف حياتهم المعيشية على راتب أو منحة من "الحكومة المحلية"، ولا يقبلون مورداً من "الدولة"، إنما يعتمدون بالدرجة الأولى على موارد الحقوق الشرعية التي تصل إلى المراجع العظام، والعلماء المقصودين في الحوزة العلمية. وهذه الحقوق المؤلفة من الخمس، والزكاة، وباقي الموارد التي يجمعها بيت مال المسلمين، تصرف بنظر المرجع الديني الأعلى، للمشاريع الدينية والإنسانية التي يطمئن فيها إلى رضا الإمام المهدي عليه السلام صاحب الأمر الحقيقي، والمراجع والعلماء نوابه أيام غيبته.

وفي نظر المسلمين الشيعة الإمامية أن يكون المرجع الديني، والعالم الرباني بعيداً عن مساعدة الدولة، وكذلك طلاب العلوم الدينية، كي يكونوا أحراراً في حياتهم، وأن لا تتحكم فيهم سياسة الحكومة، وتسيرهم أجهزة النظام الحاكم، تطبيقا للمقولة المشهورة: «إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فقل: بئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فقل: نعم العلماء ونعم الملوك».

= وتاريخها في النجف، ضمن موسوعة العتبات المقدسة. قسم النجف/ جعفر الخليلي 2 الجزء7 / 91-107. طبع بيروت.

(1) لزيادة الاطلاع راجع: بحر العلوم- المصدر السابق: 7 / 107- 110.

تأسيس الجامعة العلمية النجفية

تأسست الجامعة العلمية النجفية في عهد الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، 449هـ واستمرت في عطائها الفكري طيلة قرون، وهنا تدور أسئلة لابد من الإجابة عليها، هي:

أولاً: هل كانت النجف مركزاً علمياً قبل عهد الشيخ الطوسي؟

ويبدو هنا اتجاهان:

أحدهما: يذهب إلى وجود حركة علمية سابقة في هذه المدينة المقدسة.

وثانيهما: إن النجف كانت قاحلة علمياً ، وعند هجرة الشيخ الطوسي إليها أوجد فيها حركة علمية.

حين نستعرض أقوال الذاهبين بوجود حركة علمية قبل هجرة الشيخ الطوسي إليها، نراها تتلخص بالآتي:

1 - ذكر السيد ابن طاووس[1] -وهو من المختصين بتاريخ النجف- بأن عضد الدولة البويهي[2]، زار المشهد العلوي الطاهر عام371هـ، وتصدّق، وأعطى الناس على اختلاف طبقاتهم، وكان نصيب الفقراء، والفقهاء ثلاثة آلاف درهم[3].

---

(1) غياث الدين عبد الكريم بن أحمد، المعروف بابن طاووس، والمنتهي نسبه إلى الحسن المثنى ابن الإمام الحسن عليه السلام، ولد في كربلاء سنة 648هـ، ونشأ في الحلة، وكان تحصيله في بغداد، وتوفى بمشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الكاظمية سنة 693هـ. وحمل نعشه إلى مدينة جده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ودفن هناك فكان عمره 45 سنة، لزيادة الإطلاع على ترجمته يراجع مقدمة كتابه «فرحة الغري» طبع النجف مطبعة الحيدرية 1368هـ.

(2) أبو شجاع بن ركن الدولة الحسن بن أبي شجاع بويه، المنتهى نسبه إلى يزدجر ولد باجهان عام 324هـ، وتوفى عام373هـ ببغداد، ترجمة: القمي - الكنى والألقاب: 2/ 433.

(3) ابن طاووس- فرحة الغري: 113-114 وأشار ابن الأثير- الكامل في التاريخ: 8/ 705 طبع بيروت - الصادر.

2 - صدور إجازات علمية من النجف الأشرف قبل ورود الشيخ الطوسي إليها، منها:

أ - ما نقل أن من مشايخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي -المعروف بـ «الشيخ الصدوق» المتوفى سنة 381هـ[1]- محمد بن علي بن الفضل الكوفي[2]، سمع منه سنة 354هـ عند وروده إلى الكوفة، وهو في طريقه إلى الحج، وكان سماعه بمشهد أمير المؤمنين[3].

ب - ما ذكره أحمد بن علي النجاشي[4] - في ترجمة الحسين بن أحمد بن المغيرة أبي عبد الله البوشنجي إذ قال ما نصه:

[كان عراقياً مضطرب المذهب، وكان ثقة فيما يرويه، له كتاب«عمل السلطان» أجازنا بروايته أبو عبد الله (الحسين بن جعفر بن محمد المخزومي الخزاز) المعروف بابن الخمري، الشيخ الصالح بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام سنة أربعمائة][5].

3 - ورد ذكر لبعض البيوت العلمية التي لمعت في النجف في القرن الرابع والخامس، كآل شهريار[6]، وآل الطحال[7]، وغيرهما، وقد جمعت هذه البيوت بين الفضيلة وخدمة الروضة الحيدرية[8].

---

(1) ترجمة: العلامة الحلي - الرجال: 147طبع النجف.

(2) ترجمة: المامقاني - الرجال 3/ 158طبع النجف.

(3) مقدمة كتاب من لا يحضره الفقيه - الصدوق: 19طبع النجف.

(4) صاحب كتاب الرجال، ترجمة: القمي - الكنى والألقاب: 2/ 207.

(5) النجاشي - الرجال: 1/ 190/ طبع دار الأضواء - بيروت 1988.

(6) آل شهريار، من الأسر العلمية، البعيدة الذكر، القديمة العهد، خدمت العلم والدين، والمرقد العلوي عرفت بالنجف في القرن الرابع، واشتهرت بالقرن الخامس. راجع (محبوبة - المصدر السابق: 2/ 402).

(7) آل الطحال، أسرة علمية قديمة عرفت بالنجف- أيضا- بالقرن الرابع، وبقيت حتى أواخر القرن السادس الهجري، من خدم الحضرة العلوية، تنسب إلى المقداد بن الأسود الكندي. راجع (محبوبة - المصدر السابق: 2/ 423).

(8) محبوبة المصدر المتقدم: 2/ 402و423.

4 - النقابة في النجف: وهذا المركز أقرب إلى المركز الروحي من غيره، ولقد ذكرت الكتب المختصة أن عدداً من الأعلام تولوا نقابة المشهد، منهم:

أ - السيد شريف الدين محمد المعروف بابن السدرة، أقام في النجف عام 308هـ حتى توفي فيه[1].

ب - ناصر الدين، مطهر بن رضي الدين محمد بن علي المنتهى نسبه إلى السيد عبد العظيم الحسيني، وقد تولى نقابة المشهدين العلوي، والحسيني[2].

وهناك عدد من النقباء تولوا نقابة الأشراف في الكوفة والنجف فيما يقارب هذا التاريخ[3].

5 - علماء نسبوا إلى النجف قبل عهد الشيخ الطوسي، منهم:

أ - احمد بن عبد الله الغروي، يروى عن أبان بن عثمان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[4].

ب - شرف الدين بن علي النجفي، وصفه الشيخ الطوسي بقوله: «كان صالحاً فاضلا»[5].

ج - عبد الله بن أحمد، أبو طاهر، كان معاصراً للشيخ المفيد[6].

د - أحمد بن شهريار، أبو نصر، الخازن للحضرة الغروية، كان من رجال العلم، وحملة الحديث، معاصراً للشيخ الطوسي[7].

---

(1) البراقي - تاريخ الكوفة: 223.
(2) البراقي - المصدر المتقدم: 223.
(3) راجع: البراقي - المصدر السابق: 223- 226.
(4) المامقاني-تنقيح المقال: 1/ 65.
(5) المامقاني - المصدر السابق: 2/ 83.
(6) محبوبة - المصدر السابق: 2/ 404.
(7) محبوبة - المصدر المتقدم: 2/ 402.

وغير هؤلاء كثيرون لو حاولنا تتبع تراجمهم.

6 - وذهب البعض إلى أن الشاعر الحسين بن أحمد المعروف بابن الحجاج[1] انشد قصيدته الرائعة عند زيارته لمرقد الإمام علي عليه السلام في النجف أواخر القرن الرابع الهجري والتي مطلعها:

يا صاحب القبة البيضاء في النجف

من زار قبرك واستشفى لديك شفي[2]

وجاء في القصيدة البيت التالي:

وقل سلام من الله السلام على

أهل السلام، وأهل العلم والشرف

وأنه أشار بهذا البيت إلى أهل العلم الساكنين في النجف الأشرف، والمجاورين لقبر الإمام علي عليه السلام[3].

هذه هي أهم مقومات الذاهبين إلى القول بأن الجامعة العلمية في النجف كانت قبل هجرة الشيخ الطوسي. ومن هذه المقومات انسابت الأفكار في التحديد التأريخي لتأسيس الجامعة النجفية، وتكاد تنحصر في اتجاهين:

الأول: أنها تأسست على يد الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان، المتوفى عام 413هـ[4].

(1) من شعراء العصر البويهي، جمع بين الجد والهزل، وكان معاصراً للشريفين المرتضى والرضي، له ديوان شعر، توفى عام 391هـ، ودفن بالكاظمية. راجع ترجمته في: الثعالبي-يتيمة الدهر: 3/ 31- 104، والزر كلي - الإعلام: 2/ 49 الطبعة الخامسة دار العلم للملايين -1 1980 والقمي-الكنى والألقاب: 2/ 251. / ط النجف الحيدرية.

(2) الأمين السيد محسن- أعيان الشيعة: 5/ 433 طبع بيروت الطبعة الثانية.

(3) شمس الدين، محمد رضا- حديث الجامعة النجفية: 11طبع النجف.

(4) ترجمة: النجاشي- الرجال: 2/ 327، والطوسي-الرجال: 514.

وهذا الرأي يبقى مفتقراً إلى دعم تأريخي، فالذي نقرؤه في حدود تتبعي لم أعثر على سند يؤكد على انتقال الشيخ المفيد إلى النجف كمهاجر إليها، وأقام مدرسة علمية فيها.

الثاني: إن تأسيس الجامعة ينتهي إلى أبعد من هذا، ويربط امتدادها إلى معهد الكوفة العلمي، والذي شيد أركانه الإمام علي عليه السلام، وبلغ أوجه في عهد الإمام الصادق عليه السلام، وقد نقل عن الحسن بن علي الوشاء[1] أنه قال:أدركت في هذا المسجد-الكوفة- تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد عليه السلام[2].

وهذا القول مستبعد لأمرين:

الأول: إن مرقد الإمام علي عليه السلام لم ينكشف أمره إلا في عهد هارون الرشيد -الخليفة العباسي- في حدود سنة 170هـ، أو بعد 180هـ، ثم جاوره الناس[3].

ولم تذكر لنا المصادر بأن النجف كان يسكنها أحد قبل هذا التاريخ، وحتى بعده بصورة يمكن القول بانتقال بعض العلماء وطلاب العلم إليها.

اللهم إلا على ادعاء أن النجف والكوفة كانتا واحدة، ولم نر ما يدعم هذا القول إلا ما يقوله بعض المحققين: بأن النجف كانت تعد جزءً من الكوفة في القرن الخامس الهجري[4].

الثاني: إن الافتراض بأن النجف ضمت بعض العلماء بعد انتقالهم من الكوفة بحيث كوّنوا معهداً علمياً -يشار إليه- يبقى محتاجاً إلى دليل يدعمه، ولا دليل لدينا عليه.

---

(1) ترجمة: القمي - الكنى والألقاب: 2/ 246.
(2) البراقي - المصدر السابق: 408.
(3) المستوفي - نزهة القلوب: 134.
(4) محمد صادق بحر العلوم- مقدمة رجال الطوسي: 27. الطبعة / النجف / المطبعة الحيدرية

ثانياً: الجامعة العلمية النجفية أسسها الشيخ الطوسي

وهناك العديد من المؤرخين يؤكدون أن الجامعة العلمية في النجف الأشرف تأسست على يد الشيخ أبي جعفر الطوسي، محمد بن الحسن، بعد انتقاله إليها من بغداد عام449هـ على أثر فتنة طائفية هوجاء، عصفت بشيعة بغداد وهددتها بالفناء، وأودت بحياة آلاف المسلمين من السنة والشيعة.

والظاهر أن هذه العاصفة القاسية هبت على العراق، حين اشتد الصراع بين الخلافتين العباسية في العراق، والفاطمية في مصر، على إسقاط الحكم العباسي ببغداد، وامتداد الحكم الفاطمي، واستمرت هذه العاصفة تمزق الأمة الإسلامية بضع سنوات بلغت ذروتها عام449هـ، حيث تغلب التيار الفاطمي، وقطع الخطبة عن الخليفة العباسي حينذاك، وهو: أبو جعفر عبد الله بن أحمد، والملقب بـ «القائم بأمر الله»[1] في بغداد وغيرها من المناطق العراقية وخطب للخليفة الفاطمي، معد بن علي بن الحاكم بأمر الله، والملقب بـ «المستنصر بالله» أبو تميم المتوفى عام487هـ[2] ، مما اضطر أن يكاتب القائم بأمر الله العباسي السلطان محمد بن ميكائيل السلجوقي، والملقب بـ «طغرل بك»[3]، ويدعوه إلى بغداد مستنجداً به، طالباً إنقاذه من الوضع الذي هو فيه، وإعادة المجد العباسي، وكان حينذاك في خراسان فلبى الطلب، ودخل بغداد عام447هـ، ودارت حرب وفتن شديدة بين أتباع الطرفين كان من جرائها

---

(1) من خلفاء الدولة العباسية، ولد عام391هـ ولي الخلافة بعد أبيه القادر بالله عام442، واستمر فيها حتى عام 467هـ، وفي خلال حكمه كانت حوادث طائفية هوجاء كادت تفنى بغداد والعراق راجع: ابن الأثير- الكامل في التاريخ: حوادث 442-452هـ.

(2) ترجمة: الزر كلي - الإعلام: 7 / 267.

(3) طغرل بك، أول ملوك الدولة السلجوقية، ولد عام385هـ، ملك في إيران والعراق وحين أرجع بغداد للحكم العباسي خطب ابنة القائم العباسي، فزوجها أبوها منه ومكث معها مدة قصيرة، وكان مريضا حينها، توفي بالري عام455. راجع: ابن تغري بردي- النجوم الزاهرة: 5/ 73طبع مصر.

أن كبست دار أبي جعفر الطوسي -متكلم الشيعة بالكرخ-، وأخذ ما وجد عنده من دفاتر، وكرسي- كان القائم بأمر الله العباسي أعطاه له، يرقى عليه حين الدرس والخطب، وهو نوع من التقدير يعطى لمن بلغ مرتبة سامية في العلم يتميز بها على أقرانه-، وأضيف إليه ثلاثة سناجق بيض(وهي رايات) كان الزوار من أهل الكرخ- قديما- يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة، فأحرق الجميع وهرب أبو جعفر الطوسي، ونهبت داره[1]... وتضيف الرواية:

في مشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ومساجد الكرخ، أقيم الأذان بـ «الصلاة خير من النوم» على رغم أنف الشيعة، وأزيل ما كانوا يقولونه في الآذان من«حي على خير العمل» - على حد قول الراوي-[2].

وتتابع الرواية، فتقول في وصف الأحداث الطائفية الدائرة حينها: ودخل منشدو أهل السنة إلى الكرخ، وهو معقل الشيعة فأنشدوا الأشعار في مدح الصحابة، وتقدم رئيس الرؤساء إلى ابن النوي -مدير شرطة طغرل بك[3]- بقتل أبي عبد الله الجلاب -شيخ البزازين بباب الطاق- لما كان يتظاهر به من الغلو في الرفض، فقتل، وصلب على باب دكانه[4].

إذاً فالفتنة الطائفية بلغت ذروتها في بغداد خاصة، ولم يسلم منها الشيعة وكان نصيب الشيخ الطوسي منها كبيراً باعتباره الشخصية الشيعية الأولى، وعلمهم المبرز، مما اضطره أخيراً - رغم مكانته في بغداد- أن يهاجر إلى النجف، واختارها مقراً له، ومركزاً لحركته العلمية.

---

(1) ابن الجوزي- المنتظم: 8/ 127و179.

(2) ابن تغري بردي- المصدر السابق: 5/ 59.

(3) استظهر أن ابن النوي كان من شرطة طغرل بك فقد ذكر ابن الجوزي في المنتظم: 8/ 179حوادث سنة 449 جاء «وفيها استعفى ابن النوى من الشرطة فأعفى».

(4) ابن الجوزي- المنتظم: 8/ 172ولزيادة الاطلاع على حوادث هذه الفتنة راجع: علي إبراهيم حسن- التاريخ الإسلامي العام: 460/ طبع القاهرة. والسيوطي- تاريخ الخلفاء: 417/ طبع مصر.

فالنجف الأشرف تمتعت بميزات خاصة فُضلت على بقية المدن العراقية منها:

1 - أنها تضم مرقد إمام العلم والفضيلة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وفيها تربة قابلة للنمو العلمي، وذلك لوجود بعض الأعلام الذين سبقوا شيخنا الرائد واتخذوا مجاورة الإمام علي عليه السلام مركزاً ومقراً لهم.

2 - إن النجف تتكئ على الكوفة، وهذه المدينة علوية في ذاتها، وهي وإن وقفت في فترة ضد أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأتباع مدرستهم، إلا أنها عادت إلى رشدها بعد زمان، وأصبحت موئلاً للشيعة، ومركزاً للتوابين منهم ومنطلقاً للثورات العلوية.

وإذا كان هذا الجانب متوفراً في مدينة الإمام علي عليه السلام فلابد أن يكون هو المفضل لدى الشيخ الطوسي، الذي اضطرته المشاكل الطائفية، وحوادثها الدامية إلى ترك بغداد.

وينتهي من يذهب إلى هذا الرأي إلى أن الشيخ الطوسي حين انتقاله إلى النجف الأشرف عام449هـ، وحط رحله فيها، انصرف إلى البحث العلمي، وجمّد الكثير من أعماله الاجتماعية من أجل هذا الجانب، الأمر الذي ساعده كل المساعدة على إنجاز دوره العلمي العظيم، الذي ارتفع به إلى مستوى المؤسسين[1].

وبعد أن عرضنا الرأيين في تأسيس جامعة النجف العلمية، فإننا لا نستطيع أن ننفي كل هذا، كما لا نقبله كله، وإنما المرجح أن نذهب إلى حد وسط ونقول: بأن النجف قبل هجرة الشيخ الطوسي في عام 449هـ كانت فيها جذور علمية، وتضم بعض رجالات الفضل والعلم الذين اتخذوا من النجف الأشرف بعد ظهور القبر فيه مقراً لهم.

---

(1) الصدر- المعالم الجديدة: 63/ طبع النجف.

ويدعم رأينا هذا المرحوم المحقق الشيخ أغا بزرك الطهراني، إذ يقول: «إنني أذهب إلى القول بأن النجف كانت مأوى للعلماء، ونادياً للمعارف قبل هجرة الشيخ الطوسي إليها، وأن هذا الموضع المقدس أصبح ملجأً للشيعة منذ أنشئت فيه العمارة الأولى على مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، لكن حيث لم تأمن الشيعة على نفوسها من تحكمات الأمويين والعباسيين، ولم يستطيعوا بث علومهم، ورواياتهم كان الفقهاء والمحدثون لا يتجاهرون بشيء مما عندهم، وكانوا متبددين حتى عصر الشيخ الطوسي، وإلى أيامه، وبعد هجرته، انتظم الوضع الدراسي، وتشكلت الحلقات الدراسية- كما لا يخفى على من راجع أمالي الشيخ الطوسي، الذي كان يمليه على تلامذته»[1].

وكذلك يرى الدكتور مصطفى جواد[2] بأن النجف كانت تضم أعلاماً بثوا العلم قبل الشيخ الطوسي، ثم يقول: ويصعب التصديق، بأن الشيخ أول من جعل النجف مركزاً علمياً[3] .

وكيفما كان فان وجود بعض الأعلام يساعد على الادعاء بوجود أرضية صالحة لتقبل الوجود العلمي الذي تأسس في عهد الشيخ الطوسي، وليس القول بأنه كان وجوداً علميا حركاً ونشطاً في النجف قبل هجرة الشيخ الطوسي إليها.

من هو الطوسي؟؟

تعرفه المصادر: بأنه: الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي -نسبة إلى طوس من مدن خراسان-، والمعروف بـ «شيخ الطائفة» من رجالات العلم، وجهابذته المبرزين.

---

(1) الطهراني- مقدمة تفسير التبيان- للشيخ الطوسي: 11/ طبع الأمين-النجف.

(2) من أعضاء المجمع العلمي العراقي توفى عام1969ترجمة: الزر كلي -الأعلام: 7/ 230.

(3) د. مصطفى جواد- نظرات في الذريعة: مقال منشور في مجلة البيان النجفية: س1/ع6/ ص133.

ولد بطوس في شهر رمضان عام385هـ، وهاجر إلى العراق، لطلب العلم وحط رحله في بغداد عام 408هـ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

وكانت بغداد حينذاك تعج بعلماء المسلمين، كان من أبرزهم الشيخ المطلق للشيعة محمد بن محمد بن النعمان العكبري، البغدادي، المعروف بـ «الشيخ المفيد»[1]. فلازمه، وتتلمذ عليه، وبقي معه حتى سنة 413هـ حيث لبى الشيخ المفيد نداء ربّه[2].

ولازم الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، المتوفى عام436هـ[3] بعد أستاذه الشيخ المفيد، واستفاد من علمه وملازمته، وكان موضع عنايته واهتمامه مما ميزه عن سائر تلامذته[4]، وبقي ملازماً له طيلة ثلاث وعشرين سنة.

وفي عام436هـ استجاب السيد المعظم إلى دعوة ربّه، وعند ذاك كان الشيخ الطوسي المرشح الوحيد لمركز الزعامة الدينية للشيعة في العراق، وتهافت المسلمون عليه للاستفادة منه، وأصبحت داره في الكرخ ببغداد مأوى الأمة، والتف حوله عدد كبير من أهل الفضل والعلم للتلمذة عليه، حتى قدر عدد تلاميذه -في بعض المراحل- بثلاثمائة من أهل العلم والفضل، ومجتهدي الشيعة، فضلاً عن عدد كبير من سائر المسلمين[5].

وباتساع أفق هذه الشخصية العلمية، وما بلغ به من العظمة والمنزلة جعل له القائم بأمر الله العباسي، أبو جعفر عبد الله كرسياً للكلام والإفادة[6]، وهو تقدير كبير من الخليفة العباسي للذي يبلغ منزلة كبيرة من العلم تميزه عن باقي العلماء.

---

(1) وقد يطلق عليه «ابن المعلم» راجع: اليافعي - مرآة الجنان، حوادث سنة 413هـ.
(2) ترجمة: الزر كلي - الأعلام: 7/ 21.
(3) ترجمة: الزر كلي - الأعلام: 4/ 278.
(4) علي خان - الدرجات الرفيعة: 460 طبع النجف.
(5) أغابزرك - مقدمة تفسير التبيان: 80. طبع النجف
(6) بحر العلوم- مقدمة رجال الطوسي: 31.

قالوا فيه:

«... رجل واحد يقال له (الشيخ الطوسي)، مع أن مدينة (طوس) التي ينتسب إليها لا تعتمد في شهرتها ومجدها على غيرها- على كثرة من أنجبت على طول تاريخها المديد-من مشاهير الرجال في عالم العلوم، والآداب، والسياسة، والحرب، ووفرة من ينتسب إليها قبل الشيخ وبعده من الشيوخ والعلماء، ذلك لأنه-في الحقيقة-رجل فذ بين علماء الإسلام، رفعته مؤلفاته الكثيرة، وجهوده العلمية المثمرة إلى مرتبة عالية ممتازة، لا ينافسه فيها أحد، فاستحق بذلك أن يمنحه مواطنوه هذا اللقب، تشريفاً له بين جميع من ينتسبون إلى مدينتهم -ذات المجد التليد- واستحق الشيخ عند الشيعة لقباً آخر يزيد عن اللقب الأول في مغزاه، ويعبر بفصاحة- لا مثيل لها -عن جميل تقديرهم إياه، ويعين منزلته بين جميع الطائفة الإثني عشرية، وذلك إذ يلقبونه بـ(شيخ الطائفة)، وإذا أطلق أحد هذين اللقبين، أو كلاهما على شخص لم ينصرف ذهن العارفين إلى شخص سواه...»[1].

لقد بلغت منزلة الشيخ الطوسي في بغداد أوجها بين علماء العصر من جميع الطوائف وبلغ قبول أهل السنة له إذ اعتبره بعض المؤرخين أنه من أعلامهم، وينتمي إلى المذهب الشافعي[2].

وبعضهم نسبه إلى الاعتزال[3] وهذا كله خطأ لا غبار عليه، وان

---

(1) د. محمود محمد الخضري- الشيخ الطوسي، مؤسس المركز العلمي بالنجف (مقال) نشر في مجلة رسالة الإسلام، التي تصدرها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، العدد الأول/ س7/ ص40.

(2) السبكي، طبقات الشافعية: 3/ 51 طبع مصر، وحذا حذوه الحاجي خليفة جلبي فقد نقل في كتابه (كشف الظنون: ج1/باب التاء) تحت عنوان (تفسير الطوسي)
نص عبارة السبكي، وقد أخذ المرحوم السيد محمد صادق بحر العلوم عليه هذا الغلط وناقشه راجع: مقدمة رجال الطوسي: 31.

(3) د. محمود محمد الخضيري- الشيخ الطوسي - مقال نشر في رسالة الإسلام المصرية/ 14/ س7/ ص40. =

الشيخ من أركان المذهب الجعفري وحاز الثقة التامة من طبقات الشيعة جمعاء في رواية الحديث وتحليله.

وأخيراً :

فإن «الطوسي كان شيخ الطائفة في عصره غير منازع، ولقد كان من أعيان القرن الخامس الهجري، وكتبه موسوعات فقهية وعلمية، ودرس الفقه المقارن، ولم تقتصر دراساته على فقه الإمامية وعلومها».

ثم أضاف المتحدث عن الشيخ الطوسي قوله:

وإننا قبل أن نترك الكلام في كتب الطوسي لابد أن نذكر تقديرنا العلمي لذلك العالم العظيم، ولا يحول بيننا وبين تقديره نزعته الطائفية، أو المذهبية، فإن العالم يقدر لمزاياه العلمية، لا لآرائه ونحلته، ولا نود أن يكون الاختلاف المذهبي حائلاً بيننا وبين تقديره.

وإننا -شهد الله- ما جعلنا الاختلاف المذهبي، أو الطائفي مانعاً يمنع من التقدير للرجال، وإن خالفناهم في كثير من الأفكار....

وان الشيخ الطوسي قد خدم المذهب الجعفري بدراساته المقارنة، وبتعبيد مسالكه، وبالكتابات المتقصية لأطراف مسائلة...

وإنه كـ «كاتب» القرن الخامس الهجري قد أوتي أسلوباً قويماً يكتب الفقه في لغة سهلة معبرة موضحة، لأعوص المسائل وأعمقها بحيث يجعلها قريبة دانية مألوفة معروفة.

ولذلك حقت علينا تحيته، وحق علينا تقديره، مع مخالفتنا له في المذهب[1].

= ولا يوجد في ترجمة الشيخ ما يشير إلى ذلك عدا ما قال صاحب المقال د. محمود: «إذ اشتهر عنه».

(1) محمد أبو زهرة- الإمام الصادق: 260 و448 و458 طبع مصر.

وهكذا دبت في النجف حركة علمية نشيطة بفضل شيخنا الرائد، وتوطدت أركانها بمرور الزمن، حتى برزت مظاهر الحياة العلمية المرتبة واضحة للعيان، وأصبحت الجامعة تضم عدداً من طلاب المعرفة لا يستهان بهم، وأخذت تتكاثر يوماً بعد يوم.

هل نقل الطوسي حوزته معه من بغداد؟

وقبل أن نختم الحديث في هذا الفصل لابد أن نعرف: هل الشيخ- قدس سره- حين انتقل من بغداد إلى النجف، انتقل طلابه معه- والذي تجاوز عددهم العشرات-وشاركوه في تأسيس الحوزة العلمية، أم أنه انتقل إليها بمفرده؟

رجحت بعض المصادر: أن الشيخ عند هجرته إلى النجف انفصل عن حوزته العلمية التي أسسها ببغداد، وأنشأ في مهجره النجف حوزة جديدة، واستندت في دعواها إلى عدة مبررات أهمها ما يلي:

أولاً: إن مؤرخي هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف لم يشيروا إطلاقاً إلى أن تلامذة الشيخ في بغداد رافقوه، أو التحقوا به فور هجرته إلى النجف.

ثانياً: إن الدور الذي أداه ولد الشيخ الطوسي، أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن[1] يدل على حداثة الحوزة، فقد تزعمها بعد أبيه، ومن المظنون أنه كان في دور الشباب حين هجرة والده، ذلك لانعدام تاريخ ولادته، ووفاته، ولكن الثابت تاريخياً أنه كان حياً في سنة515هـ، أي إنه عاش بعد هجرة الشيخ قرابة سبعين عاماً، ويذكر عن تحصيله أنه كان شريكاً في الدرس عند أبيه مع الحسن بن الحسين القمي، والذي يرجح كونه من الطبقة المتأخرة، كما يقال أن أباه أجازه سنة 455هـ، أي قبل

(1) راجع ترجمته في مقدمة تلخيص الشافي - للطوسي: 1/ 45 طبع النجف.

وفاته بخمسين عاماً، وهو يتفق مع حداثة تحصيله.

فإذا عرفنا أنه خلف أباه في التدريس، والزعامة العلمية للحوزة في النجف بالرغم من كونه من تلامذته المتأخرين في أغلب الظن استطعنا أن نقدر المستوى العلمي العام لهذه الحوزة، ويتضاعف الاحتمال في كونها حديثة التكون.

والصورة التي تكتمل لدينا على هذا الأساس هي: أن الشيخ الطوسي بهجرته إلى النجف انفصل عن حوزته الأساسية في بغداد، وأنشأ حوزة جديدة في النجف وتفرغ في مهجره للبحث، وتنمية العلم[1].

وعلى كل حال فإن الحوزة العلمية التي أسسها الشيخ الطوسي في النجف كانت فتحاً كبيراً، وفي الوقت نفسه كانت نواة للجامعة العلمية التي عاشت الأجيال، ومن ذلك التاريخ دخلت مرحلة علمية منتظمة، استمرت بين الشدة والضعف، وقطعت أشواطاً بعيدة في مستواها العلمي، ومسيرتها الجامعية، وهي تسجل لمؤسسها دور القيادة والزعامة بكل تقدير وإكبار.

---

(1) الصدر - المصدر السابق: 64 - 65 بتلخيص.

الأدوار التي مرت على النجف في مسيرتها العلمية

خلال هذه المسيرة الطويلة والشاقة-والتي تكاد تصل إلى الألف عام- تمرّ هذه الجامعة بأدوار يمكننا حصرها بثلاثة أدوار مهمة نعرضها بشيء من الإيجاز.

الدور الأول: لجامعة النجف

1 - الطوسي مؤسس الجامعة:

بدأ هذا الدور بانتقال الشيخ الطوسي -رحمه الله- إلى النجف، حيث أسس فيها حوزة علمية منظمة ذات حلقات، لها خصوصيتها في التدريس، فوضع كتباً في الفقه، والأصول، والحديث، بحيث أصبحت موضع اهتمام الفقهاء والأصوليين من بعده، ومن أبرز هذه الكتب: «المبسوط» في الفقه، و «العدة» في الأصول، وفي الحديث «التهذيب» و «الاستبصار»، وأضاف لهما في الفقه المقارن كتابه «الخلاف» وكللها بكتابه «التبيان» في التفسير.

إلى جانب كتبه في الرجال، والعقائد، وغيرها من المؤلفات الموسوعية التي كانت الحوزة العلمية بحاجة إليها لغرض التطور الفكري في تراث أئمة أهل البيت عليهم السلام، والحقيقة «أن الفارق الكيفي بين اتجاهات العلم التي انطلقت من هذا التطور الجديد، واتجاهاته قبل ذلك يسمح لنا باعتبار الشيخ الطوسي حداً فاصلاً بين عصرين من عصور العلم، بين العصر العلمي التمهيدي، والعصر العلمي الكامل.

فقد وضع هذا الشيخ الرائد حدّاً للعصر التمهيدي، وبدأ به عصر العلم الذي أصبح فيه الفقه والأصول علماً له دقته، وصناعته، وذهنيته العلمية الخاصة»[1].

(1) الصدر- المصدر السابق: 65.

وبعد هذا فقد استمر شيخنا الرائد في جهاده العلمي، والعمل الدائب في تنظيم الوضع الدراسي، حتى خطا على عهده الشريف خطوات سريعة بحيث أصبحت الحوزة العلمية الفتية في النجف تربو على عدد من رواد الفضيلة والعلم قوامها الفتية التي التفت حوله من أولاده، والراغبين في الالتحاق بالدراسات الفقهية من مجاوري القبر الشريف، وأبناء البلاد القريبة منه، كالحلة ونحوها، ونمت الحوزة على عهده بالتدريج، وبرز فيها العنصر المشهدي -نسبة إلى المشهد العلوي-[1].

أ - بعد الشيخ الطوسي:

وحين لبى الشيخ الطوسي نداء ربّه، منيت الجامعة العلمية بخسارة كبرى، ولكن مسيرة الجامعة استمرت ولم يبد عليها التلكؤ، فقد قام الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي المعروف بـ «أبي علي الطوسي» بدور كبير في ديمومتها، وزعامة حوزتها، بحيث لم يطرأ أي تغيير عليها بعد وفاة رائدها ومؤسسها الشيخ الطوسي.

وكان الشيخ أبو علي الطوسي، أحد تلامذة والده في الحوزة العلمية النجفية، ولما توفّي الشيخ، وتصدى تلاميذه لتحمل أعباء مهمة استمرارية الجامعة، كان ولده الشيخ أبو علي أكثر من غيره من تلاميذ الشيخ الطوسي استعداداً، وقابلية لتحمل أعباء المسؤولية الجامعية، وتسيير الحركة العلمية فيها.

وقد وصفته بعض المصادر بعبارات الإجلال والتكريم، مما تدل على مكانته الكبيرة في الجامعة النجفية، يقول ابن حجر[2] بهذا الشأن: «ثم صار فقيه الشيعة، وإمامهم بمشهد علي رضي الله عنه، وهو في نفسه

(1) الصدر- المصدر المتقدم: 63 - 64.
(2) أحمد بن علي العسقلاني، المعروف بابن حجر، توفى سنة852هـ، ترجمة: الزر كلي - الأعلام: 1/ 178.

صدوق مات في حدود الخمسمائة، وكان متدينا....»[1].

وتحدّثت عنه المصادر الحديثة فقالت:

«وقد خلف أباه على العلم والعمل، وتقدّم على العلماء في النجف، وكانت الرحلة إليه، والمعول عليه في التدريس والفتيا، وإلقاء الحديث وغير ذلك، وكان من مشاهير رجال العلم، وكبار رواة الحديث، وثقاتهم، وقد بلغ من علو الشأن، وسمو المكانة أن لقب بـ «المفيد الثاني»، وقد تخرج عليه عدد من حملة العلم والحديث، وتصدر المرجعية وكثرت الرواية عنه، وبقى رافعاً مشعل العلم في جامعة أبيه العلمية إلى ما بعد عام 515هـ[2].

وما أن انتقل الشيخ أبو علي إلى رحمة ربّه، حتى تقدم ولده أبو نصر محمد بن أبي علي الحسن بن أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي إلى تزعم الجامعة النجفية، وكان أهلاً لهذه الزعامة للجامعة العلمية.

فقد عرفته المصادر بأنه: «من أعاظم العلماء، وأكابر الفقهاء وأفاضل الحجج، واثبت الرواة وثقاتهم، فقد قام مقام والده في النجف، وانتقلت إليه الرياسة والمرجعية، وتقاطر عليه طلاب العلم من شتى النواحي»[3].

وفي عام540هـ توفّي حفيد الشيخ الطوسي محمد بن الحسن، الذي وصفه ابن العماد الحنبلي[4] بقوله:

«وفيها توفى أبو الحسن محمد بن الحسن... شيخ الشيعة وعالمهم، وابن شيخهم، رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب إلى العراق،

(1) ابن حجر- لسان الميزان: 2/ 250.
(2) أغابزرك - مقدمة تفسير التبيان: 1/ 48.
(3) أغابزرك - المصدر السابق: 1/ 55.
(4) عبد الحي بن أحمد المعروف بابن العماد الحنبلي، المتوفى سنة 1089هـ ترجمة: الزر كلي - الأعلام: 3/ 290.

وحملوا إليه، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد، ولو جازت على غير الأنبياء صلاة صليت عليه»[1].

ب - بعد آل الطوسي:

ولم تقف حركة الجامعة العلمية بعد آل الطوسي، أنما قامت أسرة آل الخازن[2] في دعم الجامعة النجفية، ومن أشهرهم علي بن حمزة بن محمد بن أحمد بن شهريار وقد وصفته المصادر بأنه: «أشهر خزنة الحرم العلوي، ضم إلى سدانة الحرم السبق في العلوم الدينية، وكانت الرحلة إليه سنة 572هـ، حين كثر أهل العلم ورواد الحديث، وكان المعول عليه في إدارة رحى العلم بعد شيخ الطائفة، الشيخ الطوسي - قدس سره- وهو العاقد لحلقات الحديث، والمتكفل بإلقائه، وكان عالماً فاضلاً، وكان من رجال القرن السادس»[3].

واستمرت الجامعة النجفية في حركتها العلمية من بعد الشيخ الطوسي حتى أطل عهد محمد بن أحمد بن إدريس الحلي المتوفى سنة 598هـ[4] سبط الشيخ الطوسي كما سنذكر بعض المصادر وشيخ الفقهاء في الحلة، وقد توج الحركة العلمية في الحلة، ونشطت إلى حد كبير، وكان عهده إيذاناً بانتقال الحركة العلمية إلى الحلة، وقد تكاملت عناصر هذا الانتقال في أوائل القرن السابع الهجري.

والشيء الذي يجب أن يشار إليه- ولو بإيجاز- هو: أن آراء الشيخ الطوسي الفقهية بقيت هي الأساس في الجامعة العلمية، وأخذت أفكار من

---

(1) ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب: 4/ 126- 127 طبع مصر.

(2) راجع عن هذه الأسرة، وقد تسمى «آل شهريار» محبوبة- ماضي النجف وحاضرها: 1/ 259 و2/ 402.

(3) محبوبة - المصدر السابق: 2/ 405.

(4) راجع: بحر العلوم- الدراسات وتاريخها في النجف. ضمن موسوعة العتبات المقدسة: 7/ 47.

تلاه من أعلام هذا المعهد تنسج حولها، ولا تتعداها مناقشة، أو خروجاً عليها وهو في حسابات الفكر الشيعي، الذي يقوم على الاجتهاد وبلورة الرأي يعد جموداً في الوقوف على رأي واحد طيلة هذا الزمن، ولذا نرى الشيخ ابن إدريس عندما بلغ من العلم مرتبة سامية، خرج على آراء الشيخ الطوسي -مع كونه جده لأمه-، «وهو أول من فتح باب الطعن على الشيخ الطوسي، وإلا فكل من كان في عصر الشيخ أو من بعده، أنما كان يحذو حذوه غالباً إلى أن انتهت النوبة إليه»[1].

وهذه الفقرة تلقي لنا ضوءاً على ما قام به ابن إدريس بالنسبة لآراء جدّه الشيخ الطوسي وأفكاره العلمية، والتي كادت تسيطر على الجامعة العلمية في النجف طيلة مئة عام أو أكثر، وتعيقها عن التجديد، والتفاعل الفكري، وإنهاء عامل التقليد، والوراثة العلمية التقليدية. ولعل سديد الدين الحمصي[2] -وهو من أعلام الإمامية في القرن السادس الهجري- لم يبالغ في وصف الفترة العلمية التي تلت الشيخ الطوسي بقوله: «ولم يبق للإمامية وقت على التحقيق، بل كلهم حاك»[3].

والحقيقة إننا على رغم ما نجده في بعض المصادر بأن الفترة التي تلت وفاة الشيخ الطوسي كانت من أنشط العهود بالنسبة للحركة العلمية في الجامعة النجفية وإن الوضع الدراسي قد بلغ أوجه، وشيد عنفوانه في عصر أبي علي الطوسي، وولده أبي نصر، وآل الخازن، ولكن في الوقت نفسه لم تتمكن المصادر من إعطائنا صورة واضحة عن ملامح هذه الفترة فيما يتعلق بازدهار الحركة الفكرية في الجامعة النجفية، وكونها تكاد تكون مظلمة، والركود العلمي فيها أقرب إلى الواقع من غيره.

---

(1) الخونساري- روضات الجنات: 598/ طبع إيران.

(2) سديد الدين محمود بن علي بن الحسن الحمصي الرازي من أكابر علماء الأمامية في القرن السادس الهجري. ترجمة: القمي - الكنى والألقاب: 2/ 175.

(3) الصدر- المصدر السابق: 66-67.

انتقالها إلى الحلة:

بالإضافة إلى أن المصادر تحجم عن ذكر وضعية الحركة العلمية في النجف بعد ابن شهريار الخازن، وفي نفس الوقت نرى نجم ابن إدريس قد لمع في الحلة، وبرز بعنف على مسرح النقد لآراء الشيخ الرائد، وكان هذا البروز الدفعي الجريء قد حول الأنظار إلى الحركة العلمية التي تدور رحاها في الحلة، حتى تكاملت عناصر الانتقال في عهد نجم الدين جعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلي[1]، وذلك في أوائل القرن السابع الهجري، وأصبح مجلس المحقق الحلي -كما تحدده بعض المصادر- يضم قرابة أربعمائة مجتهد[2].

واستمر التأجج العلمي ينير آفاق مدينة ابن إدريس طوال قرون ثلاثة ودام حتى أواخر القرن العاشر الهجري، حين عادت المركزية العلمية إلى النجف، وبقيت في الحلة حركة علمية بسيطة مفتقرة إلى شيء من الدفع والتوسع.

ولكن مع هذا الانتقال فالنجف بقيت تحتفظ بالطابع العلمي وبنيت فيها ثلاث مدارس يسكنها طلاب العلوم الدينية، وأنتجت بعض المؤلفات في مقدمتها كتاب «شرح الكافية» في النحو لمؤلفه محمد بن الحسن الرضي، المتوفى عام 686هـ[3]، كما لمعت أسماء بعض الأعلام الذين كانوا في الجامعة النجفية، رغم أن الحلة جذبت الأنظار إليها في صدد الحوزة.

---

(1) ترجمة رجال ابن داود: 83 والقمي- الكنى والألقاب: 3/ 133- 135.
(2) بحر العلوم- مقدمة رجال الطوسي: 19.
(3) ترجمة السيوطي - بغية الوعاة: 1/ 567 والخونساري- روضات الجنات: 286.

الدور الثاني: للجامعة النجفية

أشرنا فيما تقدّم إلى أن الحركة العلمية انتقلت من النجف الأشرف إلى الحلة وتكامل انتقالها في القرن السابع الهجري، وقد حفلت مدينة الحلة بجمهرة من الأعلام كان لهم شأن كبير في بروز الجامعة العلمية وتثبيتها هناك طيلة ثلاثة قرون، ولكن النجف الأشرف- رغم هجرة الحوزة العلمية عنها- بقيت تحتفظ بطابعها العلمي إلى حد ما، ولم يأفل نجم معهدها تماماً حتى النصف الأخير من القرن العاشر الهجري حيث استعادت النجف مركزها العلمي، وكما تحدده بعض المصادر، فإن بداية ذلك كان في عهد المقدس أحمد بن محمد الأردبيلي، المتوفى عام 993هـ[1]. فقد شد طلاب العلم الرحال إلى النجف، وعادت من أعظم مراكز العلم[2]، بعد ضمور دام قرابة ثلاثة قرون.

ووردت بشأن عودة الحياة للجامعة العلمية في النجف بشكلها الواضح دواعي متعددة من أبرزها:

أولاً: العامل سياسي.

وليس من الغريب أن يكون الدافع السياسي عاملاً لتنشيط حركة علمية فللسياسة أثر إيجابي في مثل هذه الأدوار، والقول الذي يرى أن عودة الحركة العلمية إلى النجف نتيجة عامل سياسي، سنده الصراع العنيف- في حينه- على مراكز القوة، والدائر بين العثمانيين والصفويين[3]، والذي تأثر به العراق فترة من الزمن، فقد اندفع الصفويون لإحياء الحركة العلمية في الجامعة النجفية، وجعلها قوة دفاعية للشيعة، ومركزاً مهماً يقابل بغداد.

---

(1) راجع ترجمته: الأمين- أعيان الشيعة: 3/ 80.

(2) السيد حسن الصدر - مراكز العلم للشيعة في أخر تكملة أمل الأمل، والسيد محمد صادق بحر العلوم- مجموعة السلاسل الذهبية (مخطوط).

(3) راجع: العزاوي- تاريخ العراق بين احتلالين: 3 / 323 عن الدولة الصفوية.

في حين تحتفظ بغداد بحركة علمية سنية تسددها السلطة العثمانية، وهي ذات عروق وأصالة قد يمتد عهدها إلى السلطة العباسية التي تناوئ الشيعة، تماماً كما كان الأمر في عهد البويهيين.

ولا ينكر أن العهد الصفوي في العراق كان مؤثراً في دعم الجامعة النجفية كمصدر مهم للإشعاع العلمي المعبر عن فكر وفقه مدرسة أهل البيت عليهم السلام[1]

ثانياً: الإصلاح الاجتماعي والأمني:

وإن الذين يرون عودة الحركة العلمية للجامعة النجفية كان نتيجة ما طرأ على مدينة النجف الأشرف من الإصلاح الاجتماعي والأمني، فقد عزي ذلك الانكفاء عن النجف، إلى:

1 - قلة المياه في النجف، وهذا ما عولج في عهد الشاه إسماعيل الأول- أول ملوك الصفوية[2]، حيث حاول حفر آبار في النجف تستمد ماءها من الفرات في الكوفة، واستمرت المحاولات من بعده من قبل الصفويين لحين عهد طهماسب الأول المتوفى عام 984هـ[3]، هذه المحاولة ساعدت على إسكان الناس في هذه المدينة التي كانت تعاني من قلة المياه[4].

2 - هجوم الأعراب المتكرر على النجف، حيث عانى النجفيون، والساكنون من المهاجرين إليها الأمّرين من ذلك.

---

(1) راجع: بحر العلوم- الدراسة العلمية وتاريخها في النجف- موسوعة العتبات المقدسة: 7 / 59.

(2) أحمد مجيد عيسى - الدراسة في النجف- مجلة البيان: س2ص732.

(3) أحد ملوك الصفويين توفى عام 984هـ راجع ترجمته في: البراقي- تاريخ الكوفة: 197-200 ومحبوبة - ماضي النجف: 1/ 192.

(4) راجع محبوبة - المصدر السابق: 1/ 192.

3 - غلاء الأسعار نتيجة عوامل الاستغلال، والمنتفعين[1].

غير أن هذين العاملين الأخيرين عالجتهما الحكومة المحلية بالإجراءات الصارمة التي فرضت لوضع حد لهذين الأمرين، فلقد بني «سور» يحمي النجف من الهجوم التخريبي من قبل الغزاة، واتُخذت احتياطات لازمة تمنع المتلاعبين في الأسعار، وتدفع المخاطر.

وقد يكون علاج هذه الأمور الثلاثة: توفير المياه، والأمن، ومشكلة الغلاء سبباً لعودة الحياة العلمية في الجامعة النجفية، بعد أن رحلت عنها ثلاثة قرون، ولكن لا أحسبها أسباباً رئيسة في أسباب الانتقال[2].

والذي أخاله أن الدافع الرئيسي لبعث الحياة الفكرية أو تنشيطها في الجامعة النجفية، يعود إلى عاملين رئيسين:

أحدهما: الضمور العلمي في الحلة والذي بدأ بعد عهد الشيخ أبو عبد الله المقداد السيوري المتوفى عام 826هـ[3]، وأدى هذا الضمور إلى توزيع التوجه العلمي إلى جبل عامل[4] بعد انتقال محمد بن مكي العاملي، المعروف بالشهيد الأول من الحلة إليها في بداية النصف الثاني من القرن الثامن[5].

ثانيهما: بروز الجامعة العلمية في النجف الأشرف في القرن التاسع، وتكاملها في عهد المقدس الأردبيلي، الذي أعاد إلى الجامعة النجفية الثقة العلمية، فتوافد طلاب العلم إليها من كل حدب وصوب في حدود الوطن الإسلامي الكبير.

---

(1) أحمد مجيد عيسى - المصدر السابق: س2 ص632.
(2) لزيادة الاطلاع يراجع: بحر العلوم - المصدر السابق: 7/ 56.
(3) راجع ترجمة: القمي - الكنى والألقاب: 2/ 7.
(4) يطلق جبل عامل على جنوب لبنان حالياً راجع: الفقيه - جبل عامل في التاريخ: 15طبع دار الأضواء - بيروت 1986.
(5) ترجمة: القمي - المصدر السابق: 2/ 346.

إن هذه الفترة التي حفلت الجامعة العلمية في النجف- في دورها الثاني- بمظاهر علمية يمكن حصرها بالآتي:

1 - النمو العلمي.

لقد كان للنمو العلمي في الجامعة العلمية النجفية وضوح بارز، في مجالاته المتعددة كالفقه، وأصول الفقه، والتفسير، وعلوم القرآن، والحديث، والعقائد، والمنطق، وعلم الرجال، بالإضافة إلى كثير من الكتب الأدبية، وهذه الثروة الفكرية المتنوعة كان لها أكبر الأثر في بلورة الذهنية في الجامعة النجفية في هذا الدور[1].

2 - ظهور الحركة الإخبارية.

وفي هذا الدور بدأت جذور الحركة الإخبارية، ثم تبلورت على يد أبرز زعمائها المرحوم الميرزا محمد أمين الاسترابادي المتوفى عام 1033هـ[2]، وكان أثر هذه الحركة أن صدمت علم الأصول، وعرضته لحملة قوية[3]، جمدته زماناً، وإن لم يتوقف نهائياً، وكان على الجامعة النجفية باعتبارها المركز العالي العام للشيعة أن تتلقى هذه الصدمة بكل صبر، وحذر.

فالإخبارية تقول: بمنع الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وتعمل بالأخبار الواردة عن النبي ﷺ، وعن أهل بيته عليهم السلام. وترى أن ما في كتب الأخبار الأربعة-المعروفة عند الإمامية، وهي: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه -للصدوق، والتهذيب والاستبصار للطوسي - قطعي السند، أو موثوق بصدوره، فلا حاجة إلى البحث عن سندها.

---

(1) راجع: بحر العلوم- المدرسة العلمية: 7 / 60 - 64.
(2) راجع ترجمته في: الخونساري- روضات الجنات: 33 - 39، وألف كتاباً اسماه [الفوائد المدنية] يمثل الفكر الإخباري بشكله الصريح.
(3) الصدر - المصدر المتقدم: 76.

كما ترى عدم الحاجة إلى تعلم أصول الفقه، وتسقط من أدلته دليلي الإجماع و العقل، وتقتصر على القران، والخبر، فلذلك عرفت بالإخبارية[1].

لقد أخذ الصراع بين الفريقين: الأصولي، والإخباري مظهراً فكرياً وسياسياً فترة من الزمن، انتقل إلى دور المناظرات العلمية، وتعدى إلى تقابل الطعن فيما بين الطرفين[2].

انتقالها إلى كربلاء

ورغم هذا كله فالجامعة النجفية استمرت في أداء رسالتها حتى أواخر القرن الحادي عشر للهجرة، ثم بدا عليها الضمور، وقلّ التوجه إليها، و ما كادت تمر عليها فترة حتى انتقلت المرجعية إلى كربلاء، ولكن بقيت الجامعة النجفية تجاهد في الحفاظ على هيكلها العلمي النسبي، وإن فقدت تأججها المظهري.

هناك عوامل متعددة ساعدت على هذا الانتقال، وخاصة بعد أن انتقل زعيم الحركة العلمية الأستاذ المولى محمد باقر المعروف بالوحيد البهبهاني[3] في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري إلى كربلاء، وافتتحت مدرسته عصراً جديداً في تاريخ العلم، وأكسبت الفكر العلمي في العصر الثاني الأصولي الاستعداد للانتقال إلى عصر ثالث للفقه والأصول[4].

(1) بحر العلوم- المدرسة العلمية: 7 / 67.
(2) بحر العلوم - المصدر المتقدم: 7 / 71ولزيادة الإطلاع راجع بحر العلوم-الاجتهاد: 168- 183/ طبع لبنان.
(3) ترجمة: الخونساري - المصدر السابق: 124- 125.
(4) الصدر - المصدر المتقدم: 84 - 85.

الدور الثالث: للجامعة النجفية:

عاشت المدرسة العلمية في كربلاء قرابة سبعين عاماً، وهي تكاد تفتح آفاقاً جديدة في الكيان العلمي فيها، كان لمؤسسها الأستاذ الوحيد البهبهاني صدى حافل بالإكبار والتقدير.

«وقد قدر للاتجاه الإخباري في القرن الثاني عشر أن يتخذ من كربلاء نقطة ارتكاز له، وبهذا عاصر ولادة مدرسة جديدة في الفقه والأصول نشأت في كربلاء أيضا على يد رائدها المجدد الكبير محمد باقر البهبهاني المتوفى سنة 1205هـ، وقد نصبت هذه المدرسة الجديدة نفسها لمقاومة الحركة الإخبارية، وتأييد علم الأصول، حتى تضاءل الاتجاه الإخباري. وقد قامت هذه المدرسة إلى صف ذلك بتنمية الفكر العلمي، والارتفاع بعلم الأصول إلى مستوى أعلى، حتى أن بالإمكان القول بأن ظهور هذه المدرسة وجهودها المتظافرة التي بذلها البهبهاني وتلامذة مدرسته المحققون الكبار قد كان حداً فاصلاً بين عصرين من تاريخ الفكر العلمي في الفقه والأصول... و استطاعت أن تقفز بالعلم قفزة كبيرة، وتعطيه ملامح عصر جديد.

وبهذا كانت مدرسة البهبهاني تمتاز عن المدارس العديدة التي كانت تقوم هنا وهناك بعيداً عن [المركز الرئيسي للحوزة، وهو النجف] وتتلاشى بموت رائدها»[1].

عادت النجف إلى ميدانها العلمي كمركز أول-بعد انتقال المرجعية من كربلاء-على يد تلميذه السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي المتوفى 1212هـ[2]. ولنا أن نسمي هذا العصر بعصر «النهضة العلمية» لكثرة من نبغ

---

(1) الصدر- المصدر السابق: 85-86 وبحر العلوم - الدراسة وتاريخها في النجف- المصدر المتقدم: 7 / 74- 77.
(2) ترجمة: الأمين - أعيان الشيعة.

فيه من الفحول، وكبار العلماء، ولكثرة تهافت الناس على العلم فيه، وازدياد الطلاب[1].

ولعل من أهم الخطوات التي امتاز بها هذا العصر، وعلى يد زعيم الجامعة النجفية السيد بحر العلوم تنظيمه للقضايا والمشاكل التي تقتضيها طبيعة المجتمع، كما يقتضيها سير الزعامة الدينية.

فمثلاً ركز الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفى عام 1228هـ للتقليد والفتوى، والشيخ حسين نجف المتوفى 1251هـ للإمامة والمحراب، والشيخ شريف محي الدين للقضاء والخصومات، واضطلع هو بأعباء التدريس، والزعامة، وإدارة شؤون الأمة، ولوضع موسوعة فقهية كلف السيد محمد جواد السيد محمد الحسيني النجفي المتوفى 1226هـ، وقد وضع كتابه الفقهي النادر «مفتاح الكرامة» والذي يقع في ثماني مجلدات.

وكان هذا التقسيم من زعيم الجامعة العلمية النجفية السيد بحر العلوم لإدارة شؤون الحوزة العلمية من جهة، وشؤون الأمة من جهة أخرى يدل على وعي كبير في الذهنية القيادية الدينية، والتي تبرز عصره بطابع يختلف عن العصور السابقة من حيث النضج والوعي[2].

وازدهرت الجامعة النجفية بعد السيد بحر العلوم بعهد الكمال والازدهار الفكري، ولقد أثبتت مظاهر هذا الدور بروزاً واضحاً في مجالي الفقه والأصول إلى جانب بقية العلوم الإسلامية التي دللت النجف على الاختصاص بها، بالإضافة إلى الطابع الأدبي.

فالتجربة العلمية التي عاشتها جامعة النجف في دورها الثالث في حقل الفقه كان لها الأثر الكبير في إبراز عطاء ناضج يدل على سعة في الأفق،

---

(1) الصدر - المصدر السابق: 88 وجامعة النجف- مجلة المجمع العلمي العراقي: مجلد11/ 296.

(2) لزيادة الإطلاع يراجع - بحر العلوم - الدراسة وتاريخها في النجف: 78-83.

ووفرة في الاطلاع ولذا وصف بدور [التكامل والنضج][1].

ومن أبرز هذا العطاء الفقهي الرائع، كتاب[مفتاح الكرامة] للسيد محمد جواد العاملي المتوفى 1226هـ، المطبوع في ثماني مجلدات، وكتاب[جواهر الكلام] للشيخ محمد حسن ابن الشيخ محمد باقر النجفي، المعروف بصاحب الجواهر المتوفى 1270ھ ويقع في ست مجلدات، مطبوع، وكتاب[المكاسب] للشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى 1281ھ مطبوع في مجلد واحد، وكتاب [البرهان القاطع] للسيد علي بن السيد رضا بحر العلوم المتوفى سنة 1298ھ في ثلاث مجلدات، وكتاب [بلغة الفقيه] للسيد محمد ابن السيد محمد تقي بحر العلوم المتوفى 1326ھ المطبوع في أربع مجلدات، وكتاب [العروة الوثقى] وملحقاتها للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي المتوفى 1337هـ. وقد أصبح هذا الكتاب مصدراً للبحوث والتعليقات فيما بعد، وحتى عصرنا الحاضر، وقد تربو هذه الشروح على 25شرحاً. وفي مقدمتها كتاب [مستمسك العروة الوثقى] للسيد محسن الحكيم المرجع الديني الراحل، ويقع في 14مجلد، وكذلك تقريرات بحوث المرجع الديني السيد الخوئي في شرح كتاب العروة الوثقى، والتي صدر منها حتى الآن ما يقارب عشرين مجلداً ولعدة أعلام ممن حضروا بحوث السيد الفقهية.

أما بالنسبة للأصول: فقد يكون من الواقع أن يطلق على هذا الدور[دور الكمال العلمي]فان المرحلة الجديدة التي دخلها علم الأصول كان نتيجة أفكار وبحوث رائد المدرسة الأستاذ الوحيد البهبهاني، وأقطاب مدرسته الذين واصلوا عمل الرائد حوالي نصف قرن حتى استكمل العصر الثالث خصائصه العامة، ووصل إلى القمة[2].

(1) الصدر - المصدر السابق: 88.

(2) الصدر - المصدر السابق: 88.

وما أن بلغ العهد بالمحقق الشيخ مرتضى الأنصاري[1]، حتى اعتبر رائداً لأرقى مرحلة من مراحل الدور الثالث التي يتمثل فيها الفكر العلمي منذ أكثر من مئة سنة حتى اليوم[2]، وكتابه المعروف بـ [الرسائل] مجلد واحد يؤكد هذه الحقيقة.

وعندما أطل القرن الرابع عشر الهجري لمع اسم المجدد الشيخ محمد كاظم الخراساني الذي فتح آفاقاً جديدة للعلم، قدر له أن يكشف في كتابه[الكفاية في الأصول] تطوراً رائعاً لهذا العلم.

وقد أصبح هذا الكتاب مصدراً واسعاً لعدد من المؤلفات القيمة التي تدور في أطار الشرح والتعليق من بعده.

إن التطور الذي حصل لعلم الأصول على يد الأعلام من بعد الاصولي المجلي [الآخوند] - وهو اللقب الذي اشتهر به الشيخ ملا محمد كاظم الخراساني في حينه- كالميرزا حسين النائيني والشيخ محمد حسين الأصفهاني، والشيخ أقا ضياء العراقي وغيرهم من أقطاب هذه المدرسة قدّر لهم أن يرتفعوا إلى القمة العلمية، والتي خلفت تراثاً ضخماً تستنير به الأجيال.

وإلى جانب هذين العلمين الرئيسين(الفقه والأصول)، فقد قدمت الجامعة النجفية عطاءً ثراً في مختلف العلوم سواء أكان لها مساس في علومنا الفقهية والأصولية أو العلوم الإسلامية أو لها صلة بطبيعة النجف الأدبية، وللإشارة إلى هذا الجانب فقد ألف المرحوم الأستاذ علي الخاقاني كتاباً عن شعراء الغري وهو في عشرة مجلدات.

الدور السياسي: ورغم تعرض النجف لهزات قوية وعنيفة في دورها الأخير سواءً الخارجية منها أو الداخلية، أضف إليها الظروف الخاصة فقد

---

(1) ترجمة الأمين - أعيان الشيعة: 10/ 117-119والزركلي: الاعلام7/ 201.
(2) الصدر - المصدر السابق: 89.

أظهرت قادة النجف من العلماء الأعلام بالموقف القيادي للزعامة السياسية والدينية، ومن أجل مظاهر تلكم المواقف المشهورة [ثورة العشرين] بقيادة علماء النجف ومجتهديها.

ورغم أن السلطة الحاكمة من بعد ثورة العشرين [1920م] حاولت أن تبعد العلماء عن قيادة الجماهير بحجّة قصر مسؤولية العالم الديني على الأمور الشرعية، وإبعاده عن الجوانب السياسية، ولكن العلماء الأعلام في النجف الأشرف كانت لهم أدوار واضحة في الحركات السياسية العراقية كانقلاب بكر صدقي عام 1936، وحركة رشيد عالي الكيلاني عام1941، والقضية الفلسطينية عام 1947، وهكذا حتى دور المرجع الديني الراحل السيد محسن الحكيم الذي واكب العهد الملكي، ثم العهد الجمهوري حيث كانت الظروف السياسية تغلي في أوجها بالمنطقة عامة، والعراق خاصة واضطلع بالمسؤولية، وقابل الخضم السياسي بالعمل الجاد لصالح الأمة والوطن.

وحين ازدادت الظروف العصيبة التي اجتاحت النجف تعقيداً، وأثرت على الجامعة العلمية فيها كان لتحمل المرجع الديني الأعلى الإمام السيد أبو القاسم الخوئي مسؤوليته الدينية في إبقاء المظهر العام للحوزة العلمية ماثلاً وعصيّاً على الاندثار والضمور، ونتيجة لهذه الهزة العنيفة التي اجتاحت الجامعة العلمية في آخر هذا الدور انتقل الثقل الحوزوي إلى قم المقدسة، لكن المرجعية العليا بقيت في النجف.

الخاتمة:

هذا الصرح الشامخ لجامعة النجف العلمية، والذي امتد عبر العصور والأجيال، يحمل لواء العلم والمعرفة كان له أن يدوم، ولا ينهار.

هذا الزخم الحاشد من طلاب العلم والمعرفة، والذي يموج به المعهد العلمي، وهو يملأ الدنيا ضجيجاً علمياً كل يوم من الأسبوع عدا

الخميس والجمعة يجب أن يبقى صداه نغماً في أسماع الدنيا، ولن يهدأ أو يجف.

هذا العطاء الثر من العلم والمعرفة، والذي زخرت به مدينة الإمام علي عليه السلام منذ تأسيس مدرسته قدر له أن يكور فكراً وهاجاً على مرّ الزمان، لن يعلوه غبار النسيان.

ودارت الأيام، وجاء النظام الصدامي للحكم في العراق، والحنق الطائفي ينخر في قلبه: [لا شيعة بعد اليوم] هكذا قالها جلاوزته وبكل صلافة ووقاحة وتعرض المعهد العلمي ذو العمر الطويل للمخاطر، والعراق في ظل هذا النظام.

من اليوم الذي وصل إلى الحكم بدأ في تنفيذ المخطط الرهيب: تهجير قسري لرواد هذه الجامعة أساتذةً وطلاباً بحجة أنهم من أصول غير عربية.

ثم عمد لمضايقة زملائهم الأصول العربية، والعراقية منهم خصوصا فحاصرهم وضيق عليهم وتابعهم بالاعتقالات والسجن، وسامهم أنواع التعذيب والإيذاء، ومارس معهم دون رحمة ورأفة القتل المريع، والقمع الفظيع.

وكان من جراء هذا وذاك أن المدارس الخاصة التي أعدت لسكن طلاب العلوم في هذه المدينة والتي تجاوزت الخمسين قديماً وحديثاً، وكانت تزدحم بجموعهم بالأمس أصبحت خالية اليوم من كل احد.

ليس هذا فحسب، فهناك أهم: فما هو؟؟؟

إن هذا النظام الطائفي المقيت من يوم وصوله للحكم بدأ بتنفيذ ما خطط له من ضرب المرجعية الدينية، وشل حركتها، فبالأمس، ومنذ يوم وصوله نفذ مخططه الانتقامي مع المرجع الديني الراحل الإمام السيد محسن الحكيم، ولعلكم جميعاً تتذكرون أسلوبه القذر، وسوء معاملته معه، حتى أراحه الموت.

وحين تطلعت الدنيا الفكرية مزهوة بالمفكر الإسلامي الكبير آية الله السيد محمد باقر الصدر، وأحسّ بخطره، عمد إلى تصفيته، وإنهائه بأقسى ما يتصور.

ولما شعر النظام بأن وجود سماحة المرجع الديني الأعلى الإمام السيد أبو القاسم الخوئي يمثّل حجر عثرة في طريقه لإلغاء وجود الجامعة النجفية عمد إلى الاعتداء الوحشي عليه، وهو الرجل المسنّ ليشعره بالمهانة، ويفرض عليه الإقامة الجبرية في بيته، ويمنع عنه كلَ ما يستطيع منعه، ليحجبه عن مجتمعه الذي خلق من أجله.

ليس هذا فحسب فهناك أعظم: فما هو؟؟؟

إن النظام يؤكد بأقواله وأفعاله بأنه [لا شيعة بعد اليوم] فإذا كانت مراقد الأئمة الأطهار في النجف وكربلاء: علي، وولديه: الحسين والعباس عليهم السلام عنواناً يجمع الشيعة حولها، قام بالاعتداء الوحشي عليها، بقصفها وتهديمها ليتفرق الناس عنها، وليكن ما يكون، إنه ينفذ مخططاً رهيباً من القوى التي تأخذ على هذه الأمة من الناس بأنها لن تخضع لحكم الاستعمار، ولم تتفاعل مع قبول الأمر الاستعماري الواقع، وفي هذه الحالة ليس لهم إلا صدام، يسجن رجالهم، ويقتل شبابهم، ويستحيي نساءهم، ويمُيت أطفالهم، حتى يتسنى له تنفيذ مخططه المقيت.

ولم يُبق شيئاً إلا ونفذه [لا شيعة بعد اليوم] أخيراً كتب وفي سطوره ختام الأيام البائسة لطائفيته الحمقاء، في جريدته[الثورة] لم يترك شتيمة على هذه الأمة إلا وقالها، ولم يتوقف عن رميهم بكل العبارات الجارحة والحاقدة إلا وسطرها، يقول المثل: [إذا كنت لا تستحي فاعمل ما تشاء].

لقد شنها صدام حرب إبادة وتدمير على الشيعة، فهل نقابل ذلك بالسكوت إنه الذل والهوان، ولابد أن نكافح الخطر مهما طال وتجاوز، فلا بد لليل من آخر، ومن الله سبحانه التوفيق.

العمق الحضاري للنجف الأشرف[1]

(1) العمق الحضاري للنجف الأشرف قبل الإسلام

حين نتحدث عن العمق الحضاري للنجف الأشرف فتارة يكون حديثنا عما قبل الإسلام، وأخرى بعد شروق شمس الإسلام، ولكل منهما حديث طويل.

في تصوري أن للنجف قبل الإسلام عمقاً حضارياً، فانه يبحث ضمن ما يطلق عليه بـ (المنطقة الكبرى للنجف)، وقد يطلق عليه(المثلث الجغرافي: النجف و الحيرة، والكوفة)، يمكن أن يختزل الأول - جانب ما قبل الإسلام- إلى نقاط محدودة.

وهذه النقاط بإيجاز كبير، هي:

1 - إن النجف كانت جبلاً في بداية تكوينها، والجبل الذي قصده ابن نبي الله نوح حين الطوفان، قال: "سآوي إلى جبل يعصمني من الماء"[2]، وصار بعد الطوفان بحراً عظيماً - كما تقول الرواية-[3].

2 - إن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام لما ضربه ابن ملجم في ليلة التاسعة عشرة من رمضان عام 40هـ قال لولده الحسن عليه السلام: "إذا مت

(1) محاضرة القيت في النجف الاشرف: في 1/ 3/ 2009

(2) سورة سورة هود - آية: 43

(3) يرجع- حسين البراقي - اليتيمة الغروية في التحفة النجفية: 210-211طبع قم منشورات المطبعة الحيدرية 1426 - يذكر أسماء الأعلام من المتقدمين والمتأخرين الذين ذهبوا إلى هذا الرأي.

فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح".[1] وحدد الظهر إنه يمتد من الحيرة إلى بأرق الواقعة في البادية بين النجف وكربلاء، أو أنها الحد بين القادسية والبصرة[2].

3 - ما نقله ياقوت الحموي في مادة "بانقيا" في أخبار سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام إنه اشترى أرض النجف من ساكنيها بثمن، ولكن غدروا به فتركهم ومضى نحو مكة[3].

---

(1) عبدالكريم بن طاووس-فرحة الغري: 38-39أوفست/منشورات الرضي طبعة النجف.
(2) د. حسن الحكيم -المفصل في تاريخ النجف: 1/ 21هـ 3و4و5
(3) قال الحموي ياقوت: في مادة بانقيا ما نصه:
"لقد خرج (إبراهيم) من بابل على حمار- ومعه بن أخيه لوط- يسوق غنماً، ويحمل دلواً على عاتقه حتى نزل "بانيقا"- وكان طولها اثنى عشر فرسخاً، وكانوا يزلزلون في كل ليلة. فلما بات إبراهيم عندهم (تلك الليلة) لم يزلزلوا (فاستغربوا)، فقال لهم شيخ - بات عنده إبراهيم عليه السلام -والله ما دفع عنكم (ذلك) إلا (بفضل) شيخ بات عندي، فاني رأيته كثير الصلاة. فجاءوه وعرضوا عليه المقام عندهم، وبذلوا له البذول، فقال: إنما خرجت مهاجراً إلى ربي، وخرج حتى أتى النجف، فلما رآها رجع أدراجه - أي من حيث مضى - فتباشروا وظنوا انه راغب فيما يذلوا له، فقال لهم: لمن تلك الأرض (أي النجف) ؟ قالوا: هي لنا. قال: فتبيعونها؟ قالوا: هي لك فوالله ما تنبت شيئاً. فقال: لا أحبها إلا شراء. فدفع إليهم غنيمات كن معه بها. فقال: أكره أن أخذها بغير ثمن. فصنعوا ما صنع أهل بيت المقدس بصاحبهم، وهبوا له أرضهم. فلما نـزلـت بـها البركـة رجعـوا عليـه. ولما رأى عليه السلام غـدرهم بـه تركهم ومضى نحو مكة".
والظاهر أن بانقيا تقع على بحر النجف، وليست هي النجف. ونقل البكري: إن أرض بانقيا في عصر ما قبل الإسلام أصبحت مقدسة عند الناس، فأخذوا يدفنون موتاهم فيها.
راجع: د. حسن الحكيم -المفصل في تاريخ النجف: 1/ 21هـ.
روى أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي عن وجود البحر في النجف، عندما يتحدث عن الفرات- وإليه تصل البضائع من الصين والهند وغيرهما-، يقول:
"وقد كان الفرات الأكثر من مائه ينتهي إلى بلاد الحيرة، ونهرها بين إلى هذا الوقت. وهو يعرف بالعتيق وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم وهي واقعة القادسية، فيصب في البحر الحبشي، وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة.
وقد ذكر (حوار) عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام ـأبي بكر بن أبي قحافة (رض) حين قال له ما تذكر؟ قال: أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون، فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر براً، فصار =

4 - وتشير بعض المصادر: أن بحر فارس كان يتصل بالنجف، وتنقل له البضائع من الصين والهند وغيرهما. وأكد ذلك أكثر من مؤرخ.

قال اليعقوبي: "والحيرة على النجف، والنجف كان على بحر الملح، وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة، وهي منازل آل بقيلة وغيرهم"[1].

5 - دولة المناذرة في الحيرة - أسسها بنو نصر من لخم، وهم آل النعمان بن المنذر[2]، بعد هجرتهم من اليمن وشيدوا دولة عربية في العراق كانت عاصمتها الحيرة قبل الميلاد، وخضعوا لنفوذ الفرس الذين كانت عاصمتهم المدائن على نهر دجلة، وانتهى حكمهم عند الفتح الإسلامي[3].

هذه مقدمة قصيرة عن العمق الحضاري للنجف قبل الإسلام.

(2) العمق الحضاري للنجف الأشرف بعد الإسلام

حين بسط الإسلام رقعته في مناطق الجزيرة، وأرض العراق، وتفجرت الحروب بين الفرس والمسلمين في عهد الخلافة الأولى، وتقوّم وجود الدولة الإسلامية في المدينة المنورة حتى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

= بين الحيرة والبحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة، ومن رأى النجف واشرف عليه تبين له ما وصفنا".

ويؤكد- وجود البحر قرب النجف-المؤرخ ابن واضح اليعقوبي، اذ يقول:

"والكوفة مدينة العراق الكبرى ... والحيرة منها على ثلاثة أميال، والحيرة على النجف. والنجف كان على ساحل بحر الملح، وكان في قديم الدهر يبلغ الحيرة ".

ومن هذه الروايات التي أشرنا إليها ما يؤيد وجود البحر في منطقة النجف، وكان وجود هذا الساحل مصدراً تجارياً اقتصاديا لسكان المنطقة. ولاشك أن ذلك كان قبل ميلاد سيدنا المسيح عليه السلام.

(1) راجع المسعودي - مروج الذهب: 1/ 118-واحمد بن واضح اليعقوبي- البلدان: 69 مطبعة الحيدرية النجف1957

(2) اليعقوبي - المصدر السابق: 69

(3) راجع د. حسن الحكيم - المصدر المتقدم: 1/ 52 والموسوعة الحرة: ص3

ثم في خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام -ولأسباب قهرية- اضطرت الإمام علي عليه السلام إلى نقل عاصمة دولة الإسلام إلى الكوفة مدّة حياته التي انتهت في مقتله سنة 40 هجرية.

وامتدت دولة الإسلام إلى فترة قصيرة من عهد الإمام الحسن عليه السلام، وحين تفرعنت أطماع معاوية وأججها حرباً شعواء على خلافة الحسن عليه السلام للانقضاض عليها، واختطاف رئاسة الدولة الإسلامية منه، ومن أجل هذا الهدف بدأ الصراع المرير الأموي الهاشمي، وانتهى الأمر إلى عقد "هدنة" بين الإمام الحسن، وبين معاوية -كما اصطلح على ذلك الشيخ محمد بن محمد النعمان، المعروف بالشيخ المفيد، المتوفى عام 413هـ-[1] بعد أن خُذل الإمام من قبل أصحابه سنة 41هـ، وانتهى الصراع بانقلاب معاوية على شرعية الدولة الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى انتقال الإمام الحسن إلى المدينة لتكون مركز الإمامة فيها، والإمبراطورية الأموية في الشام، وعبر عنها أبو هريرة -من حفدة معاوية-: إن" الخلافة في المدينة، والملك بالشام"[2].

وتبقى منطقة ما حول الكوفة طيلة الحكم الأموي تغلي كرهاً لحكام الجور، وتتفجر عدة محاولات لإسقاط الحكم، وتنجح أخيراً محاولة لإنهاء الدولة الأموية.

في الفترة الزمنية بين سقوط دولة الأموية وبروز الدعوة المغلفة (للرضا من آل محمد)، استفاد منها الإمامان الصادقان: محمد الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، والتي امتدت إلى أكثر من نصف القرن الثاني الهجري، حيث عملا ما أمكنهما من بث روح العلم والفضيلة، ولم تقتصر على شيعتهما، بل استفادت منهما المذاهب الإسلامية، ولعل شهادة

(1) المفيد - الإرشاد: 2/ 12-14 الطبعة الثانية تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث / قم 1413

(2) محمد بحر العلوم - بين يدي الإمام الحسن بن علي: 186-187

الحسن بن علي الوشا الذي مر على مسجد الكوفة بعد فترة زمنية، وتذكر ما شاهد من الحلقات الفكرية الزاخرة في هذا المسجد التي أحياها الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، في مجالات البحث العلمي، فقال لمن حوله: "أدركت في هذا المسجد (يعني مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد"[1].

وفي خلال هذه الحقبة الثرة المفعمة بالنهضة الصادقية تفجرت أطماع العباسيين وبرزت بوضوح الدعوة للعباسيين، وانطلقت من الهاشمية -قرب مدينة الحلة-. وسيطرت على الحكم بلون وآخر، ومنها انتقلت إلى بغداد، وأصبحت حاضرة العباسيين حيث استعانت بجهود غير عربية في تأسيس حضارة شارك فيها العرب والموالي والأتراك وغيرهم، وحققت دولة العباسيين الذائعة الصيت، عهداً زخر بالقسوة والازدهار، والعلم والأدب، وإن كان على حساب الإسلام في الكثير من فعالياتها، واستمرت تفرش سلطتها في بلاد العراق وغيرها من العالم، وفي ضمنها ساعدت بجد إلى انتقال المدرسة العلمية الشيعية من بغداد بعد التناحر الطائفي المقيت في بغداد. وهجرتها إلى النجف. فكان بداية غروب شمس أتباع مدرسة أهل البيت عن هذه الدولة، بعد أن عانى الشيعة ألوان القهر والإضطهاد، والقتل والحرمان، حتى قال الشاعر:

تالله ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

(3) من مميزات النجف في مسيرتها الفكرية والثقافية:

لم يكن وجود النجف الأشرف كعاصمة للعلم والأدب والثقافة ناشئاً من فراغ يؤهلها لأن تكون مركز إشعاع حضاري معرفي إلا كونها "أحد أضلاع المثلث الجغرافي" الذي انطبع بحضارة الماضي العتيد، واحتضن

---

(1) حسن الأمين - دائرة المعارف الشيعية: 2/ 77

أرضية صالحة للعلم والمعرفة في ظل وجود الإمام علي عليه السلام في الكوفة حياً، والنجف مدفناً، وخاصة في القرن الخامس الهجري، حيث انتهى العهد الأموي، وزمناً من العهد العباسي، وانكشف مرقده المطهر، وبرز جلياً عهد مفعم بالاهتمام من محبي أئمة أهل البيت عليهم السلام، ليكون مرقد علي عليه السلام ربّ الفصاحة والثقافة مصدر إشعاع للأمة المسلمة على امتداد الزمن، فتوافد عليه أهل البيت للسكن في النجف، والبقاء فيه لطلب العلم، فقصد من كل حدب وصوب.

والرحالة ابن بطوطة المتوفى عام 779هـ يحدثنا عن زيارته للنجف، ويشاهد إزاء المرقد المطهر للإمام علي عليه السلام: المدارس، والزوايا، والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها مزينة بالقاشاني.

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم...[1].

وهذا الكرم نوع من حضارة النجف الذي اعتاد عليها العرب من قبل.

والحديث عن حضارة النجف طويل، ويضيق بنا المقام للتوسع فيه، ولكن سوف أوجز بنقاط تعبر عن مميزات هذا البلد العريق.

إن مميزات هذا البلد العريق كثيرة لا يسع التحدث عنها بهذه الدقائق المعدودة، ولكن سأشير الى ما يرتبط بحديثنا خصوصاً، وهي بإيجاز:

أولاً: تأسيس الشيخ محمد بن الحسن الطوسي مدرسة علمية في منتصف القرن الخامس الهجري فيها، نقل إليها طلابه من بغداد، وأصبح

---

(1) محمد بن عبد الله، المعروف بابن بطوطة - رحلته المسماة (تحفة النظار، وغرائب الأمصار، وعجائب الأسفار: 1/ 198تحقيق د. على المنتصر الكتاني /طبع مؤسسة الرسالة- بيروت

يؤمها الوافدون من كل العراق وغيره للاستفادة والإفادة سواء لزيارة المرقد المطهر، أو الاستفادة أو الإفادة من جامعتها العلمية التي تبحث في علوم متنوعة، ومعرفة واسعة شملت: التفسير، والحديث، والفقه، وأصوله، والفلسفة، وعلم الكلام، والأخلاق، والأدب، والتاريخ. واستمرت من بعده إلى هذا اليوم مركزاً ضخماً علمياً أنتج تخريج عشرات المراجع العظام، والمجتهدين وأصحاب الفتيا، وقيادات شرعية بقى منهم من بقي وغادر الأكثر عائدين لأوطانهم يبلغون الأمة المؤمنة بواجبهم الديني نحو توطيد قواعد الرسالة المحمدية، وصمودها في وجه التيارات المنحرفة التي تفد على البلاد بين فترة وأخرى في محاولة لتذويب رؤى الأمة المسلمة لهذه الجامعة العريقة، الغنية بالخصب الفكري العلمي والأدبي[1].

ثانياً: كما قام السيد محمد مهدي بحر العلوم خلال مرجعيته الدينية في القرن الثالث عشر الهجري، وبعد أن وصلت إليه بعد وفاة أستاذه الوحيد البهبهاني عام 1205هـ وعاد إلى النجف وتولى مركز المرجعية الدينية، بتقسيم مسؤولية المرجعية في النجف على وجه لم يحصرها بشخصه، ولذلك ارجع التقليد والفتيا إلى الشيخ جعفر كاشف الغطاء، وأسند صلاة الجماعة إلى الشيخ حسين طه نجف، وعين للقضاء الشيخ شريف محي الدين، وطلب من تلميذه السيد محمد جواد العاملي الحسيني كتابة موسوعة فقهية استدلالية يستفيد منها طلاب العلم، وتفرغ هو للإدارة العامة للمرجعية. هذه الصيغة الجمعية لعلماء العصر كان لها الأثر الكبير في إدارة شؤون الحوزة العلمية في النجف بما يساعدها على النمو، وتبعدها عن الفردية- وهو رأي لعل فيه صلاح الظروف المعاشة حينذاك. وبعد وفاته عام 1212هـ عادت المرجعية إلى الفردية.

(1) راجع في هذا المجال محمد بحر العلوم - الدراسة وتاريخها في النجف (بحث) منشور في موسوعة العتبات المقدسة- إعداد المرحوم جعفر الخليلي/ قسم النجف: 2/ 7-112طبع بيروت.

ثالثاً: إن الكثير من العلماء الذين تسنموا مراكز مهمة في الحوزات العلمية في داخل العراق وخارجه حين نرجع إلى تراجم حياتهم نجدهم انتهلوا من نمير هذه الجامعة النجفية قسطا من حياتهم الدراسية، أوجلها، ثم عادوا إلى مدنهم كمبلغين، ومجتهدين، ومرشدين، وفي مصادر التراجم ذكر لعدد كبير من هؤلاء الأعلام[1].

(4) التطور الفقهي والأصولي، و التفسير والحديث

طبعت كتب عديدة من العلوم التي اشرنا إليه، والتي تشير الى التطور الإبداعي، وسنقتصر على ما أنجزته النجف في القرنين الثالث والرابع عشر الهجري.

أولاً: الموسوعات:

1 - على مستوى الفقهي

أنجزت جامعة النجف العلمية موسوعات مهمة نشير إلى بعض منها، كمثل لاهتمام أساتذة الحوزة على إنجاز المستوى الاستدلالي المطلوب في مجال البحث العلمي، وهي:

"مفتاح الكرامة" للسيد محمد جواد الحسيني العاملي المتوفى سنة 1226هـ، والكتاب مطبوع ويقع في عدة مجلدات.

و"جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام" للشيخ محمد حسن ابن الشيخ باقر النجفي المتوفى سنة 1266هـ ويقع الكتاب في عدة مجلدات وهو مطبوع عدة طبعات.

(1) يمكن مراجعة السيد محسن العاملي - أعيان الشيعة في مجلداته العشرة المطبوع في لبنان سنجد الكثير من أسماء هولاء الإعلام.

و"مستمسك العروة الوثقى" للسيد محسن الحكيم المتوفى 1390هـ ويقع الكتاب في أربعة عشر مجلداً طبع عدة طبعات.

و"دورة فقهية كاملة" قررها السيد الخوئي على طلابه في سنوات دروسه، فدونوها، وطبعت في عدة مجلدات..

وهناك عدد كبير من كتب الفقه الاستدلالي، والفتوى، تدل بحق على تطور في الإنتاج الإبداعي، والذي يحتاجه طلاب العلم في العصور المتأخرة.

2 - على مستوى الأصولي

إن ما حصل من تطور في علم الأصول على يد أعلام المدرسة الأصولية الحديثة، وفي مقدمتهم الشيخ مرتضى بن محمد أمين الأنصاري النجفي، المتوفى 1281هـ يدل على عمق فكري إذ كان كتابه "فرائد الأصول المعروف بالرسائل" اللبنة الأولى للتطور الأصولي في الحوزة النجفية.

ثم الشيخ محمد كاظم الخراساني النجفي المعروف بالأخوند، من مشاهير مدرسة الأصول المتوفى عام 1329هـ وكان من أقطاب أساتذة مدرستها التي نمت في ظل جامعة مدينة العلم النجف الإبداعية، وازدهرت فيها، وكتابه " كفاية الأصول " في علم الأصول يعتبر من أمهات كتب الدراسة في الأصول، ولازال معتمداً في الحوزة العلمية النجفية.

الشيخ محمد حسين ابن الشيخ عبد الرحيم النائيني النجفي من مشاهير أساتذة مدرسة الأصول الحديثة، وكان من فطاحل أعلام الأصوليين في مدرسة الآخوند الأصولية النجفية، توفي عام 1355هـ وصاحب كتاب "تنبيه الأمة وتنزيه الملة في لزوم مشروطية ودستورية الدولة" والذي كتبه حين تفجر السجال في إيران حول المشروطة والمستبدة، فانتصر للمشروطة، وتعإلى صدى الكتاب يقلق المستبدين لهذا اليوم..

الشيخ أغا ضياء الدين علي بن الشيخ محمد النجفي المعروف بـ"العراقي" المتوفى 1361هـ، وهو من فحول مدرسة الشيخ الآخوند، كتابه "بدائع الأفكار في الأصول".

والشيخ محمد حسين بن الحاج معين التجار الأصفهاني النجفي، المعروف الكمباني من مبرزي مدرسة الآخوند، وقد جمع إلى الأصول الفلسفة، وكان من المختصين بها، من مؤلفاته نهاية الدراية في شرح الكفاية، وكتاب "تحفة الحكيم في الفلسفة" توفي عام 1361هـ.

ولقد كان للمتأخرين عن هذه الطبقة: أمثال السيد محسن الحكيم والسيد الخوئي، والشيخ حسين الحلي، والسيد محمد الروحاني، و أمثال: الشهيد السيد محمد باقر الصدر، والسيد السيستاني، والسيد محمد سعيد الحكيم، والشيخ إسحاق الفياض فقد أنتجوا تطوراً في هذا المضمار الفكري.

3 - على مستوى التفسير والحديث

والظاهر أن علماءنا في العصور المتأخرة ضمن جامعة النجف اهتموا بالفقه والأصول والحديث، والقليل منهم توجه للتفسير، فمن الذين توجه لكتابة التفسير، هو:

و"آلاء الرحمن في تفسير القران" للشيخ محمد جواد البلاغي المتوفى 1352ه مطبوع في ثلاثة أجزاء.

السيد عبد الأعلى السبزواري المتوفى عام 1414هـ، من مراجع التقليد، وأسم تفسيره "مواهب الرحمن في تفسير القرآن" ويعتبر هذا التفسير من التفاسير المهمة التي تبحث جوانب الفلسفة والحكمة والروائية والتأريخ والادب، ، وقد طبع أكثر أجزائه، والبقية مخطوطة لدى ولده الحجة السيد علي، أرجو من الله أن يهيئ طباعة البقية.

و"التبيان في مقدمة تفسير القرآن" للسيد الخوئي، وهو كتاب مهم عالج فيه الكثير من البحوث التي تتعلق بمقدمة التفسير، وقد طبع الكتاب عدة طبعات.

وفي علوم الحديث كتاب "معجم رجال الحديث" للسيد أبو القاسم الخوئي، المتوفى 1413هـ وهو من أهم موسوعات رجال الحديث وقد زاد على العشرين مجلداً، وطبع عدة طبعات.

ثانياً: على مستوى الموسوعات العامة: نختار منها:

1 - "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" في مجلداتها المتعددة للمرحوم الشيخ أغا بزرك الطهراني الذي هو نجفي المنشأ، والتحصيل العلمي، والذي قضى حياته الكريمة في خضم المكتبات العراقية وخارجه في البحث عن مؤلفات الشيعة.

2 - "الأعمال الكاملة لفكر الشهيد الصدر السيد محمد باقر" التي بلغت عدة مجلدات، وهي تضم الفقه والأصول والفلسفة والاقتصاد ومواضيع أخرى.

3 - "موسوعة أئمة أهل البيت عليهم السلام" للشيخ محمد باقر القرشي، بحث عن حياة الأئمة الطاهرين، وتقع في عدة مجلدات، وقد طبعت.

4 - "موسوعة أئمة أهل البيت" للأستاذ الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير، ولعله أتمها إنشاء الله.

5 - "المفصل في تاريخ النجف الأشرف" للأستاذ الدكتور السيد حسن الحكيم وقد وصلت في مجلداتها إلى خمسة وعشرون، وهي آخذة بالاستمرار، وفقه الله لإتمامها.

6 - كتاب "إعراب القران" للشيخ جعفر الكرباسي- وهو من أشهر أساتذة النحو في النجف في عصرنا المعاش، ويقع في خمس مجلدات، طبعه ديوان الوقف الشيعي - بغداد.

7 - "شعراء الغري" بمجلداته المتعددة للمرحوم علي الخاقاني، النجفي الأصل، والذي قضى جل عمره في جمع شعراء الغري، وضم فيه عدداً لا يستهان به من الشعراء النجفيين من أصل عراقي نجفي، وغير نجفي سكن النجف للدراسة والعلم والأدب، أو من عرب عراقيين سكنوا النجف وقضوا فيه مراحل حياتهم، ثم رحلوا عنها إلى أوطانهم.

إلى غيرها من الموسوعات التي أصدرها علماء وكتاب نجفيون كان لها صدى في ميدان المعرفة الحديثة.

الكتب المفردة التي أنتجتها مدرسة النجف في القرنين الماضيين:

فإن ما أنتجته المدرسة النجفية كثيرة، نختار منها كعينة فكرية تعبر عن مكانتها العلمية، أو التاريخية، أوالأدبية، منها:

- "تحرير المجلة" للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء المتوفى سنة 1373هـ يقع في مجلدين ناقش فيها كتاب الذي ألزم المحاكم العراقية بالعمل بموجبه في خصوص الأحوال الشخصية الذي صدر في بغداد على رأي فقه المذهب الحنفي، وهو كتاب فقهي قيم، كثير الفائدة في خصوص الأحوال الشخصية وقد طبع في النجف
- "الهدى إلى دين المصطفى " للشيخ محمد جواد البلاغي يعالج قضايا ردود على من يحارب الدين من العقائد المنحرفة.
- "أصول المظفر" للشيخ محمد رضا المظفر، ويتبع في مجلدين ويضم اكثر مواضيع علم اصول الفقة "الفقه المقارن" للسيد محمد تقي الحكيم، مجلد واحد ضم بحوثاً فقهية وأصولية مقارنة قررها على طلاب السنة الرابعة في كلية الفقه النجف.
- "مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة النحو" للدكتور مهدي المخزومي، وتصفه المصادر أنه من علماء النحو /(رسالة دكتوراه) توفي 1916م.

❖ "القضاء الشرعي" للسيد محمد صادق بحر العلوم المتوفى 1397 يقع الكتاب في ثلاث مجلدات يتضمن شؤون القضاء والقضاة في الإسلام طبع.

هذا غيض من فيض، و أؤكد إني أتيت على ذكر الكتب التي أوردتها في حديثي كمثال لا أكثر.

ومما يُعتز بها نهضة النجف الأدبية، وخاصة في مجال الشعر، إذ اعتبر الشعر العربي يحمل طابعاً عراقياً، ونكهة نجفية، ولم يكن هذا وليد هذا القرن إنما هو أبعد من ذلك، فقد نقل المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي في محاضرة ألقاها في تكريم جمعية الرابطة الأدبية في النجف له، قال: بان عصر السيد محمد مهدي بحر العلوم القرن الثاني عشر احتفظ بما لا يقل عن مائتي شاعر نجفي، واستمر هذا الحال الى ما بعد منتصف القرن الرابع عشر الهجري[1].

وقد لاحظت وأنا أتصفح موسوعة للمرحوم علي الخاقاني، والتي تقع في أثني عشر مجلداً أن أكثر شعراء هذه الموسوعة هم من طلاب المدرسة العلمية الدينية، أو ممن سكنها لدراسة العلوم الدينية وعاد إلى وطنه.

إن نظرة متأنية في بعض الكتب التي أنتجتها المدرسة النجفية الحديثة من أجل معرفة مدى الفيض العلمي والمرجعي والأدبي سوف تفتح آفاق المتابعين لتاريخ هذه المدينة إلى قبول كونها- كما أطلق عليها- أحدى أربع جامعات علمية إسلامية يحتفظ بها التاريخ العام للحضارة الإسلامية، والسمو العلمي والأدبي، كـ: جامعة الزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، والأزهر في مصر، إن جامعة النجف الأشرف فكر لا ينضب.

---

(1) محمد بحر العلوم - في آفاق شعر فقهاء النجف خلال القرن العشرين: 2 (محاضرة ألقيت في ديوان الكوفة - لندن 26/ 6/ 2002

(5) ظاهرة الجامعات الأهلية ترفد الحوزة العلمية النجفية.

لقد دار في ذهن بعض الشخصيات العلمية في النجف من الخمسينات تطوير الدراسات الحوزوية في مدرسة النجف العلمية ليكون طلابها مسايراً للتطور العلمي الذي يتطلبه العصر الحديث، فكانت بادرة الامام المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر في تأسيس كلية الفقه في النجف، تلمس اثرها الكثيرون ممن اضطروا إلى الهجرة للخارج بسبب الظروف القاسية التي لاحقتهم في النجف خاصة، والعراق عامة، وكان حرص المرحوم المظفر أن لا تذوب الحوزة العلمية ذات العمر الألف عام في هذا التطور والاهتمام على استقلاليتها وعدم الاندماج بها كما حصل في الأزهر الشريف، وفعلا كان له ذلك، فقد رفدت كلية الفقه في النجف الحركة العلمية النجفية بما أعطاها بعداً فكرياً، وكانت لحركة كلية الفقه مكان الريادة في تحقيق هذه الفكرة، إذ تأسست في النجف بعد سقوط النظام الصدامي ثلاث جامعات أهلية حملت نفس طموحات الشيخ المظفر في رفد الحركة العلمية في أطار حوزتها العريقة. بالإضافة إلى ذلك توجه جامعة الكوفة، وخاصة في كلية الفقه ما يؤكد هذا التوجه.

ولعل من أبرز اهتمامات القادة المفكرين من القرن العشرين -ولازال مستمراً- يرتكز على رفد المدرسة العلمية، وحوزتها العريقة بتطوير المناهج الدراسية فيها بالعلوم الحديثة، بما يؤهل المتخرجين من أداء رسالتهم التبليغية والإرشادية حسب مقتضيات الأزمنة المعاشة، ومواكبة العصر ومتطلباته العامة.

وهذه مهمة أساسية لإبراز آفاق المستقبل لهذه المدينة متطلعة إلى المعرفة للوصول إلى حياة تسهم بها كل قوى الفاعلة بالإنجاز العلمي والأدبي في عراقنا الغالي، والمعبرة عن الفكر الأصيل، والثقافة العريقة إذا أردنا له بناءً جديداً كما يتطلع إليه الشعب العراقي، لبناء قاعدة صلبة تصد كيد المعتدين والحاقدين لهذا البلد العتيد، وتعيد مجده الشامخ الذي بدده نظام صدام.

اهتمام قادة الفكر في النجف في رفد الحوزة العلمية

إلى جانب كثير من المؤلفات التي كتبت وصنفت في هذا المضمار، من قبلها وبعدها يمكن أن يحصى منها ما أنتجته النجف الأشرف في وجودها الحضاري الإسلامي، والبحث عن المواضيع الفكرية العلمية منها، والأدبية، والتاريخية، والكاشفة كلها عن أهداف مؤلفيها في تحقيق ثروات هذه المدينة الفكرية عبر أيامها الطويلة، وضمن التاريخ العربي و الإسلامي المتنوع، ومدى العمق الفكر النجفي -في حدود اختصاصاتها في علوم المعرفة-.

(6) النجف عاصمة الثقافة الإسلامية عام 2012

ونحن الآن على موعد مع مشروع "النجف عاصمة الثقافة الإسلامية عام 2012م" وهو مشروع هام وحضاري وشفاف لبلد عاش قرابة ألف عام في مسيرة علمية أدبية طبقت الآفاق، وسما طموحها الفكري أن تصهر كل بوتقات المعرفة في تطور يعود على رفد الحوزة العلمية الدينية ذات الألف عام بالفكر الجديد بما يصقل المواهب الرائعة التي يعيشها إنسان العراق المحب للعلم والأدب.

وأحسب إني لا أجانب الحقيقة إذا قلت أن هذا المشروع الثقافي بحاجة إلى مساهمة كل الأيدي المثقفة في العراق وغيرهم من الذين ينتمون إلى هذا البلد المعطاء، والتي تشعر بأهمية هذا المشروع، ومدى ضرورته لإبراز معالم كنز الأمة المؤمنة بهذا البلد العريق، وشموخه الثقافي.

وإذا أردنا نجاح هذا المشروع الحضاري فلابد أن تشارك الجهات الخمس -التي سأشير إليها- في العمل بخلقه، وبمثابرة جادة في إنجاز معالمه الأساسية بما يتناسب وقداسة هذا البلد، ومواهب وجهود أبنائه الفكرية، وهي:

1 - المرجعية الدينية، وقادة الحوزة العلمية في النجف الأشرف وحث العاملين في تجسيد المشروع من الناحية التوجيهية، بالتبني الصادق بما يكفل ولادته ولادة طبيعية يفتخر بها.

2 - أن ترصد له حكومتنا المركزية ميزانية يمكن بواسطتها تحقيق ما يتطلع إليه العالم في معرفة الإبداع الفكري العلمي والأدبي والثقافي لمدينة النجف.

3 - مشاركة كافة منظمات المجتمع المدني لتأخذ على عاتقها مسؤوليتها في ميلاد هـذا المشروع الهام العالمي بما يؤكد على طاقات النجف وحضارتها.

4 - أن يكون لجامعات النجف الأشرف، وفي مقدمتها "جامعة الكوفة، ومركز دراستها" اليد الطولى في رسم الخطط التي تقتضيها طبيعة العمل.

5 - أن يسهم في هذا المشروع كل من درس في النجف، و تخرج من حوزتها، أو مؤسساتها الأكايمية، فأن من حق النجف أن يشارك أولادها المختصون.

إن التاريخ سوف لن يرحم من يتقاعس عن إنجاح هذا المشروع الحيوي لمدينة علي بن أبي طالب سيد الفصاحة والبلاغة، والعلم الفياض، والبحر المعرفي المتلاطم الأمواج وقبل ان ينجز الكتاب؟؟؟ للطبع فقد الغت حكومة الاستاذ المالكي بتأريخ؟؟؟ هذا المؤتمر وتعين موعد جديد وهو عام 2020 بناءً على توصية اللجنة المناط بها تنفيذ المشروع وكان الاحتجاج كبيرا من مختلف الطبقات العلمية والادبية والتاريخية وان المؤلم والمؤسف؟؟؟ بما يدلل بوضوح بان اللجنة المعدة من قبل مجلس الوزراء لم تكن بمستوى هذا العمل المهم ولم تشعر بمدى الالم للنجف الاشرف ان يقصر على تحقيق هذا المنجُز التاريخي في حين رصدت له الحكومة

مبلغا يصل الى قرابة 500 مليون دولار فذهب هذا المبلغ ادراج الرياح وسوء مسؤولية اللجنة.

والله سبحانه من وراء القصد، وهو وليّ التوفيق.

كيف حافظت النجف على أصالتها؟؟*

من غير الممكن أن يختزل تاريخ حضاري لمدينة عريقة شامخة مثل مدينة النجف الأشرف في بضع دقائق، بل أرى أن الكثير من الجوانب المشرقة المضيئة التي رفدت وترفد المسيرة الطويلة لهذه المدينة العملاقة جدير بالاهتمام والدراسة، وانطلاقاً من تلك الحقيقة جاءت هذه الندوة الدراسية لتلقي الضوء على بعض تلك المحطات المضيئة، وما سيطرح من أبحاث ودراسات خلال اليومين سيثري المجتمع والتاريخ، أما أنا فأجدني مضطراً أن أتجنب خصوصيات البحث العلمي لمحدودية الوقت المتاح.

نحن أمام صرح "علي" الشامخ الذي يمتلك عمقاً تأريخياً متوازياً مع حركة الرسالات السماوية ويكتسب قدسية ليحتضن أجداث الأنبياء والأئمة والصالحين، واشتباكاً حضارياً مع "الحيرة"ليحتضن حضارة عربية تصل التنوخيين واللخمين والمناذرة، وتداخلاً مع "الكوفة" ليرسم معالم حضارة إسلامية عربية، وتألقاً علمياً امتد قرابة عشرة قرون، كان رائده شيخ من مشايخ النهضة العلمية الإمامية أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي عام 448هـ.

ذلك هو النجف الأشرف، والذي قال أمير المؤمنين علي عليه السلام عن شرف أرضه: إنه أول بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة، لما أمر الملائكة أن

(*) نص الكلمة التي افتتح بها د. السيد محمد بحر العلوم أمين عام معهد الدراسات العربية والإسلامية في لندن الندوة الثانية لـ"مركز كربلاء للبحوث والدراسات" المخصصة لـ "النجف الاشرف وإسهاماتها الحضارية " بتاريخ 17/ 7/ 1999المنعقدة في قاعة "المركز الإسلامي - لندن".

يسجدوا لآدم سجدوا في ظهر الكوفة[1].

كما تحدّث عنه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: الغري، هو قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وقدس عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً، واتخذ عليه محمد حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً، والله ماسكن فيه أحد بعد آبائه الطيبين آدم ونوح أكرم من أمير المؤمنين عليه السلام[2].

وضم النجف من مراقد الأنبياء والمرسلين -كما أخبر الأئمة الأطهار- قبور: آدم ونوح وهود وصالح[3].

ثم أصبح مهوى الأفئدة والقلوب بعد دفن بطل الإسلام الخالد، وإمام الفصاحة والبلاغة وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيه، ومن بعده كان "وادي السلام" في النجف مدفناً للأولياء والصالحين من المسلمين من قديم الزمان إلى يومنا هذا. ولعل الشاعر النجفي الشيخ علي الشرقي لم يجانب الحقيقة في قصيدته المشهورة، بعنوان "وادي السلام "حين يقول فيها:

مررت على الوادي فسفت عجاجه
فكم من بلاد في الغبار وكم ناد
وأبقيت لم انفض عن الرأس تربه
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي[4]

---

(1) محمد باقر المجلسي - بحار الأنوار: 100، طبع طهران. وتفسير العياشي: 1/ 34. الخوارزمي المناقب: 284.
(2) المجلسي - المصدر المتقدم: 100 / 232.
(3) غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن طاووس- فرحة الغري: 52 و57. وجعفر بن محمد بن قولوية القمي - كامل الزيارات: 381 الباب العاشر. ومحمد بن الحسن الطوسي - التهذيب: 2/ 12.
(4) ديوان علي الشرقي: 159، طبع بغداد.

إن تشابك النجف مع الحيرة والكوفة لتكون هذه المنطقة التأريخية العريقة من يوم استوطنها إبراهيم الخليل عليه السلام وهو نازح من بابل في طريقه إلى مكة[1]، شعلة حضارية تمتد أصولها الوارفة إلى المجد العربي، والشموخ الإسلامي، ولترسم معالم حضارة عربية إسلامية تبقى مع الزمن تلهج بشرف الرسالات، ولغة القران الكريم، والسنة النبوية الشريفة ما امتد الزمن لتحفظ لغة العرب، وحضارة الإسلام، وتختصر التاريخ من ملحمة "كلكامش" إلى روعة "نهج البلاغة" عبر آلاف السنين، وتقتطف براعة الأقوام، في إبداعاتهم الفكرية التي كانت ولازالت منبعاً سيالاً لحضارات الأمس واليوم وغد.

ولعل هذا التألق الفكري لصرح النجف برز واضحاً في الجامعة العلمية الدينية التي أسسها رائدها العظيم الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي سنة 448هـ حتى أصبحت بفخر أحدى أربع جامعات إسلامية يعتز بها الوطن الإسلامي الكبير، وهي: جامعة القرويين في المغرب، وقد تأسست سنة 245هـ[2]، وجامع الزيتونة في تونس والذي تأسس عام 114هـ، وانتقل التعليم إليه في دولة الموحدين منتصف القرن الخامس الهجري، وجامع الأزهر في القاهرة والذي أسس في عهد المعز الفاطمي سنة358هـ/ 970م، وجامعة النجف العلمية سنة 448هـ/ 1057م في العراق، واليوم دق عمرها أبواب الألف عام من حين تأسيسها على يد الشيخ الطوسي.

وهناك من يرى أن النجف كانت تحتضن حركة علمية قبل انتقال الشيخ الطوسي لها استناداً إلى عدة أدلة ناقشها بعض الكتاب[3].

---

(1) ياقوت الحموي- معجم البلدان: 1 / 133.

(2) نجيب زبيب - الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس: 2 / 134، طبع بيروت، دار الأمير 1995.

(3) لزيادة الاطلاع يراجع: محمد بحر العلوم - الدراسة وتاريخها في النجف / موسوعة العتبات المقدسة - جعفر الخليلي/ قسم النجف: 2/ 16-1وعلي أحمد البهادلي - الحوزة العلمية في النجف: 59 طبع بيروت.

واحسب أن التوفيق بين هذين الرأيين ممكن، فإن عهد الشيخ الطوسي كان عهد تأسيس الجامعة العلمية الدينية العريقة، ولكن النجف في واقعها امتداد إلى معهد الكوفة العلمي، والذي شيده الإمام علي ﷺ، وبلغ أوجه في عهد الإمام الصادق ﷺ، حيث أشار الحسن بن علي الوشاء إلى ذلك بقوله: أدركت في هذا المسجد [الكوفة] تسع مائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد(1). والكوفة كانت تعج بالحركة العلمية في عهد الإمام الصادق ﷺ 80-148هـ، وقد أشار المؤرخ البراقي إلى الأسر العلمية التي سكنت الكوفة، من الأيام الأولى للإسلام، ولاشك أن لبعض الأسر جذور وامتداد إلى ما قبل الإسلام(2).

واعتقد أن الشيخ الطوسي اختار النجف بعد اضطراره لترك بغداد على أثر الفتن الطائفية لوجود أرضية صالحة تمكن من تشكيل حوزة علمية فيها، لوجود علماء فيها سبقوه(3)، ومنطقة الكوفة والحيرة والنجف متداخلة بحيث يصعب التفريق بينها-فالحيرة عاصمة المناذرة، والكوفة عاصمة الإمام علي ﷺ ازدهرتا قبل الإسلام وبعده-والنجف شعت بين هاتين المدينتين لتمتزج بها حضارة الإسلام والعرب.

وهنا سؤالان يطرحان أمامنا، وهما:

أولاً: لماذا ندوة النجف هذه؟؟

والجواب لكل ما تقدم من عمق تاريخي، وبُعد حضاري، وتأجج فكري يكرم هذا الشموخ العلمي الثقافي لهذه المدينة العريقة، وليس بالكثير عليها ذلك.

وثانياً: كيف حافظ النجف على أصالته، وسط الأعاصير القاسية

(1) رجال النجاشي: 1/ 30.
(2) الحسين بن أحمد البراقي - تاريخ الكوفة: 411 - 427.
(3) أغابزرك الطهراني - مقدمة تفسير التبيان للشيخ الطوسي: 1/ ز، طبع النجف.

الزمنية التي اجتاحتها؟ولا أدعي أني أملك الإجابة الكافية، ولكن في حضارتنا العربية والإسلامية معالم تحدث التاريخ عنها بقوة وبأجل العبارات، ولا يمكن للمؤرخ تجنبها، ومن هذه المعالم التي تألقت في تاريخنا القديم والحديث مُدنٌ حملت تراثاً وحضارة وفناً، وامتدت لتصارع العصور والدهور، وفي تاريخ عراقنا الحبيب الشواهد الكثيرة التي لمعت وأضاءت وجه العراق...

ومن تلكم المعالم المضيئة في تاريخ العراق، مدينة النجف، والحديث عن النجف، ليس حديثاً عابراً عن صرح شامخ برز في مرحلة من مراحل تاريخ العراق وبقي تراثاً يعيش عليه المؤرخون، ويتحلق حوله الباحثون، بل تاريخ النجف معلم وصرح شموخه يتسع اطراداً مع تقدم الزمن، لم يتوقف عن رسم بصماته وبقوة على مجمل حركة الإنسان العراقي خاصة، والمسلم عامة.

فالنجف مدينة تنمو باستمرار واطراد تخفي بين ثنايا عمرها المديد فصولاً قد يبدو على المتتبع الباحث أن حركة التاريخ قد نأت عنها وابتعدت، ولكن سرعان ما تشع فيها الحياة وتدب في أوصالها الحركة وتعود عقارب الساعة لتسجل لها نمواً واتساعاً وهكذا، وتلك خصيصة تنفرد بها القليل من مدننا في عالمنا العربي والإسلامي.

وأصبحت المدينة "التاريخية الحية" تختزن الماضي باجابيته لتواجه الحاضر بسلبياته.

كثير من هذه المدن وبفعل التمازج الحضاري والثقافي تتفاعل وتتأثر وتنصهر حيناً وقد تذوب في الحين الآخر، أما مدينة النجف فقد تميزت عن تلكم المدن وأصبحت المدينة "المنفتحة المنغلقة" تملك من الوسائل والمغريات ما يجعلها تفتح أبوابها لكل القادمين من شتى أنحاء المعمورة، وتملك من المناعات ما يجعلها منغلقة أمام عوامل الانصهار والذوبان، فهي تختزن ايجابيات الانفتاح لمواجهة سلبيات الانغلاق وكثير من هذه

المدن وبفعل الصراع السياسي بين الدول تُحجّم وتصغر وربما تزول، أو تكبر.

ومدينة النجف بؤرة من بؤر الصراع السياسي والصراع الطائفي، وشهدت باستمرار محاولات مرعبة لطمسها وتفتيتها على مر التاريخ، وفي الجانب الآخر شهدت محاولات لرفع شأنها ونصرتها. والنجف مدينة تصمد أمام عوامل التعرية وتنأى عن الكبرياء أمام عوامل القوة، فهي تختزن أسباب القوة لمواجهة عوامل الدمار.

وكثير من هذه المدن خضعت لقوانين "الصراع الاجتماعي" بين طبقات المجتمع فبدأت تتأجج حينا... وقد تطغى شريحة على أخرى بفعل هذه العوامل تاركة بصماتها علامة فارقة، أما مدينة النجف فتمكنت من أن تستثمر هذا الصراع ليمنحها قوة في "التوازن الاجتماعي"، فهي تختزن القيم والعادات العربية لتجذر أصالتها لتضيف إلى مخزونها الاجتماعي ما يقيها لمواجهة هذا الصراع بايجابية وحركة.

وكثير من هذه المدن شهدت حركة علمية توجت تأريخها، غير أنها اتسمت بوتيرة ونمط معين، أما مدينة النجف فحركتها العلمية متميزة في الوقت الذي تعتبر واحدة من أرقى الجامعات الإسلامية في عالمنا العربي، ساهمت في دفع عجلة الحركة العلمية بطابعها الكلاسيكي ومازجته بحركة تجديدية، أضفت على هذه المعالم الثقافية والعلمية نوعاً من الحركة والتوازن والديمومة، فهي التي لازالت تفخر بطابعها القديم وتختزن قوته وأصالته، لدفع حركة التطور باتجاه التحديث في محاولة متوازنة، فكانت "الجامعة القديمة الحديثة" التي تفاعلت بما يتلائم وحركة المجتمع.

وكثير من هذه المدن لم تشهد تحركاً سياسياً شمولياً متنوعاً، أما النجف ففيها امتزجت الحركة العلمية والدينية والثقافية بالحركة السياسية لتعطي لها مدلولاً و وزناً خاصاً.

فعلى صعيد التحرك السياسي حفلت النجف بولادة "حركة النهضة" في العشرينات بقيادة سماحة المرحوم السيد محمد علي بحر العلوم، وسماحة المرحوم الشيخ محمد جواد الجزائري، ثم ولادة "الدعوة" بقيادة الإمام الشهيد الصدر في الخمسينات، ولا تلغي خصوصيات العمل بإطاره العام بل جاءت لتؤكد قدرة النجف على مواكبة التطور في العمل السياسي محافظة على الأجواء العامة. ولم يقتصر الأمر على الحركة الإسلامية، بل تعدى ليشمل أكثر الحركات الوطنية.

وكثير من هذه المدن لم تواكب تطلعات الشعوب العربية وانغلقت على نفسها لتنحسر عن المواجهة، أما النجف فهي أرادت أن تحافظ على حيوية عروبتها وأصالتها فساهمت في جهاد فلسطين والمغرب العربي والجزائر ومصر، وساندت حركة الشعوب العربية في مقاومة الاستعمار من أجل التحرر والاستقلال، وكل ما ترجمته تطلعاتها الوطنية مع صدق أحاسيسها العربية.

وإذا كان كل ما تقدم سبباً يمكن أن يفسر صمود النجف والمحافظة على أصالته أمام الأعاصير الطاغية، فإن خلاصتها هي بإيجاز:

1 - قدسية النجف:

إن القدسية التي توجت بها النجف الأشرف نابعة من كونها - كما تقول الروايات- مثوى الأنبياء والصالحين من عباد الله الأبرار، وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام، فأصبحت بفضل هذه الخصيصة مقصداً وموئلاً للمسلمين.

2 - جامعتها العلمية:

إن من أهم مظاهر النجف الشاخصة جامعتها العلمية الدينية، ومركز مرجعية المسلمين الشيعة، وقد تظافرت المحاولات على تفتيتها ولكنها

فشلت، لأن هذه الجامعة تمتعت باستقلال تام عن الواجهة الحكومية، ولم تخضع طيلة مسيرتها، وليومنا هذا وبكل ظروفها الشائكة لأي عامل يستند إلى الدولة معنوياً أو مادياً.

3 - أصالتها العربية:

فرغم انفتاح جامعة النجف لعموم المسلمين، ومن شتى البلاد الإسلامية، لم تتمكن لغات الوافدين لجامعة النجف وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم من أن تؤثر على النجف، بل بقيت النجف ترفل بثوبها العربي وتحاول المحافظة على اصالتها عبر هذه القرون، وإنما العكس من ذلك صحيح فقد أثرت لغة النجف الجامعية على كل خريجيها مما ميزهم عن غيرهم من زملائهم أعلام المسلمين غير العرب من الجامعات الأخرى.

4 - دورها السياسي:

مارست النجف من خلال "القيادة الدينية" دوراً توجيهياً سياسياً متميزاً على مستوى العراق والعالم العربي والإسلامي كان له الأثر الأكبر في بقاء النجف مركزاً حيوياً يشارك الشعب همومه وتطلعاته.

5 - تفاعلها مع التحديث:

إن الجامعة النجفية طيلة حياتها العلمية والأدبية تفاعلت مع التحديث، وحرصت على الحفاظ على القديم، في محاولة الجمع بين التيارين الحديث والقديم بما يتلائم ومتطلبات تطوير المجتمع الديني في مضمار العالم الإسلامي في هذا العصر.

6 - نتاجها الموسوعي:

إن النجف طرحت فكراً موسوعياً ثقافياً، وزخماً معطاء تميزت به عن سائر المدن التي شاركت في هذا المضمار، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

تفسير التبيان للشيخ أبي جعفر الطوسي في عشر مجلدات. وجواهر الكلام في الفقه للشيخ صاحب الجواهر في ثلاثة وأربعين مجلداً، ومستمسك العروة الوثقى في الفقه للسيد محسن الحكيم في أربعة عشر مجلداً، ومعجم رجال الحديث للسيد أبو القاسم الخوئي في عشرين مجلداً، والذريعة إلى تصانيف الشيعة للشيخ أغابزرك الطهراني في خمسة وعشرين مجلداً، والمجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الشهيد الصدر في خمسة عشر مجلداً، والغدير في الكتاب والسنة والأدب للشيخ عبد الحسين الاميني في احد عشر مجلداً، وشعراء الغري للأستاذ علي الخاقاني في اثني عشر مجلداً وغير هذا كثير وكثير يطول بنا المقام في تعداده.

ومن المؤسف حقاً أن نرى من يعمل بحقد وجاهلية لتهميش هذه المدينة العملاقة، وخصوصاً ما يمارس في حقها وحق أبنائها في ظل سلطة الحكم الطائفي المقيت لصدام حسين، وكمثل على ذلك فان طلاب العلم لهذه الجامعة إلى ما قبل هذا العهد الصدامي كان يتجاوز الخمسين ألف طالب من شتى مناطق العالم الإسلامي، والآن انضمر إلى المئات، وكذلك المحاولات القمعية والتصفيات الجسدية لعلماء الدين ومراجعه العظام مستمرة، كما هو معروف للجميع، إلى جانب تضيق الخناق على طباعة الكتاب الديني، وخاصة الشيعي، ومنع ممارسة الشعائر الدينية، ورغم ضراوة هذا الصراع فستبقى النجف رمزاً للتشيع والنضال الإسلامي.

إني على ثقة بأن هذه الندوة العامرة -في بحوثها ودراساتها التي اشترك فيها- صفوة من الباحثين والأساتذة المثقفين سيكون لها الأثر في كشف مكانة هذه المدينة الشامخة مع الزمن، وما أسدته إلى المجتمع الإسلامي من الشخوص المعرفية في غالب جوانب الفكر الإسلامي الديني. وهو وفاء رائع من رواد الفكر والمعرفة الإنسانية لهذه المدينة العظيمة التي تعاني في هذا الظرف من محنة خطيرة تكاد تعصف بها، لولا لطف الله.

الشكر لله سبحانه أولاً، ثم لكل المساهمين بإحياء هذه الندوة العامرة

بداية من اللجنة التحضيرية لـ [مركز كربلاء للبحوث والدراسات] الداعية لهذه الندوة إلى الأخوة الأساتذة المشاركين بمحاضراتهم القيمة والمساهمين بالحضور، أشكرهم جزيل الشكر باسم النجف الأشرف راجياً العلي القدير أن يأخذ بيد العاملين في هذا المضمار إلى تحقيق الهدف الأسمى، وهو رضا الله سبحانه وخدمة دينه الحنيف، إنه وليّ التوفيق.

النجف ومميزات جامعتها العلمية

للنجف تاريخ عريق في العلم، والأدب، والسياسية، يمتد على امتداد تاريخها الطويل، فهي في المجال العلمي بدا دورها منذ سنة 449هـ - 1056م يوم انتقل إليها الشيخ الطوسي محمد بن الحسن من بغداد على أثر الفتنة الهوجاء التي عصفت ببغداد، وأسس الجامعة العلمية فيها، واستمرت في مركزها العلمي تضم المرجعية الدينية للمسلمين الشيعة إلى يومنا هذا، بين مد وجزر في مركزيتها العلمية، تبعاً لانتقال الحوزة العلمية عنها إلى كربلاء، أو الحلة، أو سامراء، أو خارج العراق إلى خراسان، أو قم، كما هو الحال اليوم، أما لسبب سياسي، أو لوجود المرجع الأعلى في بلدٍ من البلدان، ولكن في كل الأحوال بقيت الجامعة العلمية النجفية شاخصاً لن ينعدم.

ولست مبالغاً إذا قلت أن جامعة النجف العلمية كانت تضم أيام ازدهارها من خمس إلى ثلاثين ألف رجل علم على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، من طالب السطوح إلى المجتهدين، وان أكثر علماء المسلمين الشيعة في البلاد الإسلامية هم من خريجي جامعة النجف العلمية.

إن من أهم مميزات جامعة النجف العلمية باختصار هي:

أولاً: استقلالية الجامعة العلمية عن السلطة: وقد حرص قادة الحوزة عبر أيامها الطويلة أن تبقى بعيدة عن التأثير الحكومي، والتحكم فيها، وقد أثبتت طيلة هذه العهود أن هذه الجامعة بمراجعها الفقهاء، وأساتذتها العلماء وطلابها على جميع المستويات، وحتى المناهج الدراسية، والموارد المالية بقيت مستقلة حتى هذا اليوم ليس للسلطة فيها أيُ تدخل، وذلك

بفعل الضوابط المتينة التي تؤطر عمل وسير الحركة، وهذا ما يجعلها حرة في حركتها، متحررة من آية وصاية، أو أي ارتباط مشبوه، قد يؤدي إلى مسلكية معينة تحرف الحكم الشرعي عن طريقه، وتحوله إلى سلك ليس فيه روح.

ثانياً: حرية المرجع الديني: المرجع الديني هو صاحب الفتوى المحركة للجماهير، وبمعنى آخر هو القائد الأعلى للمسلمين الشيعة، وهذا المنصب يقتضى عدم تأثر صاحبه بأي جهة من الجهات الخاصة والعامة، ولذا لابد للمرجعية الدينية أن تكون بعيدة عن كل ما يصدر منها عن كل ما يمس بعدالتها، أو ما يخدش شرعية قراراتها، للآثار المترتبة عليها شرعية أو عرفية.

ثالثاً: لا هوية قومية للمرجع الديني، ولا تحديد لعددها: فان من طبيعة المرجعية الدينية في عرف الجامعة العلمية النجفية أن لا يشترط فيها قوميةُ محددة، أو عددُ محدد، فكثير ما حصل أن يكون المرجع المبرز في النجف الأشرف فارسياً، أو تركياً، أو عربياً . وقد يوجد في وقت واحد أكثر من مرجع، فشروط المرجعية، ومن أهمها الأعلمية، والعدالة هي التي تحدد الأعلم من المراجع.

رابعاً: إن مراجع وأعلام وأساتذة، وطلاب الجامعة العلمية لعبوا دوراً قيادياً كبيراً في القضايا الوطنية التي تخص العراق كما حدث في ثورة العشرين، فقد أفتى بالجهاد عدد من العلماء الأعلام، والمراجع العظام، كشيخ الشريعة الأصفهاني فتح الله بن محمد جواد المتوفى سنة1339هـ - 1921، شيرازي الأصل، أصفهاني المنشأ، نجفي الدراسة، وانتهت إليه رياسة علمائها، برز في ثورة العشرين قائداً لمحاربة الاحتلال الأجنبي، طلب منه الحاكم الملكي العام في العراق الكولونيل أرنو لد ولسن الدخول معه في مفاوضات لوقف الثورة، فكتب إليه الأصفهاني مشترطاً [منح العراق استقلاله التام قبل الدخول في المداولات السياسية،] واستمر في

جهاده حتى توفي عام 1921في النجف ودفن فيها[1]، كما رأس هيأة عليا من العلماء لإدارة البلاد، هم: الشيخ جواد صاحب الجواهر، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد محمد علي بحر العلوم، والميرزا مهدي الخراساني، والشيخ إسحاق الرشتي، والشيخ موسى زاير دهام، والشيخ علي الحلي، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي[2]، ونلحظ أن من بين هذه الهيأة شخصيتين إيرانيتين هما الخراساني والرشتي.

و لا أنسى مكانة المرحوم السيد أبو الحسن الموسوي الاصبهاني المتوفى سنة 1365هـ/ 1946م، وهو إيراني الأصل وكان من المراجع المشهورين في النجف، وشارك بكل ثقله في القضايا الوطنية العراقية بداية من ثورة العشرين إلى غيرها من الأحداث السياسية ومنها حركة رشيد عالي الكيلاني عام 1941، وجرى على أثرها الاقتتال بين الجيش العراقي والبريطاني في نفس العام فكانت فتواه مؤيدة للحركة الانقلابية.

وأخيراً في هذا الصدد موقف الإمام الراحل السيد أبو القاسم الخوئي من الانتفاضة الشعبانية [آذار عام 1991] وهو [آذربايجاني- تركي] الذي عبر عن مسؤوليته القيادية الدينية، في تأليف لجنة من أهل العلم لإدارة شؤون النجف حين سقطت الحكومة الصدامية فيها.

الغرض من هذا العرض لموقف المراجع العظام في الجامعة العلمية النجفية الإشارة إلى أن المرجع الأعلى في النجف يعيش القضايا العراقية الوطنية مهما كانت قوميته وجنسيته، في حين لم يحدث مثل هذا في مكان آخر.

خامساً: ويجب أن نشير إلى أن الجامعة النجفية العلمية، أنتجت خلال أيامها الطويلة مئاتِ المؤلفات في شتى أنواع المعرفة فقهية،

---

(1) الزركلي الأعلام 135: 5 ومحبوبة ماضي النجف 362: 1

(2) محبوبة ماضي النجف 366: 1

وتفسيرية، وعقائدية، وأصول الفقه، وأدب، وشعر، ونحو، ولغة، وغيرها من أنواع المعرفة، طبع بعضها، والبعض الآخر لم يطبع، ونظرة لكتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة، والذي يقع: في 25مجلداً» يؤيد هذا الكلام.

سادساً إن هذه المدينة الجامعية كانت موضع توافد مستمر لطلاب العلوم الدينية من كل الأقطار الإسلامية، وتجمع هذا الزخم الوافد من الناس من مختلف الجنسيات والثقافات شكل مجتمعاً يضم أفكاراً وآراء امتزجت بواقع البلد العلمي، فكانت نقطة حضارية مركزية.

سابعاً إن هذه الجامعة بشموخها العلمي، وعمرها المديد الذي يصل ألف عام أبرزها أحد أربع أقدم جامعات إسلامية في العالم: القرويين في المغرب، والزيتونة في تونس، والأزهر في القاهرة، والنجف في العراق.

ثامناً رغم كثافة الوافدين من طلاب العلوم الدينية على النجف، واختلاط اللغات والأفكار فيما بينهم إلا أن الطابع العربي لجامعة العلمية بقي محافظاً على طابعها العربي الإسلامي، وحتى المراجع والمجتهدين غير العرب كانوا يتأثرون بالتوجه العربي، وكانت تحدث بعض الصراعات بين حواشي المراجع والمجتهدين، فتمتد المسأجل ات إلى العمق التنافسي في الأصول كما حدث في عهد المرحوم السيد أبو الحسن الاصبهاني، وهو مرجع كبير في النجف، وهو إيراني، يقابله مرجع آخر وهو الشيخ احمد كاشف الغطاء -وهو عربي الأصل-واشتدت المنافسة مابين المرجعيتين، وامتد انعكاسها على الحواشي والأتباع وتشاء الصدف أن يتزوج احد أقرباء الشيخ كاشف الغطاء، وكانت العادة أن تقام للمتزوج حفلات تتلى فيها القصائد بالترنيم الشعري، ففي أحدى هذه الحفلات تلقى قصيدة لشاعر، عرف بالفضل والتقى والعلم، وهو الشيخ مهدي الحجار، والقصيدة طويلة يقول في مطلعها مخاطباً العريس:

هوت الجباه إلى جمالك سجدا ودعت لتتخذن وجهك معبدا

يسمو به النسب الشريف لمعشر   كشفوا غطاء جميع أحكام الهدى
ما ضر مجدك حاسداً بزغت له   شمس النهار فعاد منها أرمدا

ثم ينتقل إلى مخاطبة الشيخ احمد كاشف الغطاء زعيم الأسرة ومرجع العرب العراقيين حينها، فيقول:

أنت العميد لها برغم أنوفهم   بل أنت سيدها وكلهم سدا
رأت الشريعة منك اكبر قائد   فرمت إليك زمامها والمقودا
والعرب تعلم أنت تاجُ فخارها   بسوى شريعة (احمد) لن يعقدا
سلها غداة تصفحت قرآنها   أفهل رأت (بيغمبراً أو يا خدا)[1]

(1) شعراء الغري: 12- 217

الفصل الثاني

التطور السياسي والديني للمرجعية الدينية في النجف الأشرف

1 - المرجعية الدينية ودورها الديني والاجتماعي.

2 - التطور التاريخي للمرجعية الشيعية.

3 - المرجعية الدينية واسلمة القوانين.

4 - دور المرجعية في احتفالات النجف وكربلاء.

5 - آفاق الثابت والمتغير.

المرجعية الدينية عند الشيعة الأمامية
ودورها الديني والاجتماعي
في توجيه الإنسان وبناء كيانه[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلائق أجمعين، محمد سيد المرسلين، وآله الغر الميامين، وعلى أصحابه المنتجبين.

وبعد:

المدخل

للمرجعية الدينية في العالم الإسلامي الشيعي أهمية خاصة، نظراً لامتدادها العقائدي إلى خط الرسالة، ابتداءً من مبلغها الأول رسول الله ﷺ الذي يتلقى التوجيه من الله سبحانه بواسطة الوحي، ومن بعده أئمة الهدى من آل بيت المصطفى عليهم أفضل الصلاة والسلام بواسطة الرسول الأعظم ﷺ، وانتهاءاً إلى نواب الأئمة على امتداد التاريخ، وإلى حين تقوم الساعة، وهم العلماء الأعلام، الأمثل منهم فالأمثل، حجج الله على عباده، والقادة في بلاده.

والحديث الشريف يوضح هذه الحقيقة، حيث ينص بإن: "في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفي عن هذا الدين تحريف المغالين،

---

(1) بحث قدم إلى ندوة تحت عنوان (العراق: الدين، والدولة، والمجتمع) عقدته مجموعة المنبر الثقافي ـ لندن بالتعاون مع جامعة لندن قسم السياسة والاجتماع في لندن 22رجب 1418 الموافق 22/ 11/ 1997

وانتحال المبطلين، وتأويل الجهال، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم وصلاتكم"[1].

إن هذا الحديث فيه دلالة واضحة على إتباع الخط، لما فيه من ضمانة لصيانة الإنسان، وحمايته من الانحراف، وبناء قويم لكيان المجتمع الإسلامي الذي أراده الله سبحانه لعباده، فأرسل رسالته السماوية، وكانت خاتمة الرسالات، وهي ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] وليكون منهاجاً لحياة الإنسان، ودستوراً لبقاء مجتمعه. وكذلك أرسل رسولاً ليبلغ هذة الرسالة للأمة، فهو ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة: 2].

تحديد مصطلح المرجعية:

ولما كان حديثنا عن المرجعية، فلا بد لنا من تحديد هذا المفهوم الاصطلاحي بما يساعد على توضيح القصد.

وحين نرجع إلى اللغة لتوضيح معنى (المرجع)، نراه يشتق فعل (رجع) يقول: "رجع، يرجع، راجعاً، ورجوعاً، والمرجع، مصدر، الرجوع، ومعناه: العودة، أو الانصراف"[2].

ويعضد هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ، أي الرجوع. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العَلق: 8]، أي الرجوع. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: 99-100]، والمراد: إن العبد إذا بعث في يوم القيامة، وعرف سوء عمله، يطلب من الله إن يعيده إلى الدنيا ليحسن عمله، أي يرجعه.

(1) قرب الإسناد: 77
(2) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مادة (رجع)، أوفست، قم - إيران 1405.

ويقودنا هذا المعنى -اللغوي والقرآني- إلى القول بأن المرجعية، هي الرجوع والعودة إلى الآخر، ولذا يمكن أن نعرف(المرجع) في المصطلح الديني، بأنه: العالم، المجتهد، الذي ترجع إليه الأمة بالحكم الشرعي لحياتها اليومية، كما يقودها إلى منهج الرسالة الإسلامية، وتطلعاتها المصيرية العامة، وبمرور الزمن اتسع هذا المفهوم، نظراً لتوسع مسؤولية المجتهد العام لشؤون الأمة، حيث أصبح يتصدر المركز القيادي فيهم، فأصبح مرجعاً، وأطلق على هذا المجتهد المرجع العام، وهو المتصدي (للمرجعية).

الديانات السماوية ضرورة لتنظيم المجتمع الإنساني:

إن الله سبحانه حين خلق الكون الإنساني قرر له الامتداد الزمني الطويل -والذي لا يعرف مداه إلا هو فحسب- ومن الطبيعي أن تكون حاجات هذا الكون من كل الاعتبارات ضرورية ومستمرة، استناداً إلى ديمومتها، وتجددها مع التطور الزمني، تبعاً لتطور مقتضيات الحياة.

كما وإن هذا الكون المتطور بحاجة إلى منظم مدرك لأبعاد الإنسان وحاجاته، وليس هناك أعرف من خالقه به: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، وهذه المسؤولية الكبيرة هي بناء الإنسان ضمن مجتمعه، وتقويم كيانه الحياتي، وحيث إن رسالة الإسلام ممتدة الى آخر الزمان، لأنها خاتمة الرسالات، فان حاجات الإنسان التي تترتب عليها أحكام الدين غير منقطعة، ولا منتهية، يتجدد مع التطور الزمني، استناداً للقاعدة الأصولية المعروفة: "الاشتغال اليقيني يستدعي اليقين بالبراءة"[1].

ولذا فإن أحكام الدين لا تنتهي، لأنها تتجدد حسب مقتضيات الزمن،

(1) مرتضى الأنصاري، فرائد الأصول: 1/ 469، طبع مؤسسة الأعلمي، بيروت 1991.

وحاجات الإنسان المتطورة، ومن هنا نجزم بأن الله سبحانه لم يفرض الديانات السماوية على عباده إلا لينقذهم من مهاوي الضلالة والجهالة، ويحدد لهم دستوراً، يبني به مجتمعهم لينقلهم من الحياة البدائية إلى مستقبل أفضل كما يريده لأمته، وهذا ما يحتاج إلى رسالة، ورسول.

الإسلام خاتم الرسالات السماوية:

فالرسالة، هي الإسلام، وهو خاتم الرسالات الإلهية البشرية، والتي تحمل في طياتها بناء المجتمع الإنساني على خير ما تقتضيها طبيعة الحياة الإنسانية من حيث التكامل والديمومة، وان من أهم خصائص هذه الرسالة، هو:

1 - أنها مستمرة مع الزمن ولم تمسها يد التحريف والتصحيف، كما حصل لبقية الكتب السماوية التي وصلت إليها آفة التحريف والتبديل.

2 - أنها تناولت جوانب الإنسان العامة والخاصة، بالإضافة إلى الجوانب الأخرى الإلهية والكونية، والحياتية. ولم تقتصر على جانب معين من هذه الجوانب الهامة، بحيث تهيئ للإنسان التمازج بين الحياة الروحية والدنيوية.

3 - أنها تتضمن خصائص حضارية ترفد الإنسان في مسيرته الحياتية مع امتداد العصور والأجيال.

قيادة الأمة تمر بثلاث مراحل:

والرسول، هو المبلغ، والقائد الأول، ومن بعده أئمة الهدى من آل بيت المصطفى ﷺ، ومن بعدهم نوابهم، فسلسلة قيادة الأمة مرت بثلاث مراحل:

الأولى: قيادة الرسول الأعظم ﷺ:

إن الله بعث إلى الأمة الإسلامية، محمد بن عبد الله ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً للعباد، تستنير به الأمة، وتهتدي بهداه، فكان الحارس، والقائد، والحافظ، لهذه الشريعة الغراء. وهو من الناس يحمل كل ما للإنسان من خصائص البشرية وسنتها، ومنها (محدودية العمر) في الوقت الذي تحمل مهمة الرسالة صفة الامتداد إلى نهاية الزمن، فلا بد والحالة هذه من إيجاد وسيلة استمرارية تؤدي مهمتها تبعا للمبلغ الأعظم، نبي الرحمة محمد ﷺ، وعليه - وهو مكلف بهذه المهمة - أن لا يترك رسالته في مهب الريح، تعصف بها الأهواء، وتتلاعب بها العواطف، وتقننها المصالح الشخصية، فلا بد أن يضع لها سنناً وقواعد تحميها من الأخطار، وتصونها من التلاعب، وهذا ما يقره النقل والعقل.

ومن هنا لابد من الاعتقاد بأنه - عليه أفضل الصلاة والسلام- أوكلها لمن بعده ممن تتوفر فيه الأهلية لأداء هذه المسؤولية الخطيرة - وهي قيادة الأمة -فهي أمانة الله أودعها لديه، حين اختاره رسولاً للأمة، مرشداً، وهادياً، ولا يمكن التفريط بهذه الأمانة الإلهية التي شرفه بها، وخاصة هو في مقام التبليغ - أي في مقام البيان - وفي هذه الحالة الرسالية يجب عليه أن يتم التبليغ بالنص على من يقوم مقامه من بعده، وفعلاً قام بذلك يوم الغدير، وأمام الصحابة وحجاج بيت الله الحرام - كما سنشير إلى ذلك-.

الثانية: قيادة الإمامة أو الخلافة:

وهذه المرحلة التي تلت مرحلة النبوة، اختلف المسلمون في تحديد القيادة، فالمسلمون عدا الإمامية من شيعة الإمام علي عليه السلام - قالوا: بمبدأ الخلافة، وآمنوا بالخلفاء الأربعة، ثم من بعدهم الخلافة الإسلامية، أموية، وعباسية، وعثمانية، إلى نهاية العهد العثماني، حيث انتهى عهد الخلافة.

أما الإمامية، فهم يرون أن النبي ﷺ نص على إمامة علي عليه السلام من

بعده، والأحد عشر من أولاده المعصومين -عليهم السلام- في مواضع متعددة، سواء على مستوى التبليغ في (حجة الوداع) حين نص على خلافته من بعده، وبايعه كل من كان في الجمع ذلك اليوم، أو الروايات العديدة، والتي تخص بعضها علياً عليه السلام، والبعض الآخر تحدد عدد أئمة أهل البيت عليهم السلام منها، قوله صلى الله عليه وآله: "أيها الناس قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: الثقلين، وأحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض"[1]، وبهذا النص النبوي الشريف فقد وضع أئمة أهل البيت عليهم السلام:

أ - عدل الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من كل جانب، وحيث أنه ملزم الإتباع وأنهما لن يفترقا.

ب - ثم بهذا النص، أيضاً -وهولا ينطق عن الهوى- جعل التمسك بهما نافياً للضلالة والجهالة من بعده في شأن التبليغ والخلافة.

ج - أنهم بذلك امتداد للنبوة، لا نهما ثقلان وخليفتان[2]، إلا أنهم -أي الائمة- ليسوا بأنبياء،

فإذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يتلقى أحكام الله بواسطة الوحي، فان الائمة يتلقون أحكام الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله على أساس إن النبوة بداية الرسالة، والإمامة امتداد لتلك الرسالة[3].

والعترة التي أشار إليها النبي في حديثه المتقدم، وجعلها عدل القران

---

(1) راجع عن واقعة الغدير كتاب (الغدير، عبد الحسين الاميني: 1- 5) طبع دار الكتاب العربية، بيروت.

(2) للاطلاع على مصادر هذا الحديث يراجع: محمد حسن المظفر، فضائل أمير المؤمنين من دلائل الصدق: 2/ 304 -310، طبع دارا حياء التراث العربي، بيروت.

(3) لزيادة الاطلاع على الاستدلال بهذا النص النبوي على إمامة أهل البيت بعد النبي F يراجع محمد تقي الحكيم، أصول الفقه المقارن: 164- 169، طبع مكتبة الأندلس. - بيروت

الكريم، هم: علي بن أبي طالب وأولاده الأحد عشر المعصومون عليهم السلام من الحسن بن علي إلى آخر هم محمد بن الحسن المهدي عليه السلام.

إن أئمة أهل البيت عليهم السلام تحملوا المسؤولية الرسالية طيلة قرنين مرت عليهم بأصعب حال وأحلك ظروف، لاحقتهم فيها سيوف الحكام الظالمين، وتشويهات أصحاب الضمائر الخائنة، الذين انداحوا لاهثين وراء ترغيب وترهيب السلطة الحاكمة، المناوئة لآل المصطفى، ورغم هذا كله فقد أدوا رسالتهم خير أداء، وتمكنوا من تأسيس مدرسة علمية عريقة، أفادت الأمة من بعدهم، و ازدهرت بالعلم والمعرفة، وبخاصة في عهد الإمام الصادق عليه السلام، الذي غذى المدرسة الفكرية الإمامية بجوانب متعددة من المعرفة، تجاوزت الفقه، والحديث، والتفسير، إلى علوم بنت كيان المجتمع الإسلامي من حيث المعرفة العامة، كالطب، والكيمياء، والفلسفة، وغيرها من العلوم التي لم تكن لها سابقة التداول في الفكر الإسلامي.

إن أئمة مدرسة أهل البيت رسموا لأتباعهم من رواد مدرستهم ما يجب العلم به من بعدهم، نظراً لكون الحياة ممتدة، وحاجة الأمة إلى من يرشدها إلى الطريق الصواب مستمرة من أجل بناء كيان المجتمع الإسلامي، ولعدم وجود حد نهائي للشريعة لتوضع لها صيغة محددة، فإن كثيراً من المسائل الشرعية لا تزال محل بحث، وإعادة نظر.

كما "وإن الطبيعة المتغيرة للمجتمعات، وتطور علاقات الأفراد في كافة المجالات تفرض وضع تشريعات جديدة للأحداث المتجددة، تستخرج من القواعد العامة، وهذه عملية دائمة لا تفتر عن الحركة من جهة، وحاسمة من جهة أخرى، لضمان مسايرة الشريعة للحاجة المتجددة، ولن يكون ذلك بغير الاجتهاد، الذي تتوسع فيه المدارك والملكات"(1).

(1) حسين معتوق المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية: 27، طبع دار الهدى، بيروت 1970.

الثالثة: قيادة نواب الأئمة:

هذه المرحلة تختص بنواب الأئمة، وهم العلماء (المجتهدون)، الذين أشار الله سبحانه إليهم في كتابه المجيد، وحث على التمسك بهم، والسؤال منهم بقوله تعالى:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: 43].

ووضح رسول الله ﷺ المقصود من الخلفاء حين قال: "اللهم ارحم خلفائي، فقيل له يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يرون حديثي، وسنتي، فيعلمونها الناس من بعدي"[1]. ومن أجل تحديد مكانتهم من مسيرة التبليغ، قال ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء"[2]. وفي رواية للإمام علي عليه السلام في هذا الصدد أنه قال: "مجاري الأمور على أيدي العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه"[3]

ولأهمية هذه المسؤولية الرسالية التي حمّلها أئمة أهل البيت عليهم السلام أتباع مدرستهم، فقد وضع الإمامان الصادق والحسن بن علي العسكري عليهما السلام المواصفات الكاملة التي يجب أن تتوافر في نوابهم الذين يتحملون مسؤولية رعاية الأمة، بقولهما: "فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه"[4].

والتقليد -الذي يشير إليه الحديث- ويلزم عامة الناس به إذا لم يكونوا مجتهدين، أو يعملون بالاحتياط لا يكون في أصول الدين، لأنه يجب معرفتها بالدليل العقلي، والعلم، لا بالتقليد والظن.

---

(1) محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة: 93، طبع دار التعارف، بيروت 1979.
(2) بصائر الدرجات 10: 1/1 محمد بن الحسن الصفار - بصائر الدرجات 1/10 ط طهران 1404.
(3) محمد باقر الصدر، المصدر السابق.
(4) أبو القاسم الخوئي، "منهاج الصالحين" 1/17 (مسألة 1)، طبعة دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت (الطبعة الثالثة والعشرون)

والمقصود بأصول الدين، هو الإيمان بالله، وبرسوله، واليوم الآخر. وفي غير هذه -وهي الفروع- فيجب على المكلف الرجوع فيها إلى المجتهد العادل الجامع لشرائط الاجتهاد، إذا لم يسعه الاجتهاد، أو العمل بالاحتياط[1].

وجاء في الحديث الشريف إن رسول الله ﷺ قال: "يحمل هذا الدين في كل قرن عدول، ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الضالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد"[2].

مما تقدم نستطيع أن نستنتج مكانة المجتهد -العالم الجامع للشرائط- الذي يمثل المرتبة الرسالية الثالثة، وهي دور(نواب الأئمة)، ولهم يسند منصب (المرجعية) للمسلمين الشيعة في العالم، هذا المنصب الديني الذي لا يرقى إليه إلا من كان مجتهدا، ويتمتع بقدرة كاملة على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وبورع، وتقوى، فإنها سلطة الأنبياء والأوصياء، بصفته خليفة الله سبحانه في الأرض، ومن كان بهذه المنزلة لابد له من درجة عالية من درجة في الورع والتقوى، إلى جانب العلم والمعرفة.

سلطة المرجعية في زمن الغيبة:

ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا أكدنا على أهمية سلطة المرجعية المتمثلة بكبار المجتهدين، الذين عرفوا بالأعلمية، والمؤهلات الفكرية، والصفات الكمالية، لأنها قيادة عليا، وان حاجة الإسلام والمسلمين لمثل هذه القيادة ضمانة لاستمرارية الشريعة، وضمان مسايرتها للظروف المستجدة،، تبعا لتطور الحياة.

---

(1) الصدر، المصدر المتقدم: 15، (الكير: زق ينفخ فيه)
(2) الري شهري، ميزان الحكمة: 2554: 3.

ومن هنا كانت الحاجة ملحة إلى إبقاء باب الاجتهاد مفتوحا -كما هو الحال عند المسلمين الشيعة- نظراً لعدم وضوح بعض الأحكام الشرعية في كثير من الأحداث لكل أحد، وخاصة منها المستجدة، ضمن التطور الزمني السريع والمذهل، وإلا لما احتاج أحد تحديد الموقف الشرعي إلى عملية الاجتهاد، كما كانت الحالة في عصر التشريع. وان ابتعادنا عن عصر التشريع، والغموض الذي يكتنف بعض الأحكام، أو نصوصها، اقتضى كل ذلك إلى ضرورة إعمال ملكة الاجتهاد، وعدم غلقه، كما كان عليه الحال عند أغلب المذاهب الإسلامية سابقا، مما اضطر أكثر علمائهم اليوم إلى القول بفتح باب الاجتهاد.

أثر الاجتهاد في حيوية فقه الشيعة:

إن إبقاء باب الاجتهاد مفتوحا عند الشيعة أعطى الفقه الإمامي حيوية ومرونة، مما جعله يساير الأحداث والوقائع التي يزخر بها المجتمع الإسلامي، واستطاع معالجة الكثير من شؤون الحياة وتطوراتها، ودلل على رفضه القاطع لمسايرة إرادة الحاكم، وعدم تأثره بالحكومات الوضعية، والتأكيد على استقلالية المرجعية الدينية، امتثالا للحديث الشريف الذي ينص على إن: "الفقهاء أمناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا. قيل يا رسول الله: وما دخولهم في الدنيا؟ قال: إتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم"[1].

إن المرجع الديني يصل إلى هذه الرتبة العليا في قيادة الأمة نتيجة مكانته العلمية، وشهرته بين أقرانه في فضله، وأعلميته، بالإضافة إلى ثقة

(1) للتعرف على مدرسة المرجعية الأمامية في بغداد في القرن الخامس، وأقطابها الأعلام الثلاثة: المفيد، والمرتضى، والطوسي، يراجع: محمد مهدي الآصفي- مقدمة كتاب (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية- زين الدين الجبعي العاملي المعروف بـ (الشهيد الثاني) 1/ 51. الطبعة الاولى، 1386هـ النجف الاشرف.

الأمة به، واطمئنانهم بورعه، وواقعيته الإيمانية. ولأتدخل في هذا السياق سلطة دولة، أو أرادة حاكم، مهما كان نفوذ السلطة، أو قوة الحاكم، لان قضية المرجعية خاصة تنطلق من المصلحة الدينية، وتخضع للواقع الديني المحض.

إن امتداد تاريخ المرجعية الشيعية يؤكد على هذه الحقيقة الأساس، كما وان قوتها المركزية تنبع من هذه الخصيصة الجريئة، والتي حفظت مركزيتها الدينية عبر القرون الطويلة، وكان لها الصوت المدوي في المجتمع الإسلامي.

على أساس كونها القيادة الدينية العليا للأمة، وأنها تصدر التوجيهات والأوامر التي تتعلق بحياة الإنسان ومجتمعه، ويجب أن تقابل من الجماهير بالإطاعة والامتثال، وحين تكون القاعدة الجماهيرية متفاعلة مع مرجعيتها تفاعلا إيمانيا غير عاطفي، فسوف تكون النتيجة علمية بناءة للمجتمع، وإنجازاً هاما في مسيرة الرسالة الإسلامية، ورصيدا ضخما في سجل المرجع، كما حدث لكثير من مراجع الأمة عبر الأزمنة المديدة، وخاصة لأولئك الذين عبروا الحواجز الإقليمية، وكان عهدهم يمثل الامتداد الجغرافي للأمة.

والتاريخ السياسي والاجتماعي يشهد لكثير من أعلام المراجع حيث كانت لهم السلطة الحاكمة في العالم الإسلامي الشيعي، وكيف كانت فتاواهم ذات أثر هام في دفع الجماهير المؤمنة بالمرجعية إلى الاستجابة العارمة، والتضحية الفدائية في سبيل تحقيق الهدف الذي بعث الموقف المرجعي بأن يتصدر عملية الحدث.

مركز المرجعية عند الشيعة:

إن المرجعية الدينية عند المسلمين الشيعة لم تحدد بقومية معينة، أو مكان مخصوص، أو زمن محدد، إنما رأيناها تتنقل بين مراجع: عرب،

وفرس، وأتراك، وآذربايجانيين، كذلك قد تتعدد المرجعية في مكان واحد -تبعا لجواز تعدد المرجعية العامة عند الإمامية- أو تنحصر بواحد في العالم الإسلامي الشيعي، ويكون لها شخوص أكبر حينها- كما حدث في كثير من أدوار المرجعية خاصة في القرن الأخير.

أما بالنسبة لمركزها، فقد انتقلت بين النجف الأشرف، وكربلاء، وبغداد، والكاظمية، وسامراء في العراق. وخراسان، وأصفهان، وقم - من مدن إيران. أو جبل عامل في جنوب لبنان.

تاريخ انطلاقة المرجعية:

إن تاريخ المرجعية عند الإمامية -والتي تمثل القيادة العليا للأمة - يمكن أن نعتبره قد انطلق من بعد الغبية الكبرى، تمثل في بغداد واضحا بالشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن النعمان المتوفى عام 413هـ، ومن بعده السيد المرتضى، علي بن الحسين المتوفى سنة 436هـ، ثم من بعده الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن المتوفى سنة 460هـ، واليهم رجعت قيادة الشيعة، ومن ثم انتقلت إلى النجف، على اثر الحوادث الطائفية بين السنة والشيعة في بغداد سنة 449هـ، وقتل خلق كثير منهما تجاوز الآلاف، مما اضطر الشيخ الطوسي بعد الهجوم على بيته، وحرق مكتبته الزاخرة بالكتب للانتقال إلى النجف الأشرف، وأسس حوزته العلمية فيها، والتي استمرت إلى يومنا هذا بين مدّ وجزر في بسط نفوذها العلمي على العالم الشيعي، تبعا للظروف السياسية التي كانت تحكم العراق.

والمرجعية الدينية التي نتحدث عنها ليست تلك التي تدور في دائرة الفقه والإفتاء بالحلال والحرام فحسب، وإنما نقصد بها خط الإمامة، والذي هو في حقيقته قيادة الأمة، ورعاية مصالحها السياسية والاجتماعية، بالإضافة إلى الجانب الفتوائي في الحلال والحرام، وهذا واقع المسؤولية الكبرى، التي أسندها الله إليهم بعد مسؤولية الأئمة عليهم السلام.

عراقة جامعة النجف الأشرف:

وكانت حصة النجف الأشرف في العراق الأهم والأكبر من كل الجامعات الشيعية التي احتضنت الجمعية فترة من الزمن، فان جامعتها العلمية تأسست منذ انتقال الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن من بغداد إليها سنة 449 هـ، وأصبحت -كما هو معروف- إحدى أقدم أربع جامعات علمية في العالم الإسلامي، تجاوزت أعمارها الألف، أو قارب بعضها ذلك، وهي: جامعة القرويين في المغرب، وجامعة الزيتونة في تونس، وجامعة الأزهر في قاهرة مصر، وجامعة النجف الأشرف في العراق[1].

ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا بقي هذا الصّرح العلمي الشامخ ينشر المعرفة الإسلامية، ويخرج فطاحل العلماء المعروفين في العالم الإسلامي، ولم نبالغ إذا قلنا أن غالبية المراجع الذين أسندت إليهم هذا المنصب سواء من الطبقة الأولى، أو ما يليها هم من خريجي مدرسة النجف العلمية، التي تربض في مدينة باب علم النبي ﷺ الإمام علي عليه السلام، والذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[2]، منذ ألف عام.

جامعة النجف والظروف القاهرة المضادة لها:

ولا ينكر احد أن ظروفاً قاهرة مرت على جامعة النجف العلمية عبر أدوارها الطويلة، فانتقلت المرجعية منها إلى غيرها من البلدان العراقية، أو الإيرانية، أو اللبنانية، وغيرها من المدن التي كانت تضم حوزات علمية،

---

(1) للإطلاع على تأسيس جامعة النجف العلمية وتاريخ الدراسة فيها - راجع موسوعة العتبات المقدسة -جعفر الخليلي قسم النجف (بحث - محمد بحر العلوم) الجزء الثاني: 2/ 112.

(2) محمد هادي الميلاني، قادتنا كيف نعرفهم: 2/ 379-387، طبع مؤسسة الوفاء، بيروت 1406.

ويرأسها علماء اشتهروا بالاجتهاد، والمكانة العلمية، ولكن هذه المرجعيات كان يحدد عمرها بعمر المجتهد الذي يبرز في تلك المنطقة، فينشر بها سلطانها العلمي، وزعامته المرجعية، وتنتهي بانتهاء عمره، إذا لم يشغل مكانه من يسد الشاغر، ويبقي زعامة المرجعية مستمرة في تلك الجهة، واضحة المعالم بما يحفظ مكانها عامرا في تلك المنطقة.

والنتيجة تبقى الجامعة النجفية بين مد وجزر من حيث كثافة طلابها الوافدين عليها من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وروادها العراقيين. وتسترد موقعها الأصيل حين تزول عنها غيوم الظروف القاسية، كما هو حالها اليوم.

أصوات ترتفع بنقل الجامعة العلمية من النجف:

والغريب أن بعض الأصوات أخذت ترتفع هذه الأيام في محاولة فاشلة لإبعاد مركز المرجعية في النجف عن مكانها الطبيعي، بحجة أنها محكمة في الوقت الحاضر بنظام بوليسي إرهابي - متمثل بنظام صدام حسين - وان هذا الوجود الشاذ يمنع المرجعية من ممارسة توجهها العلمي بحرية، وكما هو في مثل هذه المؤسسات الدينية، والتي يجب أن تحتفظ باستقلالها وتعبر عن رأيها بإرادة حرة، غير متأثرة بتيار حزبي خارج على الشرعية، أو منصاعةً لجهة ما تخالف الواقع الديني المعاش. إن هذا اللون من التبرير المفتعل (للموقف (السلبي) من إبقاء المرجعية الدينية حية في النجف) منطلق غير سليم لسببين:

الأول - أن أسلوب الإرهاب لا يخلو منه أي بلد، خاصة في منطقة الشرق الأوسط، سابقا وحاليا، ورغم وجود ذلك، فإننا لم نر أية جهة تطالب بنقل مركزها العلمي إلى مكان آخر، بل بالعكس فأنها تعتز بمثل هذا الوجود الحضاري، وبخاصة إذا كانت هناك ظروف استثنائية تحكم البلد، كما هو الحال في العراق.

الثاني - إن المنطق يقضي إسناد مركز النجف، وبأية وسيلة ممكنة لإبقاء هذا التراث الحضاري المهم في حاضرة العالم الإسلامي محفوظا من عوارض الزمن البغيض الذي يجتاحنا في العراق بالذات، وفي ظل الحكم الطائفي المقيت، فالإنسان الحريص على سمعة النجف عليه أن يعمل على ترسيخ الجهود، وتركيز العمل للحفاظ على هذا الكيان العلمي الشامخ من الاندثار نتيجة العوامل السياسية الرعناء.

الدعوة إلى فصل الدين عن السياسية:

وإذا سمعنا الصرخات تتعالى من هنا وهناك بفصل الدين عن السياسة، وإن العالم الديني يجب قصر مهامه الوظيفية على العمل الفتوائي بالحلال والحرام فحسب، فهذا الموقف لا يخرج عن أحد الاحتمالين: إما الجهل بمدى مسؤولية المرجع الديني، أو الصدى للحاكمين الطغاة. و إلا فكيف نفسر قيادة الأئمة عليهم السلام من محاولة استلامهم الحكم في الدولة الإسلامية؟ ولاشك أن سكوت بعض الأئمة عن هذا المطلب لم و لن يفسر بعدم اهتمامهم بهذه المسؤولية الشرعية، إنما كان ذلك نتيجة عدم توفر الإمكانات القتالية لمحاربتهم الحاكمين الغاصبين لمركزية السلطة. ولعل تسلم بعض المراجع العظام في تاريخ المرجعية الإمامية عبر تاريخها الطويل، وحتى هذا اليوم السلطة فيه دلالة واضحة على ضرورة ممارسة الحكم بالقدر المستطاع، حتى وان كانت مشاركة للحاكم باسم الإسلام في البلاد الإسلامية. فان من أبرز مهام المرجع الديني هو توجيه الإنسان، وبناء كيانه المجتمعي، وهذه هي الوظيفة الطبيعية للقيادة المرجعية.

الإسلام عقيدة وحياة:

والإسلام عقيدة وحياة، فإذا حاو لنا عزل الإنسان عن أحد جانبيه - العقيدة والحياة - نكون فصلناه عن مجتمعه، وأفرغناه من محتواه الأساس الذي خلق من أجله، وهو خليفة الله في الأرض يحكمها، ويعمرها،

ويقيم فيها شرعة الله التي حمله مسؤولية تبليغها هذا الكائن البشري. قال عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30].

ولاشك في أن الإنسان هو الأداة الممكنة لصياغة حضارته، وهذه الحضارة إذا لم تكن مبنية على عقيدة قويمة، فهي لا تمثل واقعا معاشا يمثل مرحلة تاريخية في مسيرة الإنسان الحياتية. فالإسلام قدم للإنسان قيما حضارية، ليعش في ظلها كريما، لا يمزقه صراع بين مثله العليا، وبين واقعه الحي، ومن أجل أن يصنع تاريخه بيده، كانت تلكم القيم الفكرية، سواء في القران، أو السنة النبوية نماذج حية على إرشاد الإنسان المسلم في صياغة حضارته الإسلامية.

ضرورة كون المرجعية بمستوى المرحلة:

ومن هنا نشير إلى ضرورة كون المرجعية الدينية، وهي القيادة المركزية، أن تكون بالمستوى المطلوب لقيادة الأمة، وتهيئة أدوات التوجيه التربوي الثقافي لها، لتملك قابلية العطاء، المقتضي للتفاعل مع تطور الفكر، ومن أجل بناء كيانه المجتمعي، والوصول به إلى تحقيق الهدف الأسمى، وهو ضمان حرية الإنسان، وسعادته، وكرامته في الحياة، كما يريده الإسلام له. خاصة وان التحديات الممنهجة تستهدف الإسلام فكرا وسلوكا، وقد غزت هذه التحديات المجتمع الإسلامي، وتغلغلت بأفكار بعض فصائله، وأوساطه، واستطاعت أن تلجه بواسطة بعض المرتزقة من ضعفاء النفوس من أمتنا، بطرح تساؤلات، واستفهامات واستنكارات لبعض قضايانا الهامة الأساسية، التي لها صلتها الكبيرة بمصير الأمة وعقيدتها، وأخذت هذه الأصوات - ويا للأسف تنخر وبصورة خطرة في أفكار سواد الناس السذج بما يهدد مستقبلهم الإيماني.

إن مسؤولية المرجعية العليا اليوم اختلفت عن أمسها الماضي، وإن متطلبات كثيرة تواجه المرجع الأعلى للأمة، وعلى كل المستويات الفكرية.

والاجتماعية، ولابد أن يتعامل معها باهتمام بالغ وبما يتناسب مع حجم القضية. وأن تكون المقاومة المقتضية بمستوى الحدث، لكي يمكن تلافي الانهيار والخسارة التي ستحل بمجتمعنا عاجلاً او آجلاً، إذا لم نول هذا الخطر الزاحف الاهتمام والبعد العلمي.

عناصر التحرك لعملية تفعيل المرجعية:

ولعل من أهم عوامل امتلاك عناصر التحرك نحو عملية التغير، أو المجابهة من أجل إيقاف التحرك المشبوه هو رصيد التفاعل في تهيئة وسائل القوة لهذا الأمر. ولا ننكر أن واجهة المرجعية في تاريخها القريب ملكت قابلية لمواكبة واعية لحركة التطور العام في الواقع الإنساني. غير أن مجريات الأحداث التاريخية لم تكشف تحركا يكشف عن تقدم واضح في هذا الصدد. وقد تكون الظروف الموضوعية التي نشأت ضمن هذه الفترة الأخيرة من التطور السياسي الإرهابي في مركز المرجعية العليا، كالنجف الأشرف - مثلا - قد قلصت نفوذ التطور المطلوب لحركة التغيير الإصلاحي. لكن هذا لا يمنع من وضع بعض النقاط التي تنسجم ومسؤولية المرجعية، ومن أهمها:

أولاً: تحول المرجعية إلى مؤسسة عامة، تنتقل بكل كادرها إلى الأعلم الأشهر بعد وفاة المرجع السابق، في أي مكان كان، دون أن تفقد خصائصها الذاتية.

ثانياً: أن تكون لجان متعددة للمرجعية، تتولى إعداد الأفكار السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والاجتماعية، وما يدخل في مهام المرجعية، وعرضها على المرجع لمواكبة الأحداث وقضايا الساعة.

ثالثاً: اختيار لجان استشارية من ذوي الكفاءات والاختصاص من أجل بلورة آراء المرجع بما ينسجم وتطلعات الأمة إلى آرائه البناءة.

رابعا: تهيئة معهد ثقافي يدرس فيه تاريخ العالم الإسلامي، وبعض اللغات الأجنبية لوكلاء المرجع من أجل إعدادهم عالميا.

وأنا على يقين من أن الدفاع عن المرجعية العليا لن يقنع الجماهير المؤمنة بمبدأ المرجعية، وسلطاتها الكبرى في توجيه الإنسان، وبناء كيانه المجتمعي، مادام الوضع باقيا على حاله لا ينسجم والتطور الزمني.

وقد تكون نتائج هذه العفوية في تشتت مركز المرجعية، أن تنتهي إلى كيانات مرجعية متعددة هنا وهناك، تعمل كل منها على وفق منهجة خاصة مستوحاة من تطلعات المجتهد وتصوراته الفكرية حتى يمن الله على هذه الأمة بجمعها على مركز موحد ينهض بها حسب انطلاقة الزمن المتطور.

تنظيم المرجعية في عهد السيد بحر العلوم الكبير:

استمرت النجف معهدا علميا، ومركز ا للمرجعية الدينية للشيعة، رغم أنها تنقلت في ظروف خاصة بين بلدان متعددة في العراق مثل: كربلاء، والحلة، والكاظمية، وسامراء، كما انتقلت إلى خارج العراق كإيران، ولكن بقيت نقطة القطب يغيب عنها مركز المرجعية كلما تحكمت بها ظروف غير طبيعية ألحت عليها بالانتقال، وإذا انقشع الغمام عنها عادت لها حوزتها، وتمركزت بها جامعتها الأصلية.

إن المعالم المميزة للفكر المرجعي الحديث في العراق بدأت من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، والذي حفل بميزة من حيث التنظيم في إدارة المرجعية قد يعتبر طفرة نوعية في تاريخ المرجعية. وهو التنظيم الإداري الذي مثل المبادرة الرائعة على مستوى مرجعية الإمام المرحوم السيد محمد مهدي الطباطبائي الملقب بـ(بحر العلوم) المتوفى عام 1212هـ/ 1797م حيث نظم إدارة مرجعيته على الوجه التالي:

1 - ارجع أمور الفتوى والتقليد إلى الفقيه الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

2 - وإمامة الجماعة وشؤون المحراب إلى المقدس الشيخ حسين نجف.

3 - وللقضايا والخصومات والقضاء إلى الشيخ شريف محي الدين.

4 - واضطلع هو بأعباء التدريس، وإدارة شؤون الأمة.

ولقد دللت هذه المبادرة الرائعة من السيد بحر العلوم لتنظيم أمور المرجعية وشؤون قيادتها على وعي كبير في الذهنية القيادية الدينية، والتي طبعت ذلك العصر بطابع تنظيمي يختلف عن العصور السابقة من حيث النضج والوعي.

المرجعية والأحداث الدينية والوطنية:

لقد ساهمت المرجعية الدينية في الأحداث الدينية والوطنية على مستوى القيادة مساهمة فعالة، مما كشف عن فكر سياسي لديها يؤهلها إلى تحمل مسؤولية قيادة المجتمع، التي تعتبر جزء من مهامها الأساسية، إذ من الصعب فصل الدين عن السياسة، والمرجعية الدينية - كما نفهمها - قيادة الأمة دينا ودنيا، وقد عشنا - في حدود مسيرتنا الحياتية الملازمة للمرجعية الدينية - أفكارها ومواقفها السياسية ومحاولاتها العديدة للدفاع عن الوطن والأمة ومصالحها العامة، والاهتمام بنهضتها على مستوى الساحة الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط خاصة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر الآتي:

أولاً: قضايا الوطن:

1 - الدفاع عن الوطن

الدفاع عن الوطن من الأولويات الهامة للمرجعية الدينية الشيعية في العراق، وتاريخ العراق الحديث يؤكد هذا الموقف المشرف الذي عبر عن عمق المسؤولية التي تحملتها المرجعية الدينية الشيعية للدفاع عن الوطن،

وحين نرجع إلى الفترة التي حددناها من القرن الثالث عشر إلى نهاية هذا القرن نجد تاريخها حافلا بهذا المسؤوليات، فعلى سبيل المثال لا الحصر نشير إلى الآتي:

أ - تشكيل طلائع مسلحة لحماية النجف الأشرف من الغزو الإرهابي.

تقول بعض المصادر: "لما بلغ أهالي النجف نبأ توجه الجيش الوهابي الغازي عام1218هـ، أعد المرحوم الزعيم الديني الشيخ جعفر كاشف الغطاء وبمساعدة بعض علماء البلد قوة جماهيرية هيأ لها السلاح وما يحتاج إليه من عدة الدفاع عن الأرض، ودفع الغزاة عنه، وفعلا تمكنت المليشيا الشيعية بقيادة الشيخ جعفر كاشف الغطاء وثلة من العلماء الأعلام من دحر القوة الغازية"[1].

ب - محاربة الغزو الإنكليزي للعراق عام 1915:

لقد سجل المؤرخون موقف علماء الشيعة، ومراجع الشريعة العظام في الدفاع عن الدولة العثمانية، رغم قناعتهم بطائفيتها الحمقاء، وعنجهيتها القومية، لكنهم أمام الغازي الأجنبي كان مبدأ (الوجود الناقص خير من العدم) فأعلنوا الجهاد المقدس، وتوجهت الجموع الزاحفة إلى البصرة للدفاع عن الوطن، وشاركت القيادة المرجعية في المسيرة، وكان في طليعتهم العلماء من النجف: السيد محمد سعيد الحبوبي، وشيخ الشريعة الأصفهاني، والسيد محسن الحكيم، ومن الكاظمية السيد محمد مهدي الحيدري، والشيخ مهدي الخالصي، ومن كربلاء بعض علمائها منهم الشيخ محمد رضا نجل الإمام المجاهد ميرزا محمد تقي الشيرازي، وكان لهم موقف مشرف في الدفاع عن الوطن[2].

---

(1) جعفر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها: 1/ 326.

(2) لزيادة الاطلاع على احداث النجف في سيرة الثورة يراجع د. علي الوردي - لمحات الاجتماعية من تاريخ العراق الحديث: 3/ القسم الاول: 304-340/ طبعة قم / ايران مطبعة امير 1413

ج - ثورة النجف ضد الاحتلال البريطاني عام 1918:

تقول بعض المصادر: "تعتبر النجف أول من ثار على الأتراك، وأول من ثار على الإنكليز، ليس في العراق فحسب وإنما في جميع أقطار الشرق الأوسط، بعد الحرب العالمية الأولى.

ففي عام 1333هـ/ 1915م، ثارت على الأتراك العثمانيين وطردتهم إلى غير رجعة من المدينة.

وفي عام 1336هـ/ 1915م، ثارت على الإنكليز وطردتهم من النجف، ولكن انتصار الحلفاء في الحرب العامة مكنهم من التغلب عليها والعودة إليها.

لقد وجد الفراتيون عامة، والنجفيون خاصة أنفسهم بين نارين: بين نار الأتراك وطائفيتهم المقيتة وبين نار الإنكليز وحقدهم على الشيعة بقيادة علمائهم ومراجعهم الذين لم يقفوا إلى جانبهم حين الاحتلال، وعند تمكنهم من الاحتلال حاصروا النجف، وفي مارس 1918 ثارت النجف بعد أن ضاقت ذرعاً من الحصار، فهاجمت الثكنة الإنكليزية وقتلت الكابتن مارشال مما أدى إلى اهتمام الإدارة البريطانية إن تبذل جهدا في اقتحام النجف واعتقال الثوار وفي مقدمتهم الزعيمان الدينيان: السيد محمد علي بحر العلوم، والشيخ محمد جواد الجزائري قادة جمعية النهضة الإسلامية وإعدام عدد من أعضائها، وقد تأسست هذه الجمعية من أجل محاربة المحتلين"[1].

كما حكم على الزعيمين: بحر العلوم، والجزائري بالإعدام، لكن تدخل الشيخ خزعل أمير المحمرة لدى الإنكليز أبدل الحكم إلى النفي، والسجن خارج العراق، ومن السجن الخارجي أرسل المرحوم الشيخ محمد جواد الجزائري قصيدته إلى بعض إخوانه من أعضاء جمعية النهضة

(1) راجع لتفصيل ثورة النجف ابعادها ونتائجها حسن الأسدي - ثورة النجف على الأنكليز أو شرارة ثورة العشرين: 207.

الإسلامية يقول فيها:

وجـحفل أعدائنا الإنكليز   يملأ سهل الفلا والحزونا
يهاجم شعب بني يعرب   ليشفي أحقاده والضغونا
فصُلنَّا كرامة شعب العراق   وكنا لعلياه حصنا مصونا

إلى أن يقول:

وأرجلنا طوع قيد الحديد   تسيل دما يستفز الرصينا
وما ضامنا ثقل ذاك الحديد   ونحن بحسن الثنا ظافرونا

د - ثورة العشرين بقيادة الزعيم الديني الشيرازي:

إن ثورة العشرين في مضمارها الوطني أكدت على التلاحم الجماهيري الديني والعشائري (القبائل) مما أكد على تفاعل قوي شد هذه الجبهة ضد الاستعمار، وتصميم صادق على محاربة العدو مهما كانت قوته، وكانت بقيادة المرجع الديني ميرزا محمد تقي الشيرازي الذي أفتى بأن: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز من قبول مطاليبهم"[(1)].

وطالب بتشكيل حكم وطني عربي إسلامي دستوري متحرر من الاستعمار في العراق، وأصبحت هذه الثورة رمز البطولة الوطنية العراقية في سبيل الدفاع عن الأمة والأرض من أجل غزو أجنبي محتل.

هـ - الوقوف ضد معاهدة الانتداب:

بعد ثورة العشرين كان طلب مراجع الدين وزعماء الثورة تأسيس دولة عربية وحكومة عربية، وحاولت السياسة البريطانية أن تتلاعب بهذه الإرادة

---

(1) حسن العلوي - الشيعة والدولة القومية في العراق 1914-1990: ص97.

العراقية، عن طريق تمرير معاهدة انتداب تبقي العراق تحت الحكم البريطاني من خلال وزارة عبد المحسن السعدون، وإعطائها الشرعية من قبل مجلس تأسيسي ملفق يؤكد هذا المطلب الاستعماري فدعت الحكومة إلى انتخاب المجلس المطلوب عام 1922.

وتنبه المجتهد الأكبر الشيخ مهدي الخالصي إلى هذه اللعبة الخطيرة فأصدر فتواه الشهيرة بتحريم المشاركة في الانتخابات، وجاء فيها أن: "من دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حاد الله ورسوله، ومن يحاد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها، ذلك الخزي العظيم".

وأيد هذه الفتوى مرجعان دينيان من مراجع الدين في النجف الأشرف، هما: السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، والشيخ ميرزا محمد حسين الغروي النائيني، وقد كان لهذا الموقف السلبي من الانتخابات أثرُه الكبير في إحجام الجماهير عن المشاركة، وكان رد الفعل البريطاني نفي العلماء المعارضين لسياستهم إلى خارج العراق.

و - المرجعية وحركة مايس عام 1941:

لم تستقر الأمور في العراق من العشرينات إلى بداية الأربعينات، فقد كانت الهزات الوطنية تبدو على الساحة العراقية بين فترة وأخرى، ولكن دون تفجير مهم يثير تغييرا في وضع الحكم في العراق، لكن حركة مايس 1941 بقيادة رشيد عالي الكيلاني، وضباط عسكريين ضد الأمير عبد الإله الوصي على العرش الملكي حينذاك هزت الحكم، وحاول عبد الإله أن يستميل علماء النجف ومراجع الدين فيها بأية وسيلة كانت في عدم تأييد الحركة المضادة فلم يوفق، بل أصدر العلماء السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ عبد الكريم الجزائري فتاوى بتأييد الحركة الانقلابية حفاظا على استقلال البلاد، وإنهاء التصرف الأجنبي[1].

(1) حسن العلوي - المصدر السابق: 189-190

ز - موقف السيد الحكيم من الأنظمة الدكتاتورية:

وحين وصل عهد المرجعية إلى الإمام السيد محسن الحكيم في الخمسينات كان الزخم الثوري قد انتهى إلى انفجار ثورة تموز، ثم إلى انقلاب البعثيين في عام 1963، ثم إلى حكم العارفين عبد السلام، وعبد الرحمن، ثم وصل الحكم الفئوي العفلقي إلى السلطة في أواخر الستينات، وحتى وفاة الإمام الحكيم في 2 مايس 1970 عاش أحداث هذه الفترة سواء في العهد الملكي حين رفض مقابلة الملك فيصل الثاني عند زيارته النجف، على أساس أن العهد لم يستجب لمطالب الشعب العادلة التي تدور حول رفع مستواه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، ولم تهدأ مطالبته الجادة كذلك في العهد الجمهوري، وفي كل أدواره، كانت مواقفه معروفة ومشهورة، وخاصة فيما يتعلق بإنهاء العهد الاستثنائي العسكري الذي يفرض تعطيل الدستور، ومؤسسات الحكم المدني.

وقد بلَّغ الحاكمين تلكم المطالب بواسطة الوفود التي كان يرسلها، أو المذكرات التي يقدمها ممثلوه في الاحتفالات والمهرجانات، والتي اتخذ منها منبرا لإيصال صوت الأمة المظلومة إلى المسؤولين الذين تسلقوا السلطة بطريق غير مشروع، حكام الاستبداد والدكتاتورية المنحرفة، وأساطين التخلف السياسي، وكانت هناك محاولات جادة من قبل المرجعية لأسلمة بعض القوانين كقانون الأحوال الشخصية وغيره.

ح - الشهيد الصدر والوعي الجهادي:

آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر كان دوره في السبعينات من هذا القرن حافلا بالعمل الجاد في الدفاع عن مصالح الأمة في العراق بما يؤكد مطالبته بإنهاء العهد الدكتاتوري، والعودة إلى واقع الأمة الأصيل، ولعل من ابرز مواقفه تأييده الإمام الخميني في ثورته الجبارة، وتحريمه الانتماء إلى حزب البعث الحاكم، ومجابهته السلطة الحاكمة وتهديدها، ودفع الأمة إلى الكفاح المسلح للتخلص من النظام، هذه المواقف المهددة

لكيان النظام دفعت السلطة العفلقية أن تسارع في جريمتها النكراء بتصفيته جسديا هو وشقيقته العلوية بنت الهدى في 5/ 4/ 1980.

ط - الإمام الخوئي والانتفاضة الشعبانية 1991:

لم يكن موقف المرجعية الدينية في النجف الأشرف المتمثل بآية الله العظمى الإمام الراحل السيد أبو القاسم الخوئي في الانتفاضة الشعبانية خفيا على أحد، فقد شجب دكتاتورية النظام الصدامي ووقف إلى جانب الشعب الثائر، وشكل قيادة دينية ومدنية لإدارة الثورة الشعبية، ولكن القيادة الأمريكية أعطت الضوء الأخضر للنظام باستعمال الطائرات السمتية لقصف الثوار فنجحت قوى النظام باستعادة مراكزها وإجهاض الثورة، ولازالت لجنة المرجعية الدينية، والتي ضمت عددا من العلماء لا يعرف عن أمرهم و مصيرهم شيء، رغم محاولات البحث والاستقصاء عنهم.

2 - موقف المراجع تجاه القضايا المتعلقة بالأقطار الإسلامية والعربية:

إن موقف المرجعية الدينية لم يقتصر شأنها القيادي على العراق فحسب، إنما تعداه إلى خارج العراق سواء في الأقطار العربية أو الإسلامية، وكان لها في إحداثها نصيب كبير، وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر أشير إلى:

أ - ثورة التنباك في إيران:

من أهم القضايا الساخنة التي تعرضت لها مرجعية الإمام المجدد السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي - المتوفى عام1312هـ -1895م-وكان حينذاك قد اتخذ من مدينة "سامراء" في العراق مركزا لمرجعيته، للتقريب بين المسلمين الشيعة والسنة.

وكانت قد عقدت إيران اتفاقية عام1890مع شركة إنكليزية باحتكار (التنباك - التبغ الإيراني) أثَّر هذا الامتياز للشركة الأجنبية على الحركة

التجارية الداخلية، والسوق المحلية، وكلما حاول الأهالي ثني الشاه عن عقد هذه الاتفاقية لم يجد ذلك نفعا، وأصر على إبرامها وتنفيذها، ونصت الاتفاقية على أن تتولى الشركة المذكورة زراعة التبغ في إيران وتصديره وبيعه لمدة خمسين عاما بدءاً من سنة1890، كما حدث في الهند. وعلى أثرها اندلعت انتفاضة شعبية في ذلك العام بقيادة العلماء ومراجع الدين في إيران من أجل إلغاء الاتفاقية، وضد الاحتكار الأجنبي، وطلب علماء إيران دعم الإمام الميرزا حسن الشيرازي - رحمه الله - في مطلبهم العادل، فأصدر فتواه المشهورة:

"استعمال التنباك والتتن حرام بأي نحو كان، ومن استعمله كمن حارب الإمام المهدي عجل الله فرجه".

كانت هذه الفتوى بمثابة قنبلة في المجتمع الإيراني، أدت إلى أن يترك الناس التدخين، ويكسروا "النارجيلات" بما فيهم موظفو بلاط الشاه، ونساؤه مما اضطر الشاه إلى إلغاء الاتفاقية.

ب - ثورة المشروطة في إيران:

(المشروطة) هي حركة المطالبة بالدستور، وسميت بهذا الاسم لأن القائمين بها اعتبروا مواد الدستور بمثابة (الشروط) التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيَّته، وهي فكرة مستمدة من نظرية (العقد الاجتماعي) التي شاعت في أوربا بعد قيام الثورة الفرنسية، ومنها جاءت إلى تركيا وإيران -كما يرى الدكتور علي الوردي-[1]، وكانت بداية هذه الحركة في إيران عام 1905وتفاقمت عام1906، حيث قام الشاه محمد علي ابن مظفر الدين بمحاولة للقضاء على الحركة على أساس أن الدستور الإيراني الذي كان يحكم به البلاد مخالف للشريعة الإسلامية، وقد أيد موقف الشاه بعض علماء الدين في إيران.

---

(1) الوردي -لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: 3/ 103.

وامتد هذا الصراع إلى العلماء في العراق عامة، والنجف خاصة، حيث استفتي بعض مراجع الدين في النجف، فأفتى عدد منهم بالالتزام بالدستور، وفي مقدمتهم الشيخ محمد كاظم الخراساني، معتبرين أن قوانين المجلس المنتخب بصورة سليمة مقدسة محترمة وهي فرض على المسلمين، ولم يقتصر الهرج في هذا الموضوع على النجف بل شمل كربلاء والكاظمية، وكتب المرحوم المرجع الديني الميرزا حسين النائني كتابا اسمه "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" منتصرا للمشروطة، وهو بحث قيم يدل على وعي الشيخ النائني السياسي، ونصرته للديمقراطية والدستورية.

ومن النوادر التي تروى في هذه المعركة وانتقالها إلى الجانب الأدبي، أن أحد الأعلاميين كتب بيتين من الشعر في ذم الاستبداديين، وهما:

المستبدون قد تاهوا بغيِّهُمُ

لم يجعل الله في أبصارهم نورا

لو كان يمكنهم أن ينسخوا

نسخوا من الكتاب عنادا آية الشورى

فردّ عليه من أنصار المستبدة بتشطير البيتين:

(المستبدون قد تاهوا بغيهم)

بذاك قد قال قوم وافتروا زورا

صمٌّ وبكمٌ فهم لا يعقلون كما

(لم يجعل الله في أبصارهم نورا)

(لو كان يمكنهم أن ينسخوا نسخوا)

ما كان في لوحة المحفوظ مسطورا

مالوا لشورى الأولى قد حرَّفوا علنا

(من الكتاب عنادا آية الشورى)[1]

ج - الجهاد المقدس ضد الغزو الروسي:

في عام 1911حصل اختلاف حول بعض الأمور المالية بين روسيا و الحكومة الإيرانية، فزحفت على أثره القوات الروسية إلى مدينة تبريز فاحتلتها، ثم شنقت بعض رجال الدين فيها من أجل إضعاف الحماس المتأجج عند المواطنين الإيرانيين ضد الغزو، وحين وصل الخبر إلى العراق تصدى المرحوم الشيخ محمد كاظم الخراساني في النجف إلى التعبئة العامة للجهاد، ولكن الموت لم يمهل الشيخ الخراساني، بل وافاه الأجل في12كانون الأول 1911، وقد صدم الشعب المتوثب للجهاد بذلك، فما كان من علماء الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية إلا أن يتهيَّأوا للتعبئة العامة، فكان من النجف الشيخ محمد حسين شيخ الشريعة، ومن كربلاء السيد محمد الطباطبائي المعروف بالمجاهد، ومن الكاظمية السيد إسماعيل الصدر والشيخ الخالصي. وبدأوا بالاستعداد والتهيئة، لكن الظروف السياسية لم تساعد على تحرك المجاهدين العراقيين إلى إيران للدفاع عن الأمة المسلمة خاصة بعد أن قصف الجيش الروسي مشهد الإمام الرضا عليه السلام.

3 - آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني وحركة الدكتور مصدَّق:

لقد أيد المرحوم آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني، حركة الدكتور محمد مصدق رئيس وزراء إيران في إلغاء قانون شركة النفط في إيران عام 1952، وتشريع قانون وطني يقضي بتأميم الشركة لصالح الإيرانيين.

كما كان لموقف بقية العلماء الأعلام في إيران المساند لذلك أثره

---

(1) الوردي - المصدر السابق: 3/ 118.

الكبير في صدقية الحركة، ولكن شركات النفط العالمية أجهضت الثورة، وأعادت الشاه محمد رضا بهلوي للحكم، بعد هربه من إيران في أبان الحركة، ولجوئه إلى العراق من أمر ألقاء القبض عليه الصادر من قبل الدكتور مصدق.

4 - الثورة الإسلامية عام 1979:

قاد الإمام الراحل آية الله العظمى السيد روح الله الخميني (رضوان الله عليه) في عام 1979ثورة إسلامية في إيران أنهت الحكم الملكي البهلوي المتمثل - حينذاك - بالشاه محمد رضا البهلوي، وأسس الجمهورية الإسلامية فيها، واستمرت الثورة الرائدة التي قلبت الموازين الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط، وهددت المصالح الامبرالية العالمية، حتى هذا اليوم تصارع العواصف الهوجاء، فلم يلوي ذراعها تيار الإسقاط رغم كل المؤامرات المشبوهة، وقاومت وستقاوم كل أعدائها، وتبقى معلما هاما في تاريخ القيادة الدينية والمرجعية في هذا العصر.

5 - موقف المرجعية من القضايا العربية:

لقد شارك العلماء الأعلام في قضايا الوطن العربي كقضية تحرير المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي، وتحرير الجزائر، والقضية الفلسطينية، و موقف المرجع الديني السيد محسن الحكيم من استقباله طلائع فتح في بداية تشكيلها وتشجيعهم البطولي في تحمل المسؤولية النضالية معروف لدى الجميع.

كما كان لجمعيات النجف الأشرف العلمية والأدبية، وخاصة جمعية الرابطة الأدبية، ومنتدى النشر من اسهامات رائعة فكرية وادبية في القضايا المصيرية، فقد أصدرتُ في الأربعينات ديوانا شعريا باسم (الفلسطينيات)، وفي الخمسينات (الجزائر المجاهدة)، و(نضال المغرب العربي) وغيرها من الكتب. ولعلي أتمكن من بحث هذا الموضوع بصورة أوسع في المستقبل.

6 - الجهاد ضد إطاليا لغزوها ليبيا:

في 30 أيلول عام 1911وصل خبر بهجوم ايطاليا على طرابلس الغرب (ليبيا) إلى بغداد، فهب الشعب العراقي لنصرتها، وأصدر علماء الدين الشيعة منهم والسنة فتاواهم في بذل النفس والنفيس لنصرة الشعب المسلم، وكان منهم السيد كاظم الطباطبائي اليزدي من أبرز علماء النجف ومراجعها حينذاك.

7 - المرجعية وأسلمة القوانين:

لم تقتصر مسؤوليات المرجعية ومهامها على الأمور العبادية كما يرى البعض، إنما هي مركز القمة لهرم الإشراف على سير تطبيق الدستور والقوانين، ومراقبة السلطة التنفيذية ومناقشتها في الدولة الإسلامية التي تتولى مهام إدارة الأمة، وتبلور ذلك بوضوح في القرن الثالث عشر الهجري، فقد كان دور المرجع الفقيه في الشؤون السياسية واضحا، إضافة لمسؤوليته الدينية إلى درجة كبيرة، سواء كان ذلك في العراق أم في إيران - كما أشرنا.

إن المرجعية الدينية وعلى طول تاريخها يهمها أسلمة القوانين المشرعة للبلد، ولو رجعنا إلى الوراء قليلا، ولاحظنا ما أشرنا إليه من موقف المرجعية الدينية في العراق بالنسبة إلى تأسيس المجلس الوطني العراقي حينذاك، والذي يمثل واقع البلد الديني والاجتماعي، وملاحظتها بوادر انحراف المسؤولين والحكام، وهم في بداية الشوط، والمجلس التأسيسي بعد لم ينتخب لكي يضع القوانين الاشتراعية التي تقتضيها مسيرة الدولة المقبلة للعراق المسلم، فأفتى علماء الدين والمراجع العظام بتحريم المشاركة في انتخاب المجلس التأسيسي الذي ظهرت تأثيرات الإنكليز عليه، والتي أدت إلى تسفير بعض العلماء الذين شجبوا علمنة القوانين من العراق[1].

---

(1) لزيادة الاطلاع راجع د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - القسم الأول: 6/ 201 ومابعدها، طبع بغداد 1976.

وهكذا برزت مؤشرات المعارضة الدينية وقادتها العلماء المراجع الدينيين في الإصرار على المسؤولين بضرورة اسلمة القوانين، واستمر هذا الموقف المعارض منتقلا في المرجعية الدينية عبر علماء مجاهدين أصروا على أن تكون القوانين المشرعة في العراق نابعة من صميم واقعهم الديني، حتى رست المرجعية العامة إلى الإمام الراحل آية الله العظمى السيد محسن الحكيم -رضوان الله عليه- في بداية الخمسينات من القرن الماضي.

وللحق أن مرجعية الإمام السيد الحكيم يمكن أن تكون منعطفا هاما في تاريخ المرجعية الشيعية، وتحركها الديني والسياسي في العراق، حيث توافرت فيه مواصفات أساسية ساعدته على اتساع آفاق زعامته الدينية، لأنه شخصية عربية، ومن أسرة عريقة في العراق، وممن شارك في ثورة العشرين مجاهداً في ساحة الحرب ضد الإنكليز. فجاءت مواجهاته للأنظمة الحاكمة في العراق -تؤكد استمرار العمل باسلمة القوانين- فكان لها وزنها السياسي، وحسابها الاجتماعي، خاصة في الخمسينات حين اصطدم مع النظام الحاكم في بغداد عام 1969وجها لوجه، كان من الواضح استحالة التلاقي بين القيادتين -المرجعية، والدولة- لمصلحة الأمة والوطن، نظرا لكون السلطة تحاول الابتعاد عن الدين أولاً، وموقفها الطائفي المقيت الحاقد تجاه الأمة والوطن ثانياً. ولم يقتصر ذلك الخط المرسوم خارجيا في أثره على الإمام الحكيم رضوان الله عليه، إنما استمر يحصد الواجهات الإسلامية، وكيان مرجعيتها الرائدة المتمثلة حينها بآية الله العظمى المرجع الديني الأعلى السيد الخوئي، والشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر، وغير هما من المراجع في النجف - قدس الله سرهم-، حيث لم يهادنوا على مبدأ التغاضي عن المبادئ والقيم، التي عمد النظام الحاكم في عهد البكر. ومن بعده صدام إلى محاولات الاجتثاث والإبادة للأمة وتراثها، والوطن وثرواته، حسب الخطة الأجنبية المرسومة لهم.

من العرض الموجز لحوادث هذا القرن ومسؤولية المرجعية الدينية

نرى أن اسلمة القوانين كانت من اولويات عمل المرجعية الواعية، خاصة أن العراق بلد مسلم منذ بداية شروق الإسلام، ومرت عليه ادوار مختلفة فيها الحلو والمر، لكنه لم يخضع في أي عهد من عهوده لعلمنة الحكم، وسطوة السلطة، كما لم يشبه ما يعيشه اليوم من اضطهاد وعسف، غير أنه سرعان ما باد وزال إلى مزبلة التاريخ، وبقي العراق الشريف نبع الحضارات، ومنطلق رسالة التوحيد يقارع الظلم، ويجابه الدكتاتورية بكل امكاناته وطاقاته، مرفوع الرأس، موفور الكرامة.

الخلاصة

اخلص من هذا العرض السريع لموقف المرجعية الدينية عبر مسيرتها الطويلة أنها تميزت بمعالم سياسية تهدف إلى:

1 - محاربة الدكتاتورية والاستبداد، والأنظمة الفاسدة التي تحاول حكم الأمة بالبطش والقتل والإرهاب.

2 - وأنها لم تتخل في يوم من الأيام عن مسؤوليتها الأساسية، وهي صيانة الأمة والوطن من الانحراف والتخلف.

3 - كما وأنها لم تقصر مسؤوليتها على بلد ما، إنما شملت الأقطار الإسلامية والعربية،، وكان لها في أحداثها نصيب كبير.

4 - أن المرجع الديني حتى وإن كان غير عربي يتأثر بالواقع العربي حينما يكون في النجف، كما أشرنا إلى موقف العلماء الأعلام منهم السيد محمد حسن الشيرازي، وميرزا محمد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الاصفهاني، والسيد أبو الحسن الاصفهاني، وميرزا حسين النائني، وغيرهم ممن تأثروا بالقضايا المصيرية التي تهم الأمة، وكمثل على ذلك موقف الإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين العراقية - رغم كونه إيرانيا- لكنه حين تصدى للمرجعية في العراق،

والثورة عراقية عاش واقعها الاجتماعي فطالب بحكم عربي وحكومة عربية للعراق.

5 - رعاية المرجعية الدينية في النجف خاصة للحركة الإسلامية، وتبلورت هذه الظاهرة بشكل واضح في مرجعية الإمامين السيد الحكيم والسيد الشهيد الصدر.

وإننا ننتظر اليوم من أبناء العراق الغيارى المجاهدين - من أجل عقيدتهم ووطنهم، بقيادة علمائه المخلصين المجاهدين، وبحول الله وقوته، أن يحققوا النصر المؤزر للأمة المنكوبة والوطن المرهق من نظام فقد كل القيم الإسلامية، والمعايير الإنسانية، ويعيدوا مجده الزاهر، وتراثه الأصيل، وليس ذلك على الله بعسير.

التطور التاريخي للمرجعية الشيعية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

حين نتحدث عن التطور التاريخي للمرجعية الشيعية، فلا بد أن نتعرض ولو بشكل مجمل -كمدخل للبحث- عن الإمامة والسياسة بداية من عهد الإمام علي عليه السلام إلى عهد الغيبة الكبرى عام (329هـ/ 941م) ومعناه أنها رافقت كل العهد الأموي، وقسما مهما من العهد العباسي، وفيها نرى:

أولاً: الإمامة والسياسة..

الارتباط بالتراث سمة بارزة في الفكر الديني، بل يتعامل معه على أساس أنه مطلق ومعصوم، ويشكل مصدراً لتشريعاته، ومرجعاً لصياغة مقولاته.

وحسب نظرية الإمامية الاثني عشرية فإن سيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام -قولا وفعلا- تعتبر من مصادر التشريع الإسلامي، وامتدادا للسنة النبوية الكريمة، وتكون العصمة الصفة الجامعة بين النبوة والإمامة، ويصبح الوحي العلامة الفارقة بينهما.

وبموجب هذه النظرية تمكن الفكر الشيعي من التوفر على تراث مهم امتد إلى أكثر من قرنين من الزمن، علاوة على القرآن الكريم، والسنة

---

(1) ألقيت هذه المحاضرة في المؤتمر الدولي المنعقد في باريس بتاريخ 27-29/ 4/ 2009 الذي نظمته مؤسسة علوم الإنسان، ومركز الدراسات والأبحاث العالمية، ومعهد دراسة أنثروبولوجيا الحاضر، ومركز التحليل والمقاربة السوسيولوجي، ومركز الأبحاث العراقية، وبهذه المحاضرة أفتتح المؤتمر.

النبوية الشريفة مما جعله ذا رصيد فكري مميز عن بقية المذاهب والأديان.

وعندما نرصد ممارسة المعصوم، ونتتبع المواقف السياسية خلال فترة الأئمة الاثني عشر، والتي استمرت منذ عهد الخلافة بعهد النبي ﷺ، ومروراً بالعهد الأموي، وحتى الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عليه السلام في العهد العباسي نراها حلقات قد تبدو " متناقضة" من حيث سعة أفقها، وهامش تنوعها العريض، لكنها في المحصلة تضيق وتتسع بحسب المصلحة العامة الهادفة إلى صيانة الرسالة المحمدية (الإسلام)، ووحدة المسلمين، والدعوة إلى الإصلاح السياسي، والاجتماعي، والوقوف بوجه التيارات الهدَّامة، وحماية المسيرة الرسالية من كيد الأعداء، والمتربصين للإيقاع بأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتصفيتهم، ودعم الثورات في وجه الطغاة.

فبداية من موقف الإمام علي عليه السلام حين تصدى لاستلام الخلافة الراشدة، بعد عزلة دامت أكثر من عشرين سنة، وممارسة الحكم فترة خمس سنوات.

ثم من بعده موقف الإمام الحسن عليه السلام من السلطة، ومهادنة معاوية بن أبي سفيان، اضطراراً.

ثم ثورة الأمام الحسين عليه السلام وحركته الإصلاحية ضد السلطة الأموية برئاسة يزيد بن معاوية، وما وصلت إليه من مأساة مروعة في يوم العاشر من محرم سنة 60 هـ.

وعزوف الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن النشاط السياسي، وانشغاله بالبناء الأخلاقي والروحي للجماهير.

إلى تركيز الإمامين الباقرين عليهما السلام بالبناء العلمي لمدرسة آهل البيت، مع الاستمرار بالتأييد السري للثوار ضد السلطة الأموية، وحثهم على إسقاط النظام.

ودعوة الإمام موسى الكاظم عليه السلام لعدد محدود من أعوانه للمشاركة السياسية في أجواء السلطة العباسية.

إلى قبول الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد لحكومة المأمون العباسي، مع إصراره على عدم ممارسة السلطة.

إلى عهد الأئمة الثلاثة: الجواد والعسكريين عليهم السلام. الذي يشبه التطبيع مع السلطة، وكف النضال السلبي.

هذه الصورة التي رسمها الأئمة عليهم السلام في عهدهم قد تبدو متناقضة لأول وهلة حيث نراهم تارة في خضم النضال السياسي، وأخرى يتراءى للبعض زج مفهوم عزلة الدين عن السياسية لعمل الأئمة.

غير أننا لو دققنا الواقع لا يجد أتباع أهل البيت في هذه المواقف أي غضاضة، أو اختلاف، وإنما هو توزيع أدوار فيما بينهم تهدف إلى وحدة العمل من أجل حفظ الإسلام، وإبقاء حركة التشيع كمعلم سياسي يحمل لواء الإسلام في الأمة.

ثانياً: الإمامة النائبة والسياسة

في هذه المرحلة الطويلة التي تجاوزت أكثر من ألف عام، ابتدأت بالنواب الأربعة للإمام الحجة محمد بن الحسن عليه السلام وكانت فترة عسيرة للغاية تمر بها المرجعية الشيعية في تاريخها الطويل العريض، تكاد وعانت فيها الأمرين من العهود القاسية التي اجتاحتهم مما أدى الى تطور واضح في مسيرة المرجعية التاريخية، يمكن تصينفها إلى عدة محاور هامة في انعكاساتها في حياة الأمة من حيث ارتباطها الديني والاجتماعي والسياسي كما يتصوره المؤرخ المتابع للأحداث من خلال المسيرة التاريخية، ويمكن تصويرها في خمسة مشاهد جسدتها النقاط التالية، وحين نشير إلى أسماء فهي لا تتجاوز الأمثلة وليس الحصر، وبإيجاز هي:

المشهد الأول: التمحض العلمي

وقد يتبادر لأول وهلة أن هذا الدور هو تمحض من قبل المراجع لهذه الفترة الزمنية لتعضيد الحوزة العلمية، و استمراريتها بدون اتساع الأفق العملي للمرجعية الشيعية، والدخول في مسالك السياسة، ومن أهم مراجعها العظام

1 - الشيخ محمد بن محمد النعمان المعروف بالشيخ المفيد المتوفى عام (413هـ/ 1022م) [1].

2 - علي بن الحسين بن موسى المنتهي نسبه إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام المعروف بـ (السيد المرتضى) المتوفى عام (426هـ/ 1045م)[2].

3 - محمد بن الحسن الطوسي، المعروف بشيخ الطائفة، والمتوفى عام عام (460هـ/ 1067م)[3].

هولاء الأعلام الثلاثة مثلوا المرجعية الكبرى للشيعة الاثني عشرية في العراق، وحين ندرس مسيرتهم الحياتية نجدها كانت في واقعها مخصصة للعلم والفضيلة، بعيدة عن الدخول في الشأن السياسي إلا من خلال توجيهات وإرشادات عامة "للدولة البويهية" التي كانت تتعاطف معهم باعتبارهم في معزل عن الدخول في الخضم السياسي، رغم ما لهم من تأثير على الأمة لو كانوا يرون المشاركة في الشأن السياسي العام، ولعلهم

---

(1) وكان له الفضل في تنشيط الحركة العلمية في بغداد في عصر الدولة البويهية.

(2) تلميذ الشيخ المفيد، و زعيماً ومرجعاً للشيعة في بغداد من بعده.

(3) تلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى من بعده، تسنم المرجعية للشيعة بعد أستاذه السيد المرتضى، وكانت له مكانة كبيرة في بغداد، ولكن الأحداث الطائفية العنيفة التي تفجرت بعد احتلال طغرلبك السلجوقي في بغداد بدعوة من الخليفة العباسي، وشن حرب الإبادة على الشيعة، وأدت إلى نهب دار الشيخ الطوسي عام 448هـ وحرق مكتبته وكرسيه الخاصة لإلقاء محاضراته مما اضطرته إلى الانتقال إلى النجف الاشرف حيث أسس الحوزة العلمية وبقي فيها حتى وفاته.

اكتفوا بتعاطف البويهيين في الاهتمام "المبرقع" للشيعة في ذلك العصر.

وحين أزت العاصفة الهوجاء في بغداد كان الموقف الغاضب قد اجتاح حتى كيان المرجعية الشيعية، حيث اضطر الشيخ الطوسي وهو زعيم الأمة أن ينتقل بكيانه المرجعي إلى النجف البعيدة عن يد السلطة حينها ليعيد بناء الكيان الشيعي، وذلك سنة (449هـ).

ولعل ما يشابه هذا الموقف ما حدث في مرجعية الإمام الخوئي - قدس سره-[1] في أواخر القرن الماضي الميلادي، وفي عهد الدولة الدكتاتورية التي حاولت محو الكيان الشيعي في النجف الأشرف وحوزته العلمية، وكانت تلك الفترة التي عاشها الإمام الراحل السيد الخوئي، والمراجع الآخرون في عصره، والذين رافقوا سني الحرب العراقية الظالمة على الجمهورية الإيرانية الإسلامية، وغزو الجارة العربية "الكويت" سنة 1990 من قبل النظام نفسه من أقسى الأيام عليهم لما لاقوه من الضغوط الرهيبة التي مارسها النظام في محاولة لكسب تأييد المرجعية في الموقفين المشينين بين عام 1982م - إلى نهاية 1995م) فإن المرجعية -المتمثلة في الإمام الراحل السيد الخوئي- قد صمدت أمام المعانات الملفعة بالتهديد والوعيد التي وجهها لها صدام، لكنه لم يتحرك سلباً ضد نظام صدام، كما لم يصدر منه ما يؤيد الموقف الصدامي الدكتاتوري.

ولكن الإمام الخوئي بدافع الواجب الشرعي حرم التداول بما نهب من الكويت، يوم غزو جيش صدام، والتعامل به بأي صفة كانت، وأصر على إرجاعه لأصحابه، وهذا ما أغضب النظام فشدد عليه أكثر، وبمزيد من القسوة.

(1) السيد أبو القاسم بن السيد علي أكبر الموسوي الخوئي النجفي، ولد في مدينة " خوي" التابعة لآذربايجان سنة (1317هـ -1899م) وتوفي بالنجف سنة (1413هـ -1992م) وانتقلت المرجعية إليه بعد وفاة السيد محسن الحكيم عام (1970م) وتصدّى إلى قيادة الانتفاضة الشعبانية في النجف ضد النظام الصدامي عام (1991م)، وعانى من ظلم صدام واضطهاده حتى وفاته فقد منع تشييعه، وإقامة الفاتحة عليه.

لقد كان همه الكبير -رحمه الله- وإصراره على بقائه في النجف ودفاعه بما يمكنه الحفاظ على الحوزة العلمية في النجف من نقمة النظام وعسفه وبطشه، ولذا أصر على البقاء في النجف رغم إصرار المقربين منه حفاظا على حياته.

في تقديرنا السياسي أن هذا الموقف من السيد الخوئي حفظ للنجف وجودها ومركزيتها، وإلا كانت عرضة للتفتت، وانتقال المركز إلى مكان آخر.

المشهد الثاني: المرحلة الصفوية

عندما نتصفح تاريخ حقبة الصفويين نرى دولتهم من أهم الدول التي حكمت إيران بعد سقوط الدولة الساسانية، وأعادت لإيران وحدتها السياسية بعد ما يقرب من تسعة قرون، وجاء بفضلها إعلان التشيع الإمامي في تلك المنطقة مذهباً موحداً فيها[1].

لقد قامت الدولة الصفو ية في مطلع القرن العاشر الهجري (907هـ/ 1502م)، و تبنت المذهب الشيعي الإمامي رسمياً بعد أن كانت قبل ذلك تلتزم الطريقة الصوفية على مذهب الشافعية[2].

وإن تأسيس الدولة الصفوية كان على يد أحد أحفاد "الشاه إسماعيل" الذي اعتنق المذهب الشيعي[3].

وساهم بعض مراجع الفترة الصفوية بإعطاء الشرعية للحاكم الشيعي،

---

(1) جعفر المهاجر - الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي: 19 /طبع بيروت - دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع1989.

(2) د. كامل الشيبي - الصلة بين التصوف والتشيع: 2/ 355/ ط بيروت دار الاندلس1982.

(3) د. علي فياض - نظريات السلطة في الفكر السياسي الشيعي المعاصر: 130/ط بيروت إصدار مركز الحضارة للتنمية الإسلامي 2008.

عند مشاركتهم في المؤسسات الحكومية بصفة وأخرى، ولعل من أبرزهم:

1 - الشيخ علي بن الحسين بن عبد العال الكركي، والذي وُصف بالمحقق الكركي (870-940هـ) [1].

2 - محمد بن الحسن بن عبد الصمد، الحارثي الهمداني المعروف بالبهاء العاملي المولود في بعلبك (953-1030هـ/ 1547-1621م)[2]

3 - محمد باقر بن محمد تقي، المعروف بـ"المجلسي الثاني" الاصفهاني المولد والمدفن (1037-1111هـ/ 1627-1699م)[3].

هولاء الفقهاء الثلاثة، ومن سار في خطهم السياسي في ضوء مبدأ الفقيه السياسي، والالتزام بمبدأ "ولاية الفقيه" الخاصة، كان نتيجة للواجب الشرعي المفروض عليهم في التصدي للواقع العملي بممارسة السلطة حفظا للنظام العام حسب ما وصل إليه اجتهادهم.

ويمكن أن نؤكد بأن النخبة من علماء العهد الصفوي حين استطاعت أن توثق صلتها مع سلاطين الصفو ية "أدخلت الفقه الشيعي إلى الحيز السياسي بقدر كبير من التحرر، وأسست علاقة حميمة دفعت إشكالية شرعية

(1) وهو كما تصفه بعض المصادر: بأنه" من صنف الفقهاء الذين قل نظيره" بالإضافة الى أنه ملم بفقه المذاهب الأربعة، وهو لبناني ينسب إلى قرية كرك نوح في ضاحية زحلة. استطاع أن يتصل بالشاه عباس الصفوي، ويحظى عنده بمكانة كبيرة، ثم من بعده ولده طهماسب (930هـ - 1576م) فنال لديه منزلة مهمة، فأصد ر الشاه طهماسب "فرماناً" يأمر الناس بطاعته، ويحذر من يخالفه، وحينها تسلم إدارة الحكم في دولته، وبواسطته بلغ كامل النفوذ في قمة السلطة.

(2) أيضا تولى منصب " شيخ الإسلام، من قبل الشاه عباس الكبير، وهو أعلى منصب ديني رسمي في البلاد، عام (996هـ ت 1587م) في عاصمته الجديدة "أصفهان"، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته -رحمه الله-.

(3) وعيّن من قبل سلاطين الصفويين مرتبة " شيخ الإسلام" ذو الشخصية القوية، فقد استطاع أن يقبض على السلطة، ويدير أمور المملكة وسط ظروف حالكة كانت تمر بها البلاد، أثر تهديد الأفغانيين باجتياحها، و لم ينجح الأفغانيون في اجتياح إيران إلا بعد وفاته.

السلطة بحيث لا يجد الفقيه الشيعي مندوحة في تلك الفترة من تنصيب نفسه في مرتبة أعلى من الزعيم"[1].

وكيفما كان فلقد كان لفقهاء جبل عامل من قبيل المحقق الكركي، والشيخ البهائي، في أصفهان، والآخرين (كالمجلسي) بتأسيسهم الحوزة الفقهية حقاً كبيراً على ذمة هذه الأمة[2]. حيث مارسوا الصلاحيات الفقهية السياسية من أجل مصلحة الوطن والأمة بكل حرية.

كما أن هولاء الفقهاء الذين تصدّوا للمسؤولية -ومن هم على خطهم- أكدوا على أن علاقة الدين بالسياسة تعتبر من المجالات الواسعة للفقهاء الذين يهديهم اجتهادهم إلى تحمل عناء المسؤولية الدينية، والتصدي لإدارة الدولة، وان كان على نطاق ضيق.

المشهد الثالث: ولاية الفقيه العامة

طبيعي أنْ يكون لكل مجتهد تتوفر فيه شروط المرجعية المتعددة أنْ يُطلق عليه منصب "وليّ الفقيه".

وعرّفوا هذه الولاية بأنها: "سلطنة على الغير عقلية، أو شرعية، نفسا كان أو مالاً، أو كليهما، بالأصل أو بالعارض"[3].

غير أن درجة هذه الولاية اختلف فيها المجتهدون، وقسمت إلى قسمين: ولاية عامة، وولاية خاصة:

- الولاية العامة، المجعولة للنبي ﷺ ومن بعده للائمة الطاهرين عليهم السلام

---

(1) د... علي فياض - المصدر السابق: 453

(2) المهاجر - المصدر السابق: 134 عن مرتضى المطهري - الإسلام وإيران:: 329

(3) محمد بحر العلوم - الاجتهاد أصوله وأحكامه: 251/طبع بيروت - دار الزهراء للطباعة والنشر الطبعة الثالثة 1991عن كتاب (بلغة الفقيه- للمرحوم السيد محمد بحر العلوم: 276-277).

- الولاية الخاصة: فهي لا تتعدى بالنسبة إلى المجتهد إلا في حدود لا تتجاوز عد الأصابع، كـ: ولاية القضاء، والحسبة، وغيرهما كما حددتها المصادرالإمامية المعتبرة[1].

وذهب الإمام الراحل السيد روح الله الخميني إلى القول بسعتها للمجتهد الجامع الشرائط إلى درجة اعتبارها بـ "الولاية العامة" أو ما تسمى بـ "الولاية المطلقة". وهي "نفس الولاية إلتي أعطاها الله إلى نبيه ﷺ، والأئمة عليهم السلام من بعده، عدا الجهاد الابتدائي...

وبناء على ذلك فإن الولي الفقيه يستطيع أن يحكم على ضوء مصلحة النظام بصورة أوسع، ولكن ضمن أهداف الدين.

وهذه الأحكام ليست واجبة الاتباع، والإطاعة فقط، وإنما هي مقدمة على جميع الأحكام الشرعية الفرعية إذا تزاحمت معها"[2].

وهذه النظرية الفقهية الواسعة التي طرحها الإمام الراحل قامت على ضوئها دولة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولازالت ثابتة رغم الاختلاف السياسي من قبل بعض المراجع من الشيعة بالنسبة لها.

وقد أُسِّست الجمهورية الإسلامية الإيرانية عام 1979 واليوم عام 2009م، فمعناه مرّ على انطلاقها الرسمي ثلاثون عاما، وهي تبني نفسها رغم عوادي الزمن التي تحملها تيارات التغيير، ولكنها بفضل قادتها تأصلت مفاهيمها الفكرية والسياسية على ضوء خط "ولاية الفقيه" ونمت في المجتمع الإيراني إلى درجة الاستحكام، وتثبيت الوجود الاجتماعي إلى جانب الفكري والسياسي، بما أكد وزنها السياسي في العالم عامة، والمنطقة خاصة.

---

(1) بحر العلوم - المصدر السابق: 251-252

(2) الشيخ محسن كديور - نظريات الحكم في الفقه الشيعي (بحوث في ولاية الفقيه) : 120 ط/بيروت 2000 - (الطبعة الأولى)

إن الأمام الراحل السيد محمد باقر الصدر- تغمده الله برحمته ورضوانه- قال بولاية الفقيه العامة أيضا، وأشتهر عنه هذا الرأي، وفي حدود معلوماتي لم أصل إلى ما يؤكد لي قوله بالسعة التي يراها الإمام الخميني.

ولكن تلميذه آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم يوضح رأيه حين يقول:

"إن الأمة لها(الخلافة العامة التنفيذية والتشريعية) على أساس قاعدة الشورى إلتي تمنحها حق ممارسة أمورها بنفسها بهذه الطريقة. ولكن ضمن إطار الإشراف والرقابة الدستورية من المجتهد الجامع للشرائط، وهذا الحق هو حق استخلاف ورعاية مستمد من مصدر السلطات الحقيقي الذي هو الله سبحانه وتعالى.

ويمكن أن نحدد دور المرجع في ضوئها بالمهمات الدستورية التالية:

الإشراف، الرقابة، الفتيا، القضاء، القيادة العليا، والتمثيل للدولة، مراقبة المظالم والحقوق، توكيل رئيس الدولة المنتخب من الأمة من أجل إسباغ المزيد من القدسية والشرعية. لان المرجع- بالإضافة إلى دوره الشرعي - جزء مهم من الأمة، وله عمق في وجودها الاجتماعي والسياسي"[1].

الفرق بين الرأيين إذاً هو:

أنَّ نظرية الإمام الخميني قائمة على تواصل الإمامة كدور ووظيفة واستمرار ولاية الإمام المعصوم من خلال نائبه العام الولي الفقيه، وهي

(1) محمد باقر الحكيم -الحكم الإسلامي: 88/ طبع موسسة المنار- قم ايران 1412هـ، ويشير السيد الحكيم أن هذا الرأي ذكره السيد الصدر في كتابه (الإسلام يقود الحياة: 11-16)

سلطة ذات مقام مُقدس بحكم النيابة للمعصوم، ووظيفتها كلية وشاملة دينياً ودنيوياً، وتهدف إلى تنفيذ الأحكام الإلهية، وإقامة العدل، وخدمة الناس.

ويشترط في الحاكم العلم والعدالة. أما المجال السياسي فهو مجال مُلتحم مع الديني، ولا انفكاك بينهما.

أما نظرية الشهيد الصدر فتقوم نظريته على تركيب مُزدوج لمشروعية السلطة. الحاكمية السياسية تمارسها الأمة عبر الشورى مستندة إلى الشعبية، والحاكمية الإيديولوجية يمارسها الفقيه بالاستناد إلى المشروعية الدينية[1].

المشهد الرابع: خط مرجعية النجف.

والملفت أن المرجعية الشيعية في النجف، وبتبع للمؤسسة الدينية من قبل أئمة أهل البيت لم يضفوا شرعية على السلطة، كما لم يمارسوا الحكم بمفهومه الحِرَفي، بل تحركوا من موقع الأمة، ومن مصالح الأتباع، وثقافتهم وحريتهم مستندين في ذلك إلى الثقة العميقة التي وضعها الأتباع فيهم، حيث تعاملت المرجعية مع السلطات بمنطق المصالح المتبادلة، ورفضت "أدلجة " الحكم، والسلطة، والدولة، أشد الرفض، اللهم الا ما عدا ما تميز به دور «ولاية الفقيه» في الجمهورية الاسلامية الايرانية من اجل تحديد صلاحيات الشاه كوسيلة للوقوف امام استبداد الحاكم إن المواقف السياسية لمراجع الدين - خلال القرنيين الماضيَيْن- تجاه السلطة تتراوح من الاهتمام بالحفاظ على الأرواح، والدعوة إلى الجهاد لمواجهة أعداء الأمة، وحماية الوطن من احتلاله من قبل الاستعمار، وأي حادث يضر بمصلحة الوطن، وإبعاده من براثن المتربصين به لحرفه عن طريق مسيرته السليمة التي اختارها الشعب، وفق منطق العقيدة، والوطنية،

---

(1) لزيادة الإطلاع يراجع د. علي فياض - المصدر السابق: 433-435. وقد بادر المرحوم الشهيد الصدر إلى تأييد الإمام الخميني في بداية إعلان الجمهورية الإسلامية الإيرانية عام 1979، وكتب تعليقة على الدستور الإيراني وفق مبدأ ولاية الفقيه.

وكذلك من محاولات التصفيات الجسدية لاغراض المبادئ الهدامة الوافدة على الوطن من الخارج، ودعم الثورات في وجه الطغاة.

وفي سبيل تحقيق مهماتهم واجهوا الكثير من الظروف الصعبة التي تتطلب اتخاذ مواقف سياسية مرنة تارة، وحازمة أخرى استطاع فيها الفقيه مواجهة الظروف المختلفة القاسية.

وليس من الصعب تلمس بعض مواقف المرجعية البارزة في الأحداث التي اجتاحت البلاد، أو خشية تسرب خطرها إلى بلدان الجوار، فكان لها الموقف الجاد -بصفتها المحورية الدينية المتصدية - لوقف التدخل الأجنبي وتسريبه.

وكمثل على ذلك:

1 - موقف الإمام المجدد السيد محمد حسن الشيرازي[1] في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في قضية "التنباك" . في إيران، وأدى لمواجهة الإنكليز[2].

2 - موقف المجاهد السيد محمد الطباطبائي في كربلاء في مواجهة المحتلين الروس لإيران.

---

(1) السيد ميرزا محمد حسن ابن ميرزا محمود ابن ميرزا إسماعيل ابن مير فتح الله الشيرازي، المولود بشيراز سنة 1230هـ -1815م هاجر إلى النجف ودرس في مدرستها الحوزوية، وبعد وفاة أستاذه الشيخ مرتضى الأنصاري تحولت زعامة الحوزة العلمية في النجف الاشرف إليه، ومن أجل تعضيد شيعة أهل البيت في سامراء البلد السني التي تضم مرقدي الإمامين العسكريين عليهما السلام نقل حوزته العلمية إليها عام (1293هـ/ 1876م) لجمع وحدة الكلمة الإسلامية.
أفتى بحرمة التنباك رداً على ما قام به ناصر الدين الشاه من إعطاء امتياز التجارة لإحدى الشركات البريطانية، وأضر ذلك بمصلحة المواطن الإيراني، فاستغاثوا بالسيد فأفتى بحرمة استعمال التنباك، فاضطر الشاه إلى إلغاء الاتفاقية التي أثارت المشكلة.

(2) د. وجيه كوثراني - الفقيه والسلطة: 181، ود. علي فياض- المصدر المتقدم: 144

3 - كذلك موقف علماء النجف الجهادي ضد الإنكليز في العراق عام (1914- 1920) تُعد محطةً مميزة، حين تحولت إلى مدافع عن الإمبراطورية العثمانية رغم ممارستها الاضطهاد والظلم ضد شيعة أهل البيت ﷺ، بناء على مبدأ «الوجود الإسلامي الناقص خير من العدم»، والمتمثل بالدولة العثمانية الإسلامية على دولة غير إسلامية كبريطانيا -وإن كانت ممارساتها مع الشيعة طائفية مقيتة-.

وكذلك مواقف المراجع المجاهدين: السيد محمد سعيد الحبوبي[1] والسيد مهدي الحيدري[2]، والشيخ مهدي الخالصي[3] وغيرهم من الذين قادوا المجاهدين من النجف وكربلاء وبغداد والكاظمية، وجموعاً كبيرة من عشائر محافظات الجنوب إلى البصرة لمقابلة الإنكليز الغزاة في العشرينات من القرن الماضي.

4 - وموقف الإمام ميرزا محمد تقي الشيرازي[4] قائد ثورة العشرين

(1) السيد محمد سعيد بن محمود بن قاسم، المعروف بالحبوبي، ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن ابي طالب ﷺ، المولود في النجف سنة (1266هـ/ 1850م) من مراجع الحوزة العلمية فيها، أفتى بالجهاد ضد الاحتلال البريطاني للعراق عام1914وقاد هو وبعض المراجع جيشاً من المجاهدين العراقيين، وكان مسؤولاً عن جبهة الشعيبة، ولما اندحر المجاهدون أمام البريطانيين عاد إلى الناصرية لاستنهاض العشائر لمحاربة الجيوش الغازية، مرض فيها وتوفي في 1233هـ - 1915م ونقل إلى النجف ودفن في الصحن الحيدري.

(2) السيد مهدي بن احمد بن السيد حيدر الحسني الكاظمي من علماء الكاظمية، شارك مع العلماء في قيادة مقاومة الغزو البريطاني للعراق عام (1914م) ومات غرقا في مياه دجلة بعد عودته من قتال الإنكليز سنة (1326هـ/ 1934م)

(3) الشيخ مهدي ابن الشيخ حسن ابن الشيخ عزيز الخالصي المولود في الكاظمية سنة (1276هـ -1860م) وكان من مراجع التقاليد فيها، وشارك في قيادة العلماء لحركة المجاهدين ضد الإنكليز عام (1914م)، كما عارض في انتخابات المجلس التأسيسي في العراق تحت ظل الانتداب البريطاني، وأبعدته حكومة عبد المحسن السعدون إلى الحجاز عام (1324هـ/ 1924م)، ومن هناك سافر إلى إيران وتوفي في خراسان مشهد الإمام الرضا ﷺ سنة (1343هـ/ 1925م).

(4) الميرزا محمد تقي بن محب علي الشيرازي عالم كبير من مشاهير عصره، =

العراقية في القرن الماضي بضرورة إعطاء الحق للعراقيين في تقرير مصيرهم من خلال اختيار حاكم عربي مسلم للعراق، وكتابة دستور في ضوئه يتم انتخاب مجلس تشريعي للبلاد.

وحين حاول الحاكمون في تلك الفترة التلاعب بالانتخابات للمجلس الوطني أفتى العلماء بمقاطعة الانتخابات، وأحدثوا هزة عنيفة للحكام الذين حاولوا تمرير مخططاتهم "الطائفية" ففشلوا.

وكذلك الأمر عندما أصرت المرجعية المتمثلة حينذاك بالإمام النائيني[1]، في النجف على ضرورة تغيير دستور الدولة في إيران من أجل تحديد صلاحيات الشاه كوسيلة للوقوف أمام استبداد الحاكم فكانت رسالة الإمام النائيني عام (1908م) في كتابه "تنبيه الأمة وتنز يه الملة" تمثل التطور الكبير للفكرالسياسي الشيعي الذي يدعو إليه الفقيه الشيخ النائيني[2].

= وأصبح المرجع الروحي بعد وفاة المرجع الكبير السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي، وانتقل من سامراء إلى كربلاء، وبعد وفاة السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي أصبح المرجع الأعلى للشيعة، وسكن كربلاء وفي سنة (1920م) أصدر فتوى الجهاد ضد الإنكليز في العراق، وقاد ثورة العشرين العراقية، وفي أثناء تلك الفترة توفي سنة (1338هـ/ 1920).

وقام بعده بتحمل المسؤولية الشيخ فتح الله بن محمد جواد الشيرازي الشهير بشيخ الشريعة الاصفهاني المولود في أصفهان سنة (1266هـ/ 11850م) وهاجر إلى النجف ودرس فيها، وبعد وفاة الميرزا محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين العراقية ضد الإنكليز بقيادتها، وبعد فشل الثورة وعودة سيطرة الانكليز على النجف حوصر الشيخ في بيته حتى وفاته سنة (1339هـ) ودفن في الصحن الحيدري.

(1) الميرزا محمد حسين بن عبد الرحيم المولود في نائين سنة (1277هـ/ 1861م)، وكان والده "شيخ الإسلام "في عصره، وانتقل إلى النجف ودرس لدى علماء عصره، وأصبح من أنصار الشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف الآخوند، -زعيم الحركة الدستورية في النجف، الف كتابه "تنبيه الأمة وتنزيه الملة"وطبعه عام1327هـ/ 1908م) وترجم إلى العربية عام (1911م) ونفي إلى إيران مع العلماء لمعارضتهم انتخابات المجلس التأسيسي في العراق، وعادوا إلى العراق بعد أن سمحت الحكومة العراقية لهم بالعودة بعد ان تعهدوا بعدم الخوض في الشؤون السياسية، ولكن لم يفوا بالتعهد.

(2) ويعلل الكاتب ادّعاءَه: بأن الظروف التي شكلت إطاراً اجتماعيا-سياسياً للكتاب، ومضامينه ولغته تتسم بالجدة، وتنتمي إلى زمن سياسي غير الزمن الذي جرى فيه =

وفي خضم هذه الأحداث، وموقع المراجع العظام في وسطها -على مستوى القيادة كانت المرجعية الدينية تنأى بنفسها عن السلطة، ولكنها تسعى لتوفير الغطاء للتحرك السياسي في القضايا المعاصرة التي تضر بمصلحة الدين والوطن.

وكمثل آخر على دور المرجعية الدينية في دعم الحركات الوطنية في أوائل الأربعينات من القرن الماضي ما اتخذه المرجع الديني في النجف حينها السيد أبو الحسن الاصفهاني (1284-1365هـ)(1)، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء(2)، من موقف مساند وداعم لحركة رئيس الوزراء -حينذاك- رشيد عالي الكيلاني حين قيامه بانقلاب على الملكية في العراق معبرين عن حق الشعب من إزاحة الملكية المتمثلة بالبيت الهاشمي عن سلطان العراق، لأنها بدت منها بوادر الطائفية المقيتة.

وكذلك ما حصل في عام (1958م) من ثورة عارمة لإسقاط الملكية في العراق، وقيام الجمهورية مقامها بثورة الزعيم عبد الكريم قاسم فأيدته

= إنتاج الفقه السياسي الشيعي على يد الفقهاء السابقين. راجع د. علي فياض- المصدر المتقدم: 141-144، وهذا الكتاب تصفه بعض المصادر بأنه " يُعد إسهاماً غير مسبوق في مجال الفقه والفكر السياسي الشيعي. ولهذا سمي "النائيني" مؤسس الفقه السياسي الإسلامي الحديث.

(1) السيد أبو الحسن ابن السيد محمد الموسوي الاصفهاني المنتهي نسبه إلى الإمام علي عليه السلام المولود عام (1284هـ/ 1868م) هاجر إلى النجف في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، واعتلى مركز المرجعية بعد السيد محمد كاظم اليزدي الطباطبائي، وتصدى للعمل السياسي، وأصدر مع مجموعة من العلماء فتوى بحرمة الاشتراك في انتخابات المجلس التأسيسي العراقي تحت ظل الانتداب البريطاني سنة (1923م) فأبعدته الحكومة العراقية إلى إيران، وبعد حوالي سنة عاد إلى العراق بأمر من الملك فيصل الأول، وفي سنة (1365هـ/ 1946م) توفي بالنجف.

(2) محمد حسين ابن علي ابن الرضا ابن موسى بن جعفر كاشف الغطاء المولود في النجف عام (1294هـ/ 1877م) من مراجع الدين النجف العظام، ومن زعماء الثورات الوطنية، وكان من أعضاء المؤتمر الإسلامي في القدس عام (1350هـ) توفي في إيران سنة 1373هـ-1954م).

المرجعية الدينية بزعامة الإمام الراحل السيد محسن الحكيم، وسائر مراجع الدين في النجف الأشرف، غير أنها سرعان ما استنكرت سياساته عندما أساء استخدام السلطة، وخروجه على الشريعة في بعض تقنيناته، وخاصة في قانون الأحوال الشخصية وتقريبه لبعض الجهات السياسية الذين عاثوا فساداً في البلاد.

كما احتج الإمام الراحل السيد الحكيم على النظام العارفي ا لأول عام 1963حين صمم على قتال الأكراد العراقيين فأفتى بحرمة مقاتلة الجيش العراقي لهم على اعتبارهم عراقيين يطالبون بحقوقهم السياسية المشروعة.

كما شجب النظام الصدامي على ممارساته الطائفية ضد الشعب العراقي الأعزل، واحتجب عن أداء صلاة الجماعة، والتدريس استنكاراً لممارساتهم العدوانية ضد فئات الشعب المحرومة، وتشتيت الحوزة العلمية في النجف الأشرف ذات العمر الألف عام بحجة وأخرى غير مقبولة ومعقولة، وإنما مبعثها الطائفية المقيتة.

كما منع الجيش العراقي من غزو الكويت في العهد القاسمي باعتباره اعتداء على دولة مجاورة عربية مسلمة كما افتى بتحريم قتال الاكراد في عهد عبد السلام عارف الذي قرر ابادة الاكراد.

وفي نفس السياق امتنع الإمام الراحل السيد أبو القاسم الخوئي من تأييد النظام الصدامي في حربه الظالمة ضد إيران في الثمانينات من القرن الماضي.

وصمد أمام ضغط النظام الصدامي حين مطالبته تأييد حربه على إيران، واحتلال الكويت عام 1990م فكان موقف المرجع الديني السيد الخوئي صامداً لا يتزحزح أمام الضغوط الهائلة التي مارسها النظام في وقته، و الملفعة بالتهديد والوعيد.

وأخيراً: العراق الحديث ومرجعية السيد السيستاني

بعد ثلاثة عقود ونصف من طغيان الدكتاتورية في العراق، وتمزيق الوطن نتيجة العامل الطائفي، وشمولية الحزب الواحد، وبراعة الإرهاب في سياسة الدولة الدكتاتورية في: القتل، والاضطهاد، والعهد الفئوي، والحكم الفردي الاستبدادي، لاحظنا أن التركة التي خلفها نظام الاستبداد كبيرة جداً، وفوق كل ذلك احتلال القوى المتعددة الجنسيات الأجنبية لأرض الوطن، وتصرفها المشين -وكان علينا أن نتقبل كل ذلك ولو علقماً، فلكل ظرف استحقاقاته- وقد تحملنا المسؤولية، ولابد من الاستمرار بها، والعمل على إنهاء الاحتلال.

ولكن الامر الذي يجب أن لا يغرب عن واقعنا السياسي المعاش أن المرجعية الرشيدة المتمثلة بالإمام السيد علي السيستاني حفظه الله كانت قد وجهت مسار المسيرة نحو خطة قديرة وجديرة بالاعتماد لدى الشعب العراقي، حيث حفظت أطار التجربة الرائدة. بعدم الانجرار إلى ما أريد له من الانزلاق في متاهة العنف المقابل الذي كان مرسوما له في انهيار العراق الجديد، وعودته إلى المربع الخطير، وهو عودة البعث بمساعدة بعض دول الجوار التي تضررت مصالحها التغيير العراقي المفاجئ.

ولم تخرج المرجعية في موقفها من النظام السياسي الحديث عن سابقاتها، فلم تدخل في صلب العملية السياسية بل بقيت على مسافة بعيدة عنها مجنبة المؤسسة الدينية عن التداخل مع السلطة والاستفادة من الحكومة.

لم تشجب المرجعية الدينية التدخل الأمريكي الذي ساعد العراقيين في التخلص من نظام الاستبداد والدكتاتورية، ولكنها طالبت بانسحاب جيوشها من الأراضي العراقية - بعد أن ساعدت العراقيين بإنهاء نظام الدكتاتورية- بالسرعة الممكنة حين استتباب الأمن واستقراره.

وطرحت المرجعية خيارات حالت دون فرض أرادة الأمريكان حين

أرادوا فرض دستور منبثق منهم، فأصرت على كتابة دستور بأيد عراقية، و دعت إلى استعادة السيادة العراقية بالطرق السلمية، و إلى تشكيل حكومة عراقية منتخبة من قبل برلمان منتخب، في كل ذلك تعاملت بايجابية على إرساء مفاهيم تلامس المضمون الذي يشكل هاجسها الدائم.

وأكدت مرجعية النجف الرشيدة على أنها تبقى راعياً أبويا لكل المجتمع، تنطلق في توجهاتها من موقع الشعب لا من موقع الدفاع عن الحاكم، وتحاول دوما إبقاء الخيارات مفتوحة في أيديها لمواجهة الموقف، حيث تمتاز بمرونة عالية في المواقف السياسية، وتتبنى الخيارات الثابتة، وتصبح أغلب الخيارات متغيرة حسب الظروف السياسية، فلا تشكل هوية الحاكم المذهبية عائقاً أمام اتخاذ الموقف المناسب، ولا شكل الحكم أمام حفظ وحدة البلد، والدفاع عن حقوق المواطنين.

فقد واجهت المرجعية التدخل الأجنبي في بداية القرن الماضي بأسلوب يختلف عما واجهته في بداية القرن الحالي، وتعاملت مع أنظمة الحكم بغض النظر عن طبيعتها الملكية، أو الجمهورية، واتخذت مواقف مختلفة مع الحاكمين بغض النظر عن انتمائهم.

وقد تجد في آن واحد مواقف مختلفة للمرجعية في قضية واحدة، نظراً لنظرتها البعيدة إلتي تفرض لكل قضية ظروفها الخاصة التي تتحكم بها.

هذا الطيف الواسع من المواقف السياسية قد تشكل فيما بينها وحدة تعكس طبيعة الفكر السياسي الشيعي كما حصل في ثوابت الشعب العراقي، وإلى القرار الوطني في القضايا المصيرية كالاتفاقية الأمنية، وقانون النفط، و اجتثاث البعث، وغيرها من القوانين التي تمس مصلحة الأمة مباشرة.

وفي ضوء ذلك تمكن الشعب أن يصنع أكثر من ملحمة في تقرير مصيره وهو لتوه قد خرج من مرحلة التجهيل والعتمة والدكتاتورية، والتخلف والفقر وغيرها من المشاكل الأخرى، التي يعيشها العراق في ظروفه المعاشة.

إن هذا يدلل على عمق الموروث في العلاقة مع المرجعية، وحجم الثقة الممنوحة، التي مكنت المرجعية من فرض بعض الخيارات التي تصب في صالح الأمة، وعدم مصادرتها ثانية وليس في ضرر اللاعبين الآخرين..

الخلاصة

إن الأمثلة كثيرة بعدد مرجعيات الشيعة، والمدلول واحد، وهو أن المرجعية عنيت بالمضمون دون الإخراج، والشكل، والصياغة.

المضمون من حيث الآلية، هو اعتماد النسبة السكانية، والكفاءة في توزيع المناصب والثروات، والفرص، بغض النظر عن بعض الخروقات مادامت صغيرة.

والمضمون من حيث المحتوى، وهو حفظ الهوية، والحريات العامة، والثوابت الدينية، والأخلاقية، والوطنية، والعدالة الاجتماعية.

ويخطأ من يختزل التنوع المشار إليه بتعدد الاجتهاد، أو عدم اكتمال الرؤية السياسية، أو بعدم توفر المشروع السياسي.

الرسالة لكل من حولنا...

بعد العرض المتقدم في تقديري لابد من الوقوف عند نقطتين هامتين:

الأولى: من الخطأ القاتل أن يغتر أحد من اللاعبين بوداعة المرجعية ومنحاها السلمي، فقد عودتنا دائماً على أن الموت أثمن من الحياة، وبالتالي إذا أريد للعراق الحديث أن يخرج عن قواعد اللعبة - المشار إليها - بإعادة الدكتاتورية المقنعة، أو الطائفية السياسية، أو القفز على السلطة، أو نظرية الرجل القوي، وكل ما يضر بالثوابت - المشار إليها -فإنها سوف تقول كلمتها وسيرجع العراق الجديد ثانية إلى حالة خطيرة من اللإستقرار التي تهدد مصالح المنطقة، والعالم أجمع.

فإذا أراد الكل أن يستفيد من خير العراق بدلاً من أن يتضرر الجميع فعلى الجميع أن يساهم في استقرار البنية السياسية الحديثة للبلد.

الثانية: في تقديري أن الفلسفة السياسية الحديثة التي أنتجت النظام السياسي الحديث في العالم المفرغ من الأيديولوجيا، والذي يعتمد صندوق الاقتراع، والمصالح المتبادلة لها قدرتها على التجاوب مع الفكر الشيعي السياسي في النجف لخلق منظومة سياسية قوية تظهر فيه المنطقة بمظهر جديد يؤمن للمشاركين مصالحهم في الوقت الذي يبني نفسه وفق الأصول السياسية الحديثة.

إنها فرصة ثمينة قد لا تكرر أتمنى أن يفكر فيها المعنيون بجد، الحريصون على استقرار العراق وشد لحمته.

المرجعية الدينية الشيعية وأسلمة القوانين[1]

بدأت المرحلة الثالثة من المرجعية نواب الأئمة عند المسلمين الشيعة، بعد مرحلة النبوة ومرحلة الإمامة، علي وأولاده الأحد عشر عليهم السلام وهي مرحلة المجتهدين، الذين أشار إليهم الحديث النبوي ﷺ: "اللّهم ارحم خلفائي، فقيل له يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسُنّتي فيعلمونها الناس من بعدي"[2].

وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: "مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه "[3]، إلى غير ذلك من الأحاديث والروايات.

ووَّجَه أئمة أهل البيت أتباع مدرستهم الأخذ من المجتهدين الذين وصفهم الإمام الحسن بن علي المعروف بـ(العسكري) -الإمام الحادي عشر من أئمة أهل البيت- بقوله: "فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه"[4].

ويؤكد رسول الله ﷺ على هؤلاء بقوله: "يحمل هذا الدين في كل قرن ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الضالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير"[5].

---

(1) القيت في لندن - 4/ 8/ 1997 في احتفال اقامه مركز اهل البيت الاسلامي بالتاريخ المشار اليه

(2) من لا يحضره الفقيه: 4: 420/ 5919.

(3) بحار الأنوار 97: 80.

(4) وسائل الشيعة 27: 131/ 20.

(5) الكير: زق ينفخ فيه، تقدم ذكر مصدر الحديث

وعلى هذا كانت المرجعية امتداداً للإمامة بعد عصر غيبة الإمام المعصوم محمد بن الحسن المهدي عليه السلام، كما كانت الإمامة امتداداً بدورها للنبوة. وتحملت المرجعية أعباء هذه الرسالة العظيمة، وقامت على مرّ التاريخ بأشكال مختلفة من العمل في هذا السبيل، أو التمهيد له بطريقة وأخرى[1].

إذاً فالمرجعية: حقيقة اجتماعية موضوعية في الأمة تقوم على أساس الموازين الشرعية العامة، ويكون المرجع هو النائب العام عن الإمام من الناحية الشرعية[2].

وفي تاريخ المرجعية بداية من عهد الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن نعمان المتوفى سنة 413هـ وإلى هذا اليوم استمرت في حياة الأمة قيادةً، وزعامةً، يتناوبها العلماء المجتهدون واحداً بعد الآخر، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولم تقتصر مسؤوليات المرجعية ومهامها على الأمور العبا دية كما يرى البعض، إنَّما هي مركز القمة لهرم الإشراف على سير تطبيق الدستور والقوانين، ومراقبة السلطة التنفيذية ومناقشتها في الدولة الإسلامية التي تتولى مهام إدارة شؤون الأمة[3]، وتميز ذلك بوضوح في القرن الثالث عشر

---

(1) الشهيد محمد باقر الصدر- لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية: 13 14، طبع بيروت، دار التعارف 1979.

(2) الشهيد الصدر - لمحة تمهيدية: 20-21.

(3) يرى الشهيد الصدر أن المرجعية الرشيدة هي المعبر الشرعي عن الإسلام. والمرجع هو النائب عن الإمام من الناحية الشرعية، وعلى هذا الأساس يتولى مايلي:
أولاً: إنَّ المرجع هو الممثل الأعلى للدولة والقائد الأعلى للجيش.
ثانياً: المرجع هو الذي يرشح أو يمضي ترشيح الفرد أو الأفراد الذين يتقدمون للفوز بمنصب رئاسة السلطة التنفيذية، ويُعتبر الترشيح من المرجع تأكيداً على انسجام تولي المرشح للرئاسة مع الدستور، وتوكيلاً له على تقدير فوزه في الانتخابات لإسباغ مزيد من القدسية والشرعية عليه كحاكم.
ثالثاً: على المرجعية تعيين الموقف الدستوري للشريعة الإسلامية. =

الهجري، فقد كان دور المرجع الفقيه في الشؤون السياسية واضحاً، إضافة لمسؤوليته الدينية إلى درجة كبيرة، سواء كان في العراق أم في إيران.

إيران نموذجاً:

ففي إيران يظهر نفوذ القيادة الدينية القوي الفاعل في الحياة السياسية للأمة بوضوح، وأشير إلى بعض المواقف الهامة التي لها صلتها وعلاقتها الأكيدة بأسلمة القوانين، وهي بإيجاز:

1 - موقف الإمام المجدد السيد الميرزا محمد حسن الشيرازي الذي كان يسكن العراق آنذاك وفتواه في إلغاء اتفاقية (التنباك) مع الشركة الإنكليزية التي حاولت احتكاره على الحركة التجارية الوطنية الإيرانية، وقد أثّرت فتوى الإمام الشيرازي في المجتمع الإيراني، بما فيه البلاط الملكي والعائلة المالكة[1]

2 - الصراع الذي حصل في طهران بين علماء الدين في ما يخُص تشريع القوانين التي تخص البلد من خلال مجلس برلماني، أو سلطة تنفيذية تخُص مجلس الوزراء والملك، وعرف هذا الصراع الهام سنة 1306

= رابعاً: عليها البت في دستورية القوانين التي يعينها مجلس أهل الحل والعقد لملء منطقة الفراغ.
خامساً: إنشاء محكمة عليا للمحاسبة في كل مخالفة محتملة في المجالات السابقة.
سادساً: إنشاء مظالم في كل البلاد لدراسة لوائح الشكاوى والمتظلمين، وإجراء المناسب بشأنها.
ويقوم المجلس بتأليف مجلس يضمَ مائة من المثقفين الروحانيين، ويشمل على عدد من أفاضل العلماء في الحوزة، وعدد من العلماء والوكلاء، وعدد من أفاضل الخطباء والمؤلفين والمفكرين الإسلاميين على أن يضم المجلس ما لا يقل عن عشرة من المجتهدين وتمارس المرجعية أعمالها من خلال هذا المجلس. (لزيادة الإطلاع يراجع الشهيد الصدر- لمحة تمهيدية: 20-21).

(1) راجع عن حادثة التنباك السيد محسن الأمين- أعيان الشيعة: 6/ 306، طبع بيروت. والدكتور علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق: 3/ 59، طبع بغداد.

هجرية بـ(المشروطة والمستبدة)، وقد أدى هذا الصراع المبدئي إلى إعدام الميرزا فضل الله النوري في سياق تلك الأحداث، التي طالبت بمجلس تشريعي، ورفضت الاستبداد[1].

3 - موقف آية الله الشهيد أبو القاسم الكاشاني، والشهيد السيد نواب الصفوي في حركة الدكتور مصدق في إلغاء قانون شركة النفط في إيران عام 1952، وتشريع قانون وطني يقضي بتأميم الشركة لصالح الإيرانيين، وموقف بقية العلماء الأعلام المساند لذلك.

4 - الثورة الإسلامية عام 1979التي قادها الإمام الراحل السيد الخميني (رضوان الله عليه) تلك الثورة الرائدة التي قلبت الموازين الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط، وهددت المصالح الإمبريالية العالمية، ومازالت حتى هذا اليوم تصارع العواصف الهوجاء، فلم يلو ذراعها تيار الإسقاط رغم كل المؤامرات المشبوهة، إنَّما قاومت وستقاوم كل أعدائها، وستبقى معلماً هاماً في تاريخ القيادة الدينية والمرجعية في هذا العصر.

العراق نموذجاً:

أما في العراق فنرى اشتراك علمائه الأعلام كالسيد مهدي الحيدري والسيد محمد سعيد الحبوبي في الدفاع عن العراق ضد القوات البريطانية عام 1914، ثم ثورة النجف عام 1915 التي فجرتها جمعية النهضة الإسلامية، والتي قادها علماء مثل الشيخ محمد جواد الجزائري، والسيد محمد علي بحر العلوم، والتي جاءت بعدها بسنوات ثورة العشرين 1920المعروفة، والتي كانت نواة ما يسمى بالحكم الوطني. وقادها مراجع الدين العظام، وفي مقدمتهم آية الله العظمى ميرزا محمد تقي الشيرازي،

---

(1) لزيادة الإطلاع يراجع الأمين - المصدر المتقدم: 8/ 408.

الذي طالب مع زعماء الثورة بحكومة عربية تسير على ضوء هدى الشريعة الإسلامية تنتهج الشورى، ودعا لانتخاب مجلس تأسيسي يُمثل واقع الأمة، بعيداً عن التأثير الأجنبي، وحين لمس العلماء الثوار: السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ ميرزا حسين النائيني، والشيخ مهدي الخالصي بوادر انحراف المسؤولين والحكام، وهم في بداية الشوط، والمجلس التأسيسي بعد لم يُنتخب لكي يضع القوانين الاشتراعية التي تقتضيها مسيرة الدولة المقبلة للعراق المسلم، بادر علماء الدين، والمراجع العظام إلى تحريم المشاركة في انتخاب المجلس التأسيسي الذي ظهرت تأثيرات الإنكليز عليه، والتي أدت إلى تسفير العلماء من العراق(1).

وهكذا برزت مؤشرات المعارضة الدينية وقادتها العلماء المراجع الدينيين في الإصرارعلى المسؤولين بضرورة أسلمة القوانين، واستمر هذا الموقف المعارض ممتدّاً في المرجعية الدينية عبر علماء مجاهدين أصرّوا على أن تكون القوانين المشرعة في العراق نابعة من صميم واقعهم الديني، حتى رست المرجعية العامة إلى الإمام الراحل آية الله العظمى السيد محسن الحكيم -رضوان الله عليه- في بداية الخمسينات من القرن الماضي.

وللحق أن مرجعية الإمام السيد الحكيم يمكن أن تُعد منعطفاً هاماً في تاريخ المرجعية الشيعية، وتحركها الديني والسياسي في العراق، حيث توفرت فيه مواصفات أساسية ساعدته على اتساع آفاق زعامته الدينية، لأنّه شخصية عربية، ومن أسرة عريقة في العراق، وممن شارك في ثورة العشرين مجاهداً في ساحة الحرب ضد الإنكليز. فجاءت مواجهاته للأنظمة الحاكمة في العراق - تؤكد باستمرار العمل بأسلمة القوانين- فكان لها وزنها السياسي، وحسابها الاجتماعي، خاصة في الخمسينات حتى اصطدامه مع النظام الحاكم في بغداد عام 1969 وجهاً لوجه، نشير الى بعضها باختصار:

(1) لزيادة الإطلاع راجع د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - القسم الأول: 6/ 201 وما بعدها، طبع بغداد 1976.

1 - أن الإمام الحكيم في اللقاءات التي كانت تتم مع كبار المسؤولين في الحكم الملكي، وعلى كل المستويات كان يطالبهم بأن تكون القوانين التي تشرعها الحكومة منبثقة من العراق المسلم، وأن لا تتأثر بأي اتجاه يتنافى مع معتقدات الأمة في بلد لم يعرف غير الإسلام ديناً، وكانت سياسته معهم قائمة على أساس من التوجيه والإرشاد، ودخلت بالأخير دور الصدام والتقاطع لاستمرارهم في التمسك بالخط الذي يرسمه لهم دهاقين الحكم الطائفي.

2 - وما إنْ وصل عبد الكريم قاسم للسلطة على أثر ثورة 14 تموز 1958حتى أخذت بعض الانحرافات تطفو على سطح الأحداث في البلاد ثم برزت بعض القوانين المشرعة في ذلك العهد، وفي مقدمتها قانون الأحوال الشخصية رقم (188) لسنة 1959 الذي تضمّن مخالفات صريحة في كثير من مواده للشريعة الإسلامية.

وكان من الطبيعي أن يبادر الإمام الراحل السيد الحكيم بالمطالبة جدّياً بأسلمة هذا القانون، وغيره من القوانين التي تخصّ حياة الأمة، وتصطدم مع واقع الشريعة الإسلامية، وحين لم يسمع أُذناً صاغية لما يطالبه أعلن موقفه الصارم من الحكم، متحملاً المسؤولية الدينية عمّا سيحدث من موقف النظام المضاد، وبمرور الزمن توسعت القطيعة بينه وبين السلطة في بغداد، وأصبحت المواجهة بين المرجعية الدينية وبين عبد الكريم قاسم مرحلة المقاطعة الحازمة.

3 - وحين استولى البعثيون على السلطة بعد انقلاب ما يسمى بثورة 14رمضان 1963، أمر الإمام الحكيم بعض وكلائه من رجال الدين في بغداد والكاظمية بإجراء حوار مع المسؤولين في السلطة حول تعديل القوانين المخالفة للدين، ولم تصل اللقاءات إلى حل، لأن تيار البعثية عاصف أهوج لا يستقر على ساحل.

4 - وحين لم ير الإمام الحكيم استجابة لتصحيح المسار اضطر لإرسال

وفد من العلماء إلى رئيس الوزراء يوم ذاك، وحمّله رسالة خطية، ونصائح شفوية تتعلق بالشؤون العامة المخالفة للشريعة الإسلامية، ودعا إلى تعديلها وفق عقيدة البلد، ووعدوا بذلك لكنهم لم يفو بوعودهم، إنّما أجروا تعديلاً بسيطاً في قانون الأحوال الشخصية المشار إليه، وبقيت فيه ثغرات كثيرة منافية بصراحة لرأي المذاهب الإسلامية.

5 - وحين قوّض عبد السلام عارف حكم البعثيين، أوعز الإمام السيد الحكيم إلى عدد من العلماء في النجف وكربلاء وبغداد والكاظمية بكتابة مذكرات إلى رئيس الحكومة عبد السلام عارف يطالبونه بأسلمة القوانين، وتعديل المنحرف منها، وخاصة قانون الأحوال الشخصية، ووضع دستور للبلاد يعتمد أساسه على كتاب الله وسنّة رسوله، مع وضع مادة تنص على عدم جواز تشريع أي قانون يخُالف الأحكام الإسلامية. ولكن عبد السلام- المتظاهر بالإسلام - أوغل في التضاد مع أسلمة القوانين، وأصدر قوانين وصفت زوراً بالاشتراكية في 14تموز عام 1964، حيث أمم جميع البنوك، وشركات التأمين، بالإضافة إلى 32 شركة تجارية وصناعية خاصة. وكان وراء هذه الحركة التأميمية خير الدين حسيب الذي كان يشغل حينذاك وظيفة محافظ البنك المركزي العراقي[1] مُدّعياً أنّ ذلك ما يتطلبه العصر، ولكن الحقيقة أنّه قصد ضرب التجار الشيعة، إنطلاقاً من طائفيته الحمقاء، والتي تجاوبت مع الطائفية المقيتة التي كان يتبناها رئيس الجمهورية عبد السلام عارف، وبكل صراحة.

6 - وبعد المعارضة الشديدة من قبل الإمام السيد الحكيم للسياسة المجحفة التي تبناها نظام عبد السلام بحق أكثرية المواطنين العراقيين

(1) راجع خدوري خدوري - العراق الجمهوري: 312- 314.

حاول عبد السلام عارف مقابلة السيد الإمام الحكيم (قدس سره) لغرض تهدئة الحالة المتأزمة، لكن السيد رفض قبول لقاء المجاملة، وطالبه بالتزام مبدأ أسلمة القوانين لقبول اللقاء معه، ودعاه لرفض القوانين الطائفية المسماة بالاشتراكية والتي شرعها سابقاً، ولكن هذا الطلب رُفِضَ رفضاً قاطعاً من أجل تقديم تنازلات من قبل عبد السلام ولم تفلح المحاولات رغم الجهود التي بُذلت من الطرفين لتحقيق اللقاء. وكان رأي الإمام الحكيم أن عبد السلام عارف لو كان جاداً في الوصول إلى تحقيق تغير في هذه القوانين لكانت بوادر التغيير منه، إنما هي - في نظر السيد الحكيم قُدّس سرّه - محاولة من نظام عارف للفلفة الأمر، وتجنباً من الوقوع في الفخ أصرّ السيد على رفض المقابلة.

7 - وبتاريخ 19/ 3/ 1964 زار الفريق طاهر يحيى رئيس الوزراء حينذاك ومعه عدد من الوزراء الإمام الحكيم في مقر إقامته في بيته في الكوفة، وبعد الترحيب به تحدث الإمام الراحل حول ضرورة تجنب الحكومة مزالق الخطأ، وذكَّره بالنتائج الوخيمة التي انتهى إليها عهد عبد الكريم قاسم. وكان مجمل الحديث يدور حول: تأكيده على إلغاء قانون الأحوال الشخصية الذي لايمت إلى الإسلام بصلة، وانتشار حديث الطائفية بين أبناء البلد في عهد عبد السلام وبشكل خطير يمزق الوطن، في الوقت الذي يجب أن يعيش فيه الشعب العراقي بعيداً عن هذه الاختلافات والحزازات. كما شرح الإمام أخطار بقاء الوضع بهذا الحال، وآثاره السيئة، خاصة أن رأس الحكومة هو السبب في إثارة قضايا الطائفية، والنعرات المفرقة، وطلب الأخير إيصاء الحكام بوجوب التثبت والتروِّي في إصدار الأحكام، وعدم التسرع فيها، ومعاملة الناس بالعدل والإحسان، وتحقيق جميع المطاليب المشروعة التي يقدمها أبناء الأمة على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم.

8 - أما العهد العارفي الثاني، فرغم الآمال التي بثها أعوان النظام في حلحلةالتشنج بين القيادتين الدينية والسلطة العارفية، فإن الجو السياسي المخيم كان يشير إلى عدم إمكانية التعهد من قبل المسؤولين بعملية التغيير المطلوبة للقيادة الدينية - المرجعية - لضعف الحكم، وعدم القدرة على إصدار قوانين هامة، ولهذا بقيت غائمة لا مطر فيها ولا صحو.

9 - وحين تسلم البعثيون (التكارتة) مسؤولية الحكم، وظهر منهم انعدام القيم الإنسانية، والتوغل في التشبث في السلطة على حساب الأمة، كان لابد من موقف حازم للقيادة الدينية، يتجلى فيه الرفض القاطع لنظام أعلن إصراره على محاربة الدين والقيم الإنسانية، والمثل الأخلاقية. فكان ماكان من عبث وفساد وعسف واضطهاد وقتل وتشريد وسجن وتعذيب ومصادرات وتردي في الأخلاق لا مثيل له حتى في قانون الغاب والدول المتخلفة.

كان من الواضح استحالة التلاقي بين القيادتين لمصلحة الأمة والوطن، نظرا لكون السلطة كشرت عن أنيابها المسمومة تجاه الدين، وموقفها الطائفي المقيت الحاقد تجاه الأمة والوطن. ولم يقتصر ذلك الخط المرسوم خارجيا في أثره على الإمام الحكيم رضوان الله عليه، إنما استمر يحصد الواجهات الإسلامية، وكيان مرجعيتها الرائدة المتمثلة حينها بآية الله العظمى المرجع الديني الأعلى السيد الخوئي، والشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر، وغيرهما من المراجع في النجف -قدس الله سرهم-، حيث لم يهادنوا على مبدأ التغاضي عن المبادئ والقيم التي عمد النظام الحاكم في عهد البكر ومن بعده صدام إلى محاولات الاجتثاث والإبادة للأمة وتراثها، والوطن ونعمه، حسب الخطة الأجنبية المرسومة لهم.

من العرض الموجز لفترة هذا القرن ومسؤولية المرجعية الدينية نرى أنّ أسلمة القوانين كان من أولويات عمل المرجعية الواعية، خاصة أن

العراق بلد مسلم منذ بداية شروق الإسلام، ومرّت عليه أدوار مختلفة فيها الحلو والمر، لكنه لم يخضع في أي عهد من عهوده لعلمنة الحكم، وسطوة السلطة، كما لم يشهد ما يعيشه اليوم من اضطهاد وعسف، غير أنّة سرعان مابدا وزال إلى مزبلة التاريخ، وبقي العراق الشريف نبع الحضارات، ومنطلق رسالة التوحيد يقارع الظلم، ويُحارب الدكتاتورية بكل إمكاناته وطاقاته، مرفوع الرأس، موفر الكرامة.

وإنّنا ننتظر اليوم من أبناء العراق الغيارى المجاهدين - من أجل عقيدتهم ووطنهم - بقيادة علمائه المخلصين المجاهدين، وبحول الله وقوته أن يحققوا النصر المؤزّر للأمة المنكوبة والوطن المرهق من نظام فقد كل القيم الإسلامية والعربية، والمعايير الإنسانية، ويعيدوا مجده الزاهر، وتراثه الأصيل، وليس ذلك على الله بعسير.

آفاق الثابت والمتغير
في مواقف المرجعية الامامية

يدور حديثنا حول هذا العنوان في محاور ثلاثة من أجل استيضاح الهدف من هذا الحديث، وهي بإيجاز:

المحور الأول: الإمامة والسياسة

إن الارتباطات بالتراث سمة بارزة في الفكر الديني، بل يتعامل معه على أساس أنه مطلق ومعصوم، ويشكل مصدراً لتشريعاته، ومرجعاً لصياغة مقولاته.

وحسب نظرية الإمامية الإثني عشرية فإن سيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام قولا وفعلا تعتبر من مصادر التشريع الإسلامي، امتدادا للسنة النبوية الكريمة، وتكون العصمة الصفة الجامعة بين النبوة والإمامة، ويصبح الوحي العلامة الفارقة بينهما.

وبموجب هذه النظرية تمكن الفكر الشيعي من التوفر على تراث مهم أمتد إلى أكثر من قرنين من الزمن، علاوة على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة جعله في رصيد فكري مميز عن بقية المذاهب والأديان.

عندما نرصد ممارسة المعصوم، ونتتبع المواقف السياسية خلال فترة الأئمة الاثني عشر، والتي استمرت منذ الخلافة الراشدة، ومروراً بالعهد الأموي، وحتى الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عليه السلام في العهد العباسي نراها حلقات قد تبدو " متناقضة" من حيث سعة أفقها، وهامش تنوعها العريض، لكنها في المحصلة تضيق وتتسع بسبب المصلحة العامة الهادفة إلى صيانة الرسالة المحمدية (الإسلام)، ووحدة المسلمين،

والدعوة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي، والوقوف بوجه التيارات الهدامة، وحماية المسيرة الرسالية من كيد الأعداء، والمتربصين للإيقاع بإتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتصفيتهم، ودعم الثورات في وجه الطغاة.

هذا التنوع في مواقف الائمة في الصورة الظاهرة كأنها غير متفقة في الظاهر، وكأنَّ الامامة لم تكن وحدة موضوعية متعددة الجوانب.

فبداية من موقف الإمام علي عليه السلام حين تصدى للخلافة الرشيدة، بعد عزلة دامت أكثر من عشرين سنة، وممارسة الحكم فترة خمس سنوات، ثم من بعده موقف الإمام الحسن عليه السلام من السلطة، ومهادنة معاوية ابن أبي سفيان، ثم ثورة الأمام الحسين عليه السلام. وحركته الإصلاحية ضد السلطة الأموية برئاسة يزيد بن معاوية، وما وصلت إليه من مأساة مروعة في يوم العاشر من محرم عام 60هـ، وعزوف الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن النشاط السياسي وانشغاله بالبناء الأخلاقي والروحي، إلى تركيز الإمامين الباقرين عليهما السلام على البناء العلمي لمدرسة أهل البيت، مع الاستمرار العلني تارة، والسري أخرى للثورة ضد السلطة الأموية، ودعوة الإمام موسى الكاظم عليه السلام لعدد محدود من أعوانه للمشاركة السياسية في أجواء السلطة العباسية، إلى قبول الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد لحكومة المأمون العباسي، مع إصراره على عدم ممارسة السلطة، إلى عهد الائمة الثلاثة: الجواد والعسكريين عليهم السلام. الذي يشبه التطبيع مع السلطة، وكف عن النضال السلبي لعدم تهيئة مقوماته الايجابية.

هذه الصورة التي رسمها الائمة عليهم في عهدهم قد تبدو متناقضة لأول وهلة حيث نراهم تارة في خضم النضال السياسي، وأخرى يتراءى للبعض زج مفهوم عزلة الدين عن السياسية في عمل الأئمة عليهم السلام، غير أننا لو دققنا الواقع لا يجد أتباع أهل البيت في هذه المواقف أي غضاضة أو اختلاف، وإنما هو توزيع أدوار فيما بينهم تهدف إلى وحدة العمل من أجل حفظ الإسلام، وإبقاء حركة التشيع كمَعلَم سياسي يحمل لواء الإسلام في الأمة.

المحور الثاني: المرجعية الدينية والسياسية

وفي عصر الغيبة الكبرى تبلور مفهوم المرجعية في الوسط الشيعي ساعد عليه فتح باب الاجتهاد من جانب، وإرجاع الائمة إلى العلماء تحت أكثر من عنوان من الفقاهة، و النيابة، والعدالة، والرواية، باعتبارهم يمثلون "الإمامة النائبة" وأنهم الامتداد لدور الأئمة عليهم السلام في قيادة الأمة، في ظل فتح باب الاجتهاد، والتقليد في الشريعة الإسلامية.

والملفت أن المرجعية الشيعية، وبالتبع المؤسسة الدينية، المنبثقة عن أئمة أهل البيت لم يضفوا شرعية على السلطة، كما لم يما رسوا الحكم بمفهومه الحِرَفي، بل تحركوا من موقع الأمة، ومن مصالح الأتباع، وثقافتهم وحريتهم مستندين في ذلك إلى الثقة العميقة التي وضعها الأتباع فيهم. حيث تعاملت المرجعية مع السلطات بمنطق المصالح المتبادلة، ورفضت "ادلجة" الحكم، والسلطة، والدولة، أشد الرفض. اللهم إلا ما عدا ما تميز به دور "ولاية الفقيه" في الجمهورية الإسلامية الإيرانية من أجل تحديد صلاحيات الشاه كوسيلة للوقوف أمام استبداد الحاكم.

إن المواقف السياسية لمراجع الدين تجاه السلطة تتراوح من الاهتمام بالحفاظ على الأرواح، والدعوة إلى الجهاد لمواجهة أعداء الأمة، وحماية الوطن من احتلاله من قبل الاستعمار، وأي حادث يطيح بالوطن في براثن المتربصين به لحرفه عن طريق مسيرته السليمة التي اختارها الشعب وفق منطق العقيدة والوطنية، وخاصة من محاولات التصفيات الجسدية لأغراض المبادئ الهدامة الوافدة على الوطن من الخارج، ودعم الثورات في وجه الطغاة، فقد واجهوا الكثير من الظروف الصعبة التي تتطلب اتخاذ مواقف سياسية مرنة تارة، وحازمة أخرى استطاع فيها الفقيه مواجهة الظروف المختلفة القاسية.

وليس من الصعب تلمس بعض المواقف البارزة التي اجتاحت البلاد، أو خشية تسرب خطرها إلى بلدان الجوار، فكان لها الموقف الجاد -بصفتها

المحورية الدينية -لوقف التدخل الأجنبي وتسُّربه، كما هو موقف الإمام المجدد السيد محمد حسن الشيرازي عام (1890) في قضية "التنباك" في إيران.

أو موقف المجاهد السيد محمد الطباطبائي في كربلاء في مواجهة المحتلين الروس لإيران عام.

وكذلك موقفها الجهادي ضد الإنكليز في العراق عام (1332هـ/ 1914م) محطة مميزة حين تحولت إلى مدافع عن الإمبراطورية العثمانية التي كانت تمارس الاضطهاد والظلم ضد شيعة أهل البيت عليهم السلام بناءً على مبدأ الوجود الإسلامي الناقص، والمتمثل بالدولة العثمانية على الدولة غير إسلامية كالإنكليز.

وعلينا أن نتذكر موقف المرجع المجاهد الإمام السيد محمد سعيد الحبوبي الذي قاد المجاهدين من النجف لمقابلة الإنكليز الغزاة في العشرينات من القرن الماضي، وعند انكسار المجاهدين عاد وتوقف في الناصرية ومات كمدا فيها.

وكذلك موقف الإمام ميرزا محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين في القرن الماضي بضرورة اعطاء الحق للعراقيين في تقرير مصيرهم من خلال اختيار حاكم عربي مسلم للعراق، وكتابة دستور في ضوئه يتم انتخاب مجلس تشريعي للبلاد.

وكذلك الأمر عندما أصرت المرجعية في النجف على ضرورة تغيير دستور الدولة في إيران من أجل تحديد صلاحيات الشاه كوسيلة للوقوف أمام استبداد الحاكم فكانت رسالة الإمام النائيني عام (1908) في كتابه "تنبيه الأمة وتنز يه الملة".

وفي كلا الأمرين كانت المرجعية الدينية تنأى بنفسها عن السلطة، ولكنها تسعى لتوفير الغطاء للتحرك السياسي في القضايا المعاصرة التي تضر بمصلحة الدين والوطن.

وكمثل آخر على دور المرجعية الدينية في دعم الحركات الوطنية في أوائل الأربعينات من القرن الماضي ما أتخذه المرجع الديني في النجف السيد أبو الحسن الاصفهاني، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والشيخ عبد الكريم الجزائري من موقف مساند وداعم لحركة رئيس الوزراء - حينذاك- رشيد عالي الكيلاني حين قيامه بانقلاب على الملكية في العراق معبرين عن حق الشعب من إزاحة الملكية المتمثلة بالبيت الهاشمي عن سلطان العراق، لكونها بدت منها بوادر الطائفية المقيتة.

وكذلك ما حصل في عام (1958م) من ثورة على إسقاط الملكية في العراق، وقيام الجمهورية مقامها بثورة الزعيم عبد الكريم قاسم فأيدته المرجعية الدينية بزعامة الإمام الراحل السيد محسن الحكيم، وسائر مراجع الدين في النجف الأشرف، غير أنها سرعان ما استنكرت سياساته عندما أساء استخدام السلطة، وخروجه على الشريعة في بعض تقنياته، وخاصة في قانون الأحوال الشخصية.

واحتج الإمام الراحل السيد الحكيم على النظام العارفي الأول عام 1963م حين صمم على قتال الأكراد العراقيين فأفتى بحرمة مقاتلة الجيش العراقي لهم على اعتبار هم عراقيين يطالبون بحقوقهم السياسية المشروعة.

كما شجب النظام الصدامي على ممارساته الطائفية ضد الشعب العراقي الأعزل، واحتجب عن أداء صلاة الجماعة، والتدريس استنكاراً لممارساتهم العدوانية ضد فئات الشعب المحرومة، وتشتيت الحوزة العلمية في النجف الأشرف ذات التاريخ الذي يزيد على الف عام بحجّة وأخرى غير مقبولة ومعقولة، وإنما مبعثها الطائفية المقيتة.

كما منع الجيش العراقي من غزو الكويت في العهد القاسمي باعتباره اعتداء على دولة مجاورة عربية مسلمة.

وفي نفس السياق امتنع الإمام الراحل السيد أبو القاسم الخوئي عن

تأييد النظام الصدامي في حربه الظالمة ضد إيران في الثمانينات من القرن الماضي.

وصمد أمام ضغط النظام الصدامي حين مطالبته بتأييد الحرب العراقية على إيران. واحتلال الكويت عام 1990م، فكان موقف المرجع الديني السيد الخوئي صامداً لا يتزحزح أمام الضغوط الهائلة التي مارسها النظام في وقته، و الملفعة بالتهديد والوعيد.

إن الأمثلة كثيرة بعدد مرجعيات الشيعة، والمدلول واحد، وهو أن المرجعية عنيت بالمضمون دون الإخراج، والشكل، والصياغة.

المضمون من حيث الآلية، هو اعتماد النسبة السكانية، والكفاءة في توزيع المناصب والثروات والفرص، مع الغض عن بعض الخروقات مادامت صغيرة.

والمضمون من حيث المحتوى، هو حفظ الهوية، والحريات العامة، والثوابت الدينية، والأخلاقية، والوطنية، والعدالة الاجتماعية.

ويخطأ من يختزل التنوع المشار إليه بتعدد الاجتهاد، أو عدم اكتمال الرؤية السياسية، أو بعدم المشروع السياسي.

وقد أفرز الاجتهاد الشيعي فكرة ولاية الفقيه، وإقامة دولة دينية، و المرحوم السيد محمد باقر الصدرقال بنظرية ولاية الفقيه، وأن تقدير الموقف أفرز اختلافاً في كيفية التعاطي مع احتلال بريطانيا للعراق، لكنه لا يفسر الموقف العام والتنوع في المواقف بل يبقى في حدود الحالات الخاصة والاستثناءات.

المحور الثالث: العراق الحديث

بعد ثلاثة عقود ونصف من طغيان الدكتاتورية في العراق، وتمزيق الوطن نتيجة العامل الطائفي والحزب الشمولي، وبراعة القتل،

والاضطهاد، والعهر الصدامي، والحكم الفردي الدكتاتوري، لاحظنا التركة التي خلفها نظام الاستبداد كبيرة جداً، وفوقها كل ذلك احتلال القوى المتعددة الجنسيات الأجنبية لأرض الوطن، وتصرفها المشين- الذي علينا أن نتقبل كل ذلك ولو كان علقماً، فلكل ظرف استحقاقاته- وقد تحملنا المسؤولية، ولابد من الوصول إلى شاطيء السلامة.

وكان الموقف المسؤول قد تمثل بالاعتماد في إدارة السفينة في خضم البحر الهائج على ربانها القدير المتمثل بالمرجعية الرشيدة في النجف الأشرف.

ولم تخرج مرجعية السيد السيستاني في موقفها من النظام السياسي الحديث عن سابقاتها، فلم تدخل في صلب العملية السياسية بل بقيت على مسافة بعيدة عنها مجنبة المؤسسة الدينية عن التداخل مع السلطة والاستفادة من الحكومة.

فموقف المرجعية الدينية لم يشجب التدخل الأمريكي الذي ساعد العراقيين في التخلص من نظام الاستبداد والدكتاتورية نظام صدام، ولكنه طالب بانسحاب جيوشها من الأراضي العراقية - بعد أن ساعد العراقيين بإنهاء نظام الدكتاتورية- بالسرعة حين استتباب الأمن واستقراره.

وطرحت المرجعية خيارات حالت دون فرض إرادة الأمريكان حين أرادوا فرض دستور منبثق منهم، وأصرت على كتابة دستور بأيد عراقية، و دعت إلى استعادة السيادة العراقية بالطرق السلمية.

وإلى تشكيل حكومة عراقية منتخبة من قبل برلمان منتخب، بل تعاملت بايجابية على إرساء مفاهيم تلامس المضمون الذي يشكل هاجسها الدائم.

لقد أكدت المرجعية على أنها تبقى راعياً أبويا لكل المجتمع، تنطلق في توجهاتها من موقع الشعب لا من موقع الدفاع عن الحاكم، وتحاول

دوما أبقاء الخيارات مفتوحة في أيديها لمواجهة الموقف، حيث تمتاز بمرونة عالية في المواقف السياسية، وتتماهى الخيارات الثابتة، وتصبح أغلب الخيارات متغيرة حسب الظروف السياسية، فلا تشكل هوية الحاكم المذهبية عائقاً أمام اتخاذ الموقف المناسب، ولا شكل الحكم أمام حفظ وحدة البلد، والدفاع عن حقوق المواطنين، فقد واجهت المرجعية التدخل الأجنبي في بداية القرن الماضي بأسلوب يختلف عما واجهته في بداية القرن الحالي، وتعاملت مع أنظمة الحكم بغض النظر عن طبيعتها الملكية، أو الجمهورية، واتخذت مواقف مختلفة مع الحاكمين بغض النظر عن انتمائهم.

وقد تجد في آن واحد مواقف مختلفة لمرجع في قضية واحدة، نظراً لنظرتها البعيدة إلتي تفرض لكل قضية ظروفها الخاصة التي تتحكم بها.

هذا الطيف الواسع من المواقف السياسية قد شكلت فيما بينها وحدة تعكس طبيعة الفكر السياسي الشيعي كما حصل في ثوابت الشعب العراقي، وإلى القرار الوطني في القضايا المصيرية كالاتفاقية الأمنية، وقانون النفط، و اجتثاث البعث، وغيرها من القوانين التي تمس مصلحة الأمة مباشرة.

وفي ضوء ذلك تمكن الشعب أن يصنع أكثر من ملحمة في تقرير مصيره وهو لتوه قد خرج من مرحلة التجهيل والعتمة والدكتاتورية، والتخلف والفقر، وألف مشكلة أخرى.

إن هذا يدلل على عمق الموروث في العلاقة مع المرجعية، وحجم الثقة الممنوحة، التي مكنت المرجعية من فرض بعض الخيارات التي تصب في صالح الأمة، وعدم مصادرتها ثانية وليس في ضرر اللاعبين الآخرين..

الرسالة ...

بعد العرض المتقدم في تقديري لابد من الوقوف عند نقطتين مهمتيْن:

الأولى: من الخطأ القاتل أن يغتر أحد من اللاعبين بوداعة المرجعية ومنحاها السلمي، فقد عودتنا دائماً على أن الموت أثمن من الحياة، وبالتالي إذا أريد للعراق الحديث أن يخرج عن قواعد اللعبة -المشار إليها- بإعادة الدكتاتورية المقنعة، أو الطائفية السياسية، أو القفز على السلطة، وكل ما يضر بالثوابت -المشار إليها- فإنها سوف تقول كلمتها وسيرجع العراق الجديد ثانية إلى حالة خطيرة من اللا استقرار التي تهدد مصالح المنطقة، والعالم أجمع.

فإذا أراد الكل أن يستفيد من خير العراق بدلا من أن يتضرر الجميع فعلى الجميع أن يساهم في استقرار البنية السياسية الحديثة للبلد.

الثانية - في تقديري أن الفلسفة السياسية الحديثة التي أنتجت النظام السياسي الحديث في العالم المفرغ من الاديولجيا، والذي يعتمد صندوق الاقتراع، والمصالح المتبادلة لها قدرتها على التجاوب مع الفكر الشيعي السياسي في النجف لخلق منظومة سياسية قوية تظهر فيه المنطقة بمظهر جديد يؤمن للمشاركين مصالحهم في الوقت الذي يبني نفسه وفق الأصول السياسية الحديثة.

إنها فرصة ثمينة قد لا تكرر أتمنى أن يفكر فيها المعنيون بجد، الحريصون على استقرار العراق وشد لحمته.

الفصل الثالث

معالم المرجعية الدينية خلال نصف قرن

1 - أبعاد ظاهرة الاضطهاد الديني.

2 - آية الله العظمى السيد محسن الحكيم.

3 - آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر.

4 - آية الله العظمى السيد ابو القاسم الخوئي.

5 - المرجعية بعد التغيير، آية الله العظمى السيد علي السيستاني أنموذجاً.

أبعاد ظاهرة الاضطهاد الديني
في العراق عامة والنجف خاصة[1]

ليست المآسي والمحن القاسية التي عاناها الوطن الغالي [العراق] وليدة هذا القرن، وإنما تمتد إلى عصور سابقة أرهقت الإنسان العراقي بقسوتها نتيجة الاحتلال والغزو، ولكن ما يحدث اليوم في العراق يختلف كل الاختلاف عما حدث في السابق، فإذا كانت ظروف مرهقة قد غمرت الوطن، فإن اليوم يمارس الاضطهاد فيه بكل أنواعه باسم السلطة الحاكمة، وباسم الديمقراطية، وباسم العمل الوطني، وما هو في حقيقته إلا انتهاك لحقوق الإنسان، ومسخ للقيم الإنسانية

إن آفاق الاضطهاد الديني في العراق عامة والنجف خاصة يمكن حصرها بالنقاط التالية:

أولاً: محاربة الفكر الديني دون إتاحة المجال له للدفاع عن نفسه:

إن غالبية الشعب العراقي مسلم عربي له جذوره العقائدية وأصوله الفكرية المنتهية إلى الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن حقه أن يمارس كل ما يتعلق بعقيدته، تأسيساً على أن الدولة الديمقراطية تؤكد على الحريات العامة، ومن تلكم الحريات حرية ممارسة المعتقد وعلى كل المستويات، ولكن النظام (البعثي) الحاكم من يوم وصوله للسلطة حارب الفكر الديني عبر واجهات إعلامه المتعددة، ومنع نشر وتداول الكتب التي

---

(1) نص المداخلة التي ألقيت في "الندوة الدولية" حول "انتهاكات حقوق الإنسان والتطهير العرقي في العراق" والتي عقدت في "لاهاي - هولندا" من 11- 13 أيلول 1998 من قبل بعض فصائل المعارضة العراقية.

لها علاقة بالإسلام، حتى بلغ الأمر أن منع تداول كتاب "خطب النبي" ﷺ، وكتاب "نهج البلاغة" للإمام علي عليه السلام، وكتاب "الصحيفة السجادية" للإمام علي بن الحسين عليه السلام وغيرها من الكتب التي تتناول الفكر الديني، ولم يسمح للمفكرين الإسلاميين أن يدافعوا عن معتقداتهم وأفكارهم، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل تجاوز إلى إتلاف وحرق المكتبات العامة والتراثية، حتى إنه في اجتياحه مدينة النجف عقب انتفاضة شعبان عام 1991م، احرق مكتبات مهمة تراثية عامة تضم آلاف الكتب والمصادر المتنوعة مطبوعة ومخطوطة، ونقل أن رذاذ الكتب المحروقة غطى سماء النجف وتجاوزها إلى كيلو متر- وأرجو أن لا يكون في ذلك مبالغة- وفي مقدمتها مكتبة الإمام الراحل السيد الخوئي، حيث اقدم النظام على تفجيرها بالديناميت و كذلك مدرسة دار الحكمة بنفس الطريقة إلى جانب المكتبات التي نهبها الجيش الغازي [الحرس الجمهوري] كمكتبة الإمام الحكيم العامة، ومكتبة الإمام علي في الصحن الحيدري الخاصة، ومكتبة حسينية الشوشترية الثرة بالمخطوطات النادرة وغيرها.

ثانياً: محاربة جامعة النجف العلمية وطلابها وعلمائها:

لم تكن ظاهرة اضطهاد جامعة النجف العلمية ذات العمر الألف عام وطلابها العراقيين وغير العراقيين، وأساتذتها، وعلمائها، بارزةً في المجتمع العراقي كما هو الحال في هذا العهد الأسود، ويمكن إبراز ذلك بالنقاط التالية:

1 - لم يعهد في تاريخ العراق منذ عشرات السنين أو أبعد بكثير أن أقدمت حكومة تولت الحكم في العراق على إعدام علماء الدين، وفقهاء الشريعة مهما كانت مواقفهم السياسية، ولكن نظام العفالقة الصداميين تجاوز ذلك فأقدم على إعدام الإمام السيد محمد باقر الصدر بذريعة وأخرى، ثم أجهز على العديد من أعلام المسلمين سنة وشيعة وفي مقدمتهم العلامة الشيخ عبد العزيز البدري، وحجة الإسلام السيد قاسم شبر وهو رجل ذرف على الثمانين من العمر، وكوكبة

من أولاد السيد الحكيم وأسرته، من بينهم آية الله السيد عبد الصاحب، والعلامة المجاهد السيد مهدي الذي اغتيل من قبل جلاوزة النظام في خرطوم السودان، وآية الله السيد حسن الشيرازي وفي أخر وجبة له قام باغتيال المرجعين الكبيرين في النجف الشيخ مرتضى البروجردي والشيخ علي الغروي و السيد محمد صادق الصدر.

2 - لقد زج النظام الصدامي مئات العلماء وطلاب العلوم في السجون والمعتقلات من دون محاكمة، أو حتى تحديد اتهام لهم، ولا يعرف أي شيء عن مصيرهم حتى اليوم، ولعل بعضهم دق أبواب التسعين أمثال آيات الله: السيد مرتضى الخلخالي وولده وثلاثة من أحفاده، والسيد محمد صادق القزويني، والشيخ محمد تقي الجواهري، والعلامة الخطيب السيد جواد شبر، ومن هم دون ذلك بقليل في السن كالسيد رضا الخلخالي، والسيد علاء الدين بحر العلوم وأولاده الثلاثة، والسيد عز الدين بحر العلوم، والسيد جعفر بحر العلوم وولديه، والسيد محمد رضا الحكيم، والسيد محمد تقي المرعشي وولديه، والسيد إبراهيم الشيرازي وولده، والسيد حسن بحر العلوم وولده وصهريه، والسيد محمد حسين بحر العلوم وولده وقتل زوجته، والسيد محمد رضا بحر العلوم وولده وصهره، والسيد مرتضى الحكيم وولديه، وغيرهم ممن يضيق المجال بتعدادهم، ولست مبالغا إذا قلت أن البيوتات العلمية في النجف وكربلاء والكاظمية لم يسلم غالبية رجالها من السجن ولم يعرف مصيرهم بما يطمئن على وجودهم أحياء، وكمثال على ذلك: أن ما يقرب من 22شخصاً من أسرتنا [آل بحر العلوم] فقط اعتقلوا منذ أحداث الانتفاضة الشعبانية آذار 1991م وكذلك ما يزيد على العشرين شخصاً اعتقلوا من [آل الحكيم] بنفس الأحداث، والمئات أمثالهم ممن اعتقلوا ولهذه الساعة لا يعرف عن مصيرهم في السجون هل إنهم أحياء، أم ماتوا أثناء التعذيب.

3 - المظهر الثالث التهجير القسري وبالبشاعة التي اشتهرت في حينها فقد هجر النظام آلاف المواطنين من طلاب العلوم الدينية وفضلائهم في

النجف وكربلاء وسائر العتبات المقدسة والمحافظات الأخرى بحجة كونهم من أصول غير عربية رغم أن البعض منهم يحمل شهادة الجنسية العراقية من الفئة [أ] وغالبيتهم من سكنة العراق منذ مئات أو عشرات السنيين، ومن أصول عربية معروفة، وذلك بعد مصادرة وثائقهم الإثباتية وممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة، وبقسوة لم يعرف لها نظير.

4 - لم يكتف النظام بممارسة الاضطهاد مع هؤلاء الذين تقدمت الإشارة إليهم، بل سرى ذلك إلى عوائلهم وأبنائهم فقد ملئت السجون منهم زيادة في إيلام وتعذيب هذه الأسر، أو تلك العوائل، وأحسب أن مؤسستي العفو الدولي ومنظمة حقوق الإنسان العالميتين لديهما الكثير من الوثائق التي تؤكد صحة هذه الممارسات اللانسانية مع المواطنين، ومن أمثلة ذلك اعتقال السيد إبراهيم ابن السيد الخوئي، وصهره السيد محمود الميلاني لاتخاذ هما رهينة للضغط على السيد الكبير، ولا يعرف عن مصيرهما ما يطمئن عن وجودهما.

ثالثاً: الاعتداء على مراجع المسلمين وعلماء الشريعة:

لم يخف على أحد موقف النظام الحاكم التعسفي من مراجع الدين وعلماء المسلمين ما دلل على حقد أعمى يحمله لهذه الطبقة العلمية، ومعروف أن أول شخصية عانت من اضطهاد السلطة التكريتية مباشرة بعد وصولها للحكم هو الإمام الراحل السيد محسن الحكيم، ثم من بعده إعدام الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، وشقيقته المجاهدة بنت الهدى، وبعد ذلك توالت الاعتقالات والسجن والإعدامات لبعض أعلام المدرسة الدينية وطلابها حتى وصل الأمر إلى اضطهاد المرجع الديني الراحل الإمام السيد الخوئي، وكذلك المرجع الديني السيد عبد الاعلى السبزواري وأخيراً اغتيال المرجعين الشيخين البروجردي والغروي، ولازال تضييق الخناق على المراجع في النجف، في مقدمتهم المرجع الديني الأعلى آية الله العظمى السيد السيستاني، وباقي العلماء الأعلام مستمراً.

رابعاً: محاربة المتدينين والشعائر الدينية بصورة عامة:

كما وأن النظام منذ وصوله للحكم اخذ بخناق المواطنين الذين تبدو عليهم مظاهر الالتزام الديني، كارتياد المساجد والعتبات المقدسة ومراقد الصالحين، والحجاب للنساء، وإطالة اللحى لدى الشباب، والمهتمين بالمناسبات الدينية، وممارسة الشعائر الحسينية خاصة، ولعل الجميع يتذكر ممارسة النظام وبأبشع صوره القاسية ضد مشاة الموكب الحسيني عام 1977م عند توجههم من النجف إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام فمنعتهم السلطة ولما لم يستجيبوا لها قصفتهم الطائرات العسكرية والمدفعية والدبابات واستشهد العديد من المشاركين في هذا العزاء الحسيني، عدا الذين نفذ فيهم حكم الإعدام باعتبارهم أصحاب المواكب، بعد محاكمة صورية، وأدت هذه المطاردة المسعورة من قبل النظام للمتدينين إلى زج الكثير من المواطنين والمواطنات شباباً وشابات في السجون وزنزانات التعذيب، كما مورست معهم مختلف أنواع القضايا اللااخلاقية، منها الاغتصاب الجنسي والشذوذ والانحراف من أجل الحصول على الاعتراف القسري، حسب ما يملى عليهم، تحقيقا لتبرير أهدافهم الدنيئة.

خامساً: محاربة الحركات الإسلامية:

بأثر رجعي لو رجعنا في التاريخ قليلا إلى الوراء، وتذكرنا إصدار النظام -حالما وضع أقدامه في ركاب السلطة- قانونا برقم 461 بتاريخ 31 آذار 1980حرم فيه حزب الدعوة الإسلامية، وعاقب المنتمي إليه بالإعدام أو السجن المؤبد، أو لأية حركة إسلامية في الحقيقة، وصار هذا القانون الاعتباطي التعسفي وسيلة تصفوية لكل من يحمل فكراً إسلامياً حتى ولو لم يكن منتمياً إلى حزب الدعوة أو أي حزب إسلامي أخر، أو حتى إذا كان إسلامياً مستقلاً وهكذا أصبح هذا القانون وسيلة سجن واعتقال وتعذيب وموت، بل صار مصدر بلاء ومحن على كل المواطنين أو معظمهم، وهو أمر فريد في العالم لا اذكر أن بلداً أخر في الشرق والغرب أصدر قانونا

كهذا القانون السيء الصيت، الذي يدل على تخلف وعقلية حكومة مستبدة مشبوهة، تعمل على إبادة شعبها بلون آخر، وبدون اكتراث.

سادساً: تدمير معالم المدن الدينية والعتبات المقدسة:

لقد اشتهر العراق بمدن دينية لها قدسيتها عند المسلمين عامة والمسلمين الشيعة خاصة، كالنجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء، وغيرها من المدن المقدسة أو الأثرية، ومن اليوم الذي تسلم فيه هذا النظام مقاليد السلطة بدأ يخطط لإهمال أو تخريب هذه المدن التي تضم مراقد أئمة المسلمين من أهل البيت، والتي يفد لزيارتها ملايين المسلمين من كل الجنسيات، بالإضافة إلى كونها مدنا عربية إسلامية ممصرة منذ مئات السنين وفيها أثار تاريخية يقصدها آلاف السياح من أنحاء العالم للإطلاع، وبدلاً من أن يهتم النظام بتعميرها والاحتفاظ بآثارها وترميمها عمد إلى إهمالها وتخريبها وبصورة متعمدة واضحة ومدروسة، ويمكن إيجازها بالنقاط التالية:

أ - إزالة أغلب المعالم الأثرية والمعلقات التحفية النادرة في المراقد المقدسة، ونقلها إلى قصور النظام على أساس أنها أثار فارسية، والكثير منها تحف نادرة لا مثيل لها في متاحف العالم.

ب - هدم الأماكن ذات البعد التراثي والتاريخي للمدينة، وقد تم وفقاً لهذه السياسة إزالة أحياء كبيرة بكاملها في النجف وكربلاء والكاظمية، وقد شمل هذا الهدم والتخريب بعض المدارس الدينية والجوامع والمقابر الشخصية ذات الطابع العلمي والتاريخي والمعماري والحضاري فيها بحجة واخرى.

ج - كما وأن وادي السلام مقبرة النجف ذات التاريخ العريق والذي يمتد عمرها إلى أكثر من ألف عام يدفن المسلمون موتاهم فيها، والتي يصفها الشاعر العراقي علي الشرقي في قصيدته «وادي

السلام» بقوله:

أمُـر عـلـى الـوادي فـسـفَّـت عـجـاجـةٌ
فـكـم مـن بـلادٍ فـي الـغـبـار وكـم نـادِ
وأبـقــت لــم أنـفـض عـن الـرأس تُـربَـةُ
لارفـع تـكـريـمـاً عـلـى الـرأس أجـدادي

إن هذه المقبرة كانت عرضة للهدم والتدمير، وخاصة بعد انتفاضة 1991.

د - ولقد بلغت الممارسة التخريبية المتعمدة ذروتها القصوى في قصف المراقد المقدسة ذاتها بالقنابل والصواريخ، وكان ذلك أول تدنيس لها على طول تاريخها كما حدث في قبة مرقد الامام الحسين عليه السلام في كربلاء.

هـ - منع قيام مشاريع حضارية وإنسانية في هذه المدن التاريخية والتي تتجلى فيها حضارة العراق وتتناسب ومكانتها العلمية والأدبية والتاريخية، كإيقاف مشروع جامعة الكوفة، وإلغاء كلية الفقه في النجف، والمؤسسات العلمية والأدبية فيها كجمعية منتدى النشر، وجمعية الرابطة الأدبية، وجمعية التحرير الثقافي وغيرها من المؤسسات التي كانت تبرز الطابع العلمي والأدبي والتراثي، ومثلها ما حصل في كربلاء والكاظمية وبغداد، وأبرزها إلغاء كلية أصول الدين في بغداد ومدارس الإمام الجواد في الكاظمية.

هذا المجمل مجرد استعراض سريع وسريع للغاية لما حصل، ومازال من الاضطهاد الديني في العراق بواسطة السلطات الحاكمة منذ 1968وإلى هذا اليوم!!

والسؤال هل إن كل ما حصل هو من عمل هذا الحكم الطائفي

المقيت، وهذه العقلية الحاكمة المتحجرة المستبدة، والتي تمثل الحاكم الدكتاتور، أو هو أبعد من ذلك؟؟

والجواب ليس بالصعب إذا ما رجعنا إلى الوراء قليلا ولاحظنا أن العصور المظلمة من تاريخ الإنسانية، وحتى ما يسمى بعصور النهضة والتنوير شهدت العديد من الممارسات التي تقع ضمن دائرة الاضطهاد الديني.

والعراق بحكم موقعه الجغرافي، وتركيبته الاجتماعية، وبنيته السياسية، وما يحصل نتيجة التفاعل بين هذه العناصر الثلاث، شهد عبر تاريخه أنواعاً من الاضطهاد الديني.

ومع بداية القرن العشرين وما رافقه من حركات تحررية وحروب محلية وعالمية وضعت العراق والعراقيين في صف المدافعين عن وطنهم، والمطالبين باستقلاله وسيادته، والذب عن غزو قيمهم الأصيلة، وقد قاد ذلك إلى خوض القيادة الدينية، والمرجعية التحررية في العراق صراعاً عنيفا مع قوات الاحتلال البريطاني، ابتداءً "بحركةالجهاد" بقيادة علماء الدين في النجف وكربلاء والكاظمية كالسيد محمد سعيد الحبو بي، والسيد مهدي الحيدري من الكاظميةوالسيد محسن الحكيم والتي حاربت القوات البريطانية الزاحفة على العراق، ومروراً بثورة النجف وجمعية النهضة الإسلامية التي قادها السيد محمد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري، وما تبعهما لاحقاً من ثورة عمت كل أرجاء العراق، وكان فتيلها قد أُوقد بفتوى الإمام محمد تقي الشيرازي كما كانت قياداتها متمثلة بكبار فقهاء النجف وكربلاء والكاظمية وطلبتهم، والتي أرغمت قوى الاحتلال على إعلان تأسيس الدولة العراقية، وما بعد ذلك من وقوف العلماء الكبار ضد محاولات إلحاق هذه الدولة الفتية بدائرة الاستعمار من خلال دستور يؤمن ذلك للقوات المحتلة، والذي انتهى بنفي الشيخ مهدي الخالصي، والسيد عبد الحسين الحجة الطباطبائي، والسيد أبو الحسن

الاصفهاني، والشيخ ميرزا حسين النائيني وغيرهم من العلماء المجاهدين الى ايران، كل ذلك أسس لقاعدة صلبة من العدوانية تنتهجها الحكومة العراقية وتتوارثها ضد الأكثرية العربية من المواطنين وقيادتها "المرجعية" والتي برزت بأقسى صورها مع وصول الحكم القائم للسلطة، وخصوصاً مع صعود صدام إليها، لغرض إرضاء القوى الكبرى التي رسمت هذا المخطط الانتقامي لضرب المرجعية الدينية في العراق وتدمير الجامعة العلمية الدينية العالمية في النجف الأشرف وباقي المدن ذات الطابع العلمي والتراثي، والتخلص من حاكمية المرجعية الدينية الجماهيرية المستقلة لتحويلها إلى جهاز تابع لها، مما يؤدي إلى فقدان الاستقلالية والوجود الشاخص لهذه المؤسسة الدينية العريقة، والتي جاهدت طوال تلكم السنين على الحفاظ على استقلالية هذا الكيان الديني المهم.

الإمام الحكيم (قدس سره)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلائق أجمعين محمد رسول الله، واله الغر الميامين الأئمة الطاهرين، وعلى صحبه المنتجبين.

وبعد:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمرَان: 169] [صدق الله العلي العظيم]

السلام عليكم أيها الأخوة العلماء الأعلام الاعزة الأجلاء.

طُلِبَ مني أن أتحدث و أؤبِّن الكوكبة الإيمانية، والصفوة الجهادية من أبناء وأحفاد، وآل المرجع الديني المغفور له آية الله العظمى المجاهد السيد محسن الحكيم (رضوان الله عليه) هذه الكوكبة الستة عشر من آل الرسول الذين استشهدوا برصاص الغدر والخيانة، والظلم والعدوان، رصاص نظام الحكم الصدامي الغاشم في العراق، والذين تربطني معهم أكثر من رابطة، رابطة الإخوة والقربى، ووحدة العمل، والزمان الطويل الذي وحد بيننا، وجعلنا روحاً واحدةً وفكراً موحداً، وأملاً واحداً.

هذه الكوكبة التي ضرجت بدمائها الطاهرة مشاعل الحرية والإرادة الصادقة أمام الباطل، لتكون للمسيرة التاريخية العقائدية خير هادٍ للأمة المسلمة التي تكافح من أجل الانعتاق من الذل والهوان الذي أصيب به

العراق الغالي حين انحرفت غالبية شعبه عن طريق الصواب، واعتلى حكمه طواغيت العصر، وأذناب الاستعمار.

لم يكن اغتيال هذه الكوكبة، وقبلها وبعدها عشرات من أهل العلم والفضل، والقادة الدينيين، في مقدمتهم آية الله الشهيد السعيد محمد باقر الصدر، وآية الله السيد قاسم شبر على يد نظام جلاد العراق وجلاوزته عملاً خاصاً، أو إرادة فردية، أو قضية تتعلق بظرف معين، إنما الأمر أبعد من ذلك كله. انه صراع الحق مع الباطل و الذي تمتد جذوره إلى أعماق التاريخ لو أردنا تتبع جذوره، وفي هذا الحال يطول بنا المقام لو أردنا الحديث عنه، إنما نحاول أن نقتطف جزء خاصاً منه لا يتعدى هذا القرن الميلادي، ونستطيع من خلال هذا العرض السريع أن نضع أصابعنا على أبعاد هذه الظاهرة الشرسة التي مُنِيَ العراق بها في الانقضاض على مرجعيته الدينية، وعلماء الشريعة الغراء.

لابد أن نرجع في التاريخ إلى بداية هذا القرن، فنرى الأحداث السياسية في العراق بدأت بتقويض الدولة العثمانية فيها، ومحاولة غزو الاستعمار البريطاني له، ورغم أن العهدين العثماني، والإنكليزي في نظر الواقع لم يختلفا في الأسس الاستعمارية، لكن المرجعية الدينية المتمثلة بعلماء الدين في العراق، وعلى رأسهم المرحوم آية الله السيد محمد تقي الشيرازي و آية الله السيد محمد سعيد الحبو بي، رأت أن المظلة العثمانية أهون شراً من المظلة الإنكليزية، لما يحف بالأولى من المظهر الإسلامي وكانت فعلاً انتفاضةً رائعة بقيادة العلماء الأعلام من النجف، وكربلاء، والكاظمية، وبغداد، والتفت حولهم العشائر المتاخمة لها، وأعلن الجهاد ضد الإنكليز، وكان ما كان من تاريخ معروف سجل موقفاً بطولياً ضخماً لعلماء الإسلام، تجلى فيه الرفض القاطع لغزو الإنكليز، وعدم الاستجابة لهم في محاولاتهم الترغيبية والترهيبية لثنيهم عن مجابهتم الجادة في الوقوف في وجه غزو الاستعمار البريطاني حتى وإنْ كلفهم الأمر حياتهم، فالموت في عزٍّ خيرٌ من عيش في ذل.

كانت الأحداث مابين عام 1914-1920م تعتبر صارخة عن نظام دؤب للعلماء وتصدي صريح للمرجعية في هذا الموقف الحازم الثابت الذي لا يتزعزع، ورغم الظروف القاسية، والأحداث الدامية والنفوس الخائنة، والأطماع، والتخاذل الذي أحاط بهذه الثورة من الذين لا يؤمنون بأي واقع ديني، يحدده موقف سياسي ثابت أعاق المستعمرين الغزاة الحذر والخوف بأن هذه الفئة من الأمة، -وهم القادة الموجهة لجماهير الناس، لا يمكن الاعتماد عليهم، والاتفاق معهم، لا تغرهم الأموال، ولايأخذ بلبهم الجاه، ولا يسلب عقولهم الإرهاب، أنهم قوم لا تأخذهم في مبادئهم لومة لائم. وان الجماهير تؤمن بهم، وتنقاد لهم، وتأتمر بأوامرهم، وإذ كان الاستعمار يريد أن يثبت أقدامه في العراق فلابد أن يحسب حسابه لهم، ويحد من آفاق قوتهم، ويُبعد الجماهير عنهم، إن طوعاً أو كرها.

ومع أن الإنكليز نجحوا في غزوهم، ودخلوا العراق فاتحين، واجتاحوا جهاد المجاهدين، وأرجعوهم مكسورين عسكرياً، إلا أنه لم يفلحوا في استيعابهم سياسياً، فقد حرم العلماء الأعلام المشاركة بالانتخابات في تأسيس ما يسمى بالمجلس الوطني، لتحديد وجهة الحكم الذي يريده العراقيون. ونظراً لما لمسه العلماء المجاهدون الذين يمثلون المرجعية - حينذاك -بأن اللعبة السياسية تكاد تسيطر على الموقف في فرض حكم استبدادي على البلاد، لن يجر له الخير أبداً، وأنَّ مصلحة الأمة المسلمة فوق أي اعتبار سياسي، واجتماعي، وأعلى من المصالح الشخصية والاعتبارية. ومع أن الاستعمار أتم له ما أراد، حيث أتم التخطيط الذي رسمه لحكم البلاد، فقد جيء بحاكم عربي نصب ملكاً على العراق، لكنه بدء بوضع المرسوم الجهنمي لعزل المرجعية الدينية في العراق كقوة أساسية عن التصدي السياسي في العراق، فلم تهن عليه ثورة العلماء ضده، ولم يتحمل بعد الجماهير عنه بتحريض من العلماء المخلصين، والمرجعية الرشيدة بما عرفت في حينها بـ (ثورة العشرين)، ولذا عمل الآتي حين استوثق له الأمر تمهيداً لغرضه اللئيم:

1 - عمد إلى تهجير العلماء الذين كانوا لولب التحرك السياسي في العراق إلى إيران، منهم: الميرزا حسين النائني، والسيد أبو الحسن الاصفهاني من النجف، والشيخ مهدي الخالصي من الكاظمية، والسيد محمد مهدي الحيدري من بغداد، والسيد عبد الحسين الحجّة من كربلاء، وأمثالهم من هنا وهناك.

2 - الحكم على جماعة من العلماء بالإعدام، والسجن، والاعتقال، أمثال: السيد محمد علي بحر العلوم بالإعدام، والشيخ جواد صاحب الجواهر والشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجزائري بالاعتقال والاحتجاز.

3 - الحكم على أقطاب ثورة النجف بالإعدام، وقد تجاوز عددهم العشرين، ونفذ حكم الإعدام فيهم، وعدد قليل منهم تمكن من الفرار إلى خارج العراق، كالمرحوم عباس الخليلي، فقد وصل إلى إيران فاراً وقد أشار الشاعر النجفي إلى هؤلاء المعدومين حيث قال:

لبنان عشرون صليباً لنا إذا النصارى افتخرت في صليب

4 - العمل على إبعاد شيوخ العشائر عن علماء الأمة، ومراجعهم العظام. فقد عين البعض في مجلسي النواب والأعيان ومجلس الوزراء، وحين ارتبطوا بعجلة الحاكم ودوامته، أخذت صلتهم تتقلص رويداً رويدا عن واقعهم الديني، وأن كان البعض منهم حافظ على مظهريته الارتباطية، ولكن في واقع الحال كانت المطامع الزمنية، والمصالح الشخصية تشدّهم إلى الحاكم مهما كان نوعه، فالباطل واحد مهما اختلفت واجهاته.

غير أن الجماهير المستضعفة - على مرور الأحداث، لم تغفل حق علمائها، وأكدت بلون وآخر على ارتباطها المصيري بمرجعيتها الدينية الرشيدة، رغم كل الظروف والمعوقات، واضطر الحاكمون -حينذاك-نتيجة

للضغوط الناجمة من القطاعات الشعبية المؤمنة بواقعها الديني أن تعمل على فك الحصار الظاهري عن العلماء الأعلام، وعودتهم من المهجر، أو الاحتجاز، أو السجن شريطة الابتعاد عن السياسة، والاقتصار على الأمور الشرعية.

وهذه النغمة الخطيرة التي ضرب عليها الاستعمار سيطرت على عقول السذّج والبسطاء من الناس، وعلى أساس أن العالم الديني تنحصر مهمته في الجوانب الشرعية الضيقة التي تخص الفرد من حلال وحرام، دون التوغل فيها في أطار الثورة العامة، وخلق وعي جماهيري لاستلام الحكم، وتمسك بها الحاكمون عبر تاريخهم في الحكم، خاصة فيما بين 1920-1950، وطرح المفاهيم المضادة للواقع العملي للمرجعية، ورغم الوعود من قبل المقربين بالالتزام بهذا العهد، فان المرجعية كانت لها ادوار واضحة في القضية الفلسطينية عام 1947م، ثم انقلاب بكر صدقي عام1936م، وثم حركة رشيد عالي الكيلاني 1941 إثر خلافه مع الإنكليز.

والذين رافقوا تلك الحقب السياسية يعلمون جيداً كيف أن للمرجعية الدينية دوراً معلوماً في الثورة على الملكية، وإنْ كانت غير قائمة على دراسة وتمحيص للوضع المستقبلي.

وعبر الأربعينات من هذا القرن -وكما أتذكرها- فإن صدى المرجعية في النجف كان يطفو على سطح الساحة السياسية في العراق، وأثبت هذا التحرك النسبي للمرجعية أنَّ العزلة عن العمل السياسي لها إذا تحقق بعض الشيء، لكنها برهنت على أنها قوة حقيقية مهيمنة في المجتمع، ولا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال.

وحين فشل الحاكمون في العراق بعزل المرجعية عن مقوماتها الأساسية، وهي الجماهير، وعدم فصلها عنهم، فأنها عمدت إلى أسلوب آخر، لعلها منزلق من مزالق صعبة تصطدم فيها مع تطلعات الشعب، التي تدين لها بالإخلاص والأيمان والولاء، وهذا وان كان لم يبرز على سطح

الأحداث العامة بصورة ظاهرة، ألا انه شي واقعي، لا يمكن تجاهله أو التغافل عنه.

إن هذا الأسلوب يتلخص بمحاولة جر المرجعية الدينية إلى مواقف سياسية تبعية للقوى السياسية المتصارعة في الساحة العراقية، والاستفادة من تأييدها لترجيح كفة هذه القوى أو تلك، وهذه لو تمت لتاهت المرجعية في متاهات تبعدها عن دينها، وطبيعة واقعها الاجتماعي، وبالتالي جرها إلى تبعية استعمارية، قد تكون خطيرة إلى درجة كبيرة. لكن المرجعية تمكنت من اجتياز هذه المرحلة الصعبة بأنْ وقفت إلى جانب القوى الرافضة للاستعمار، والمحاربة له بصدق، على أساس أن التيارات الغازية مهم كان مظهرها، فان من السذاجة بمكان الاطمئنان إليها كقوة تخدم كيان الأمة وترعى مصالحا، وهي مستمدة قوامها من بيئة تختلف كل الاختلاف عن واقع امتنا الإسلامية، ومثلها القويمة.

بعد وفاة المرحوم الديني آية الله السيد أبو الحسن الاصفهاني 1365هـ، بدأت نقلة تاريخية في أطار المرجعية الدينية، تلك هي مرجعية آية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قدس سره)، ولقد جهدت بحق أن ترسم بوضوح خط القيادة العلمائية للأمة، وتحمل مسؤولية وعي الجماهير المستضعفة في تبصر واقعها المؤلم، واللامبالاة الوقحة التي يعيشها غالبية الحكام الذين توالوا على دست الحكم في العهد الملكي العراقي أولا، ثم ما بعد ذلك العهد إلى ما بعد وفاته (رحمه الله)، ورغم كل الصعوبات الموضوعية التي عانتها المرجعية وما قاسته-طيلة ربع قرن من عمرها - من محن وويلات، ومضايقات، فأنها رغم هذه برهنت على إنجازات، يمكن أن تكون عناوين نصر لسجل المرجعية.

وحين أوجز أهم إنجازاتها في خلال تلك الفترة المجهدة، فإني أسجلها كإنسان عاش حلوها ومرها، واكتوى بكابوسها، وضاق في دنياها، مع اعتزاز بعمل مخلص جاد، وضمير راضٍ بما عاناه من مكاره الحياة، ومصير مظلم لا يعلم نهايته إلا الله سبحانه.

ولا أود أن أطيل عليكم السرد والإسهاب فيما جرى، والمحصلات الفذة على مختلف الأصعدة الدينية، والسياسية، والاجتماعية من خلال تلك المرجعية، فاعتقادي أن الغالبية منكم يعلمها ويعرف عنها، ولكن للتذكير أحدد مايلي:

أولاً: حين آلت المرجعية للسيد الحكيم، كانت الظروف السياسية تغلي في أوجها بالمنطقة، وكان دور العراق فيها كبيراً، نظراً لموقعه الاستراتيجي بين هذه الدول الزاخرة بالحركات والتيارات، وكان الاستعمار الغربي، والشرقي يحاول جاهداً في فرض سيطرته على المنطقة، وكان من مهام المرحوم السيد الحكيم - وهو يضطلع بمسؤولية القيادة الدينية - أن يحدد موقف المرجعية من العمل السياسي، الذي حاول المستعمر، ووجهاته الحاكمة أن تشيع في نفوس العامة من الأمة مبدأ فصل الدين عن السياسة، وهو مفهوم لا ينسجم وواقع الإمامة عندنا، ولهذا فقد تصدت لتوضيح هذا الموقف بجرأة، حيث رد على سؤال وجه إليه حول موقف العلماء من العمل السياسي، فقال:

(إذا كان معنى السياسة إصلاح شؤون العباد، والعمل على ترقية أحوالهم، واستصلاح أمورهم - كما هو المفهوم من معنى السياسة، والمطلوب من الساسة - فلم يأت الدين الإسلامي المقدس إلا للقيام بهذه الأمور، ومن الطبيعي أن من واجب رجال الدين القيام بكل ما أتوا من قوة وقدرة، كما أن اللازم عليهم السعي في تطبيق هذه الواجبات على الكل على حد سواء......)[1].

وبهذا التصريح الواضح، انتهت العزلة السياسية عن العلماء، وتصدت المرجعية الدينية للعمل الواضح من أجل صلاح الأمة، بناء على كونه أحد الواجبات التي مارسها المرجع الديني، الذي يرى ضرورة قيام الدولة

(1) الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي - أحمد الحسيني ص 71/ ط1/ 1984.

الإسلامية في المجتمع الإسلامي، والذي أخذ بالضمور في ظل الدول غير الإسلامية، أو المتظاهرة بالإسلام، وهو منها براء.

ثانياً: وكان عليه وهو يحاول كسر الحاجز النفسي في ممارسة العلماء لواجباتهم في هذا المضمار أن يهيىء الجماهير المستضعفة لقبول هذه الأطروحة الجديدة، والتفاعل معها من أجل اندماجها في أطار المتابعة والانقياد بصورة أكثر جدية من ذي قبل، والالتفاف حولها لتركيز موقعها حين يفاجأ الحاكمون بهذه الحقيقة المرة عليهم، ويبدءون في العمل المضاد نحوها، بما يوقف أقدامها، أو يعرقل مسيرتها على الأقل.

وفعلاً فقد وجه السيد الحكيم وكلاء، وممثلين عنه إلى الألوية والأقضية، والنواحي العراقية بغية الالتصاق بالأمة، وتوعيتها دينياً، وإرشادها إلى سواء السبيل، السبيل الذي رسمه الرسول الأعظم، ومن بعده أوصيائه أئمة الهدى للأمة الإسلامية في مختلف الأجيال والعصور.

وهي بادرة قد تكون جديدة على الجماهير العراقية، وان لم تدهش لها، وإذا قيل: إن نماذج من هؤلاء كانوا سابقين على عهد مرجعية السيد الحكيم، فإننا نرد عليهم بأنهم كانوا على قلة لم يتجاوزوا عدد الأصابع، عدا بغداد والكاظمية، وكربلاء، فإنها كانت تضم عدداً من الأعلام المتأصلين فيها، وكانت مهامهم منحصرة في الجوانب الدينية، بالإضافة إلى أن الجماهير، والظروف الموضوعية كانت بحاجة إلى روحية شابة تسهم في عملية بناء المؤسسات الدينية السياسية القيادية.

وهذه العملية الحيوية في بناء القاعدة الجماهيرية في كافة أنحاء العراق كانت تحتاج إلى زمن كافٍ لتعميق الخط المرجعي، والفهم السياسي الإسلامي للحكم والدولة، وترسيخ واقعه الجذري في نفوس الغالبية التي ركضت لا شعورياً وراء الشعارات الزائفة البراقة، وأخذت تُسْتَغَل كأداة للاستعمار لتفتيت الطابع الديني الذي كان يسود البلد من جنوبه إلى شماله، وبكافة قطاعاته وفصائله.

ولا ينكر أحد أن هذا الاتجاه الإيماني لو حصل على زمن كافٍ ومرحلة جادة فاعلة، كان لاشك تأثيره أكبر بكثير، ومع هذا فلابد أن لا ننكر أن الحركة الإسلامية في العراق لاقت موقعاً وقبولاً جيداً من هذا التحرك المرجعي العملي المنفتح، بما ساعدها على الخروج من دور الكتمان المرهق إلى العمل الجاد البارز في ظل المرجعية الرشيدة.

ثالثاً: ولم تقتصر المرجعية الحكيمية القيادية على انبثاق هذا التحرك الرسالي، وتنويره في نفوس الجماهير لمجابهة الطوفان الانقلابي الذي حصل في العراق بعد تقويض الحكم الملكي، بداية العهد القاسمي، ومروراً بدور البعثيين الأوائل، و إلى عهد الأخوين العارفين، ثم انتهاء بجحيم البكر وصدام، إنما عملت على ترشيده من خلال توفير الأسباب للوعي الإسلامي، وتهيئة عوامله، وأسبابه، ووضعه في متناول كل الفصائل الجماهيرية، التي أخلصت للقيادة الدينية، وإيمانها بكونها متطورة مع الظروف الموضوعية، والزمنية، وهي بإيجاز:

أ - تهيئة جيل مؤمن واعٍ يحمل قسطاً من المعرفة، ويتحلى بسعة الصدر، ويرفض الجبن والخور، ويصبر على المكاره، ويستعد للتضحية، وهذا ما استدعى أن يعمل على الاهتمام بالحوزة العلمية، وتطويرها بما يتماشى وحاجة المرحلة الراهنة، وحين عمل على تحقيق ذلك لم يقتصر على الأسلوب التقليدي في هذا المضمار، بل شجع وساعد على فتح كليات ومعاهد في النجف وبغداد لتحمل هذه المسؤولية، فكانت كلية الفقه في النجف، ودورة السيد الحكيم في النجف، وكلية أصول الدين في بغداد، ثم الإيعاز بتأسيس (جامعة الكوفة)، وقد تلمس السيد الحكيم (قدس سره) إمكان طرح هذه المؤسسات الثقافية للأمة، ومدى ضرورتها، وحاجتهم لها فأقدم عليها، فالإنسان الفارغ لا ينفع فيه، وكما تفيد المقولة (فاقد الشيء لا يعطيه).

ب - و إلى جانب ما تقدم، فقد لاحظ أن غالبية الجماهير لم يتهيأ لها الدخول في مثل هذه المؤسسات الجامعية، فأمر بتأسيس مكتبات ثقافية إسلامية في الكثير من المدن والقرى العراقية، ليكون في أمكان أي إنسان الاستفادة من الفكر الإسلامي، وفي الحقيقة أنها أصبحت منتديات لنشر الثقافة والمعرفة الإسلامية.

جـ - المساجد والحسينيات: فإنهما أصل الوسائل الأساسية لتثقيف الجماهير لو تهيأ لها من يحسن أدارتها، ويخرجها من الصورة التقليدية إلى مدرسة توجيهية إرشادية، فلم تكن الثورة الإسلامية عبر العصور إلا نتيجة لهذه المدارس والمعاهد الدينية الخلاقة الفاعلة، ولهذا كان من مهام مرجعية السيد الحكيم العناية والتركيز على هذين المعهدين، وتهيئة موجهين لها بما يناسب الظرف الراهن والمرحلة، من أجل مجابهة المد الكافر الزاحف لنا عبر الغرب والشرق، بلونٍ وآخر.

د - ولابد -ونحن في عرض موجز لأهم منجزات المرجعية للسيد الحكيم- أن نذكر اهتمامها بالجانب الإعلامي المركز ضد قوى الكفر والانحراف الذي أطلقت لها حرية التعبير عن مبادئها المزيفة، وأفكارها المستوردة بأية وسيلة ممكنة لها، في حين كانت الجماهير الإسلامية تعاني من كبت واختناق، ومصادرة لحرية التعبير عن آمالها وآلامها في مجتمعها، وهذا الحال أخذ يتفاقم في العهد القاسمي بعد انقلاب 14 تموز 1958، ويأخذ حالة مد وجزر في العهود التالية، وبلغ أوجه في زمن البكر وصدام الأسود.

ومن أجل إيجاد حركة مضادة لهذا الطابع الشاذ أوعز السيد الحكيم بإقامة الاحتفالات في شتى أنحاء العراق في المناسبات العامة والمختصة بمواليد ووفيات الرسول الأعظم وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، أو أي مناسبات تاريخية أخرى تتلائم والطابع الديني، وأصبحت هذه الاحتفالات طيلة عشر سنوات منبراً عاماً

للتعبير عن كل القضايا الجماهيرية المسلمة الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. وأخذت طابعاً خاصاً عبرت عن اهتمام المرحوم السيد الحكيم، ومعالجته للأمور التي تهم جميع الناس في العراق، على اختلاف طبقاتهم، وفصائلهم، ومذاهبهم، وأصبح الحاكمون يأخذون ما يلقي فيها من نثر أو شعر أموراً تعبر عن رأي المرجعية، وخاصة حين كان يرعى السيد الحكيم (رحمه الله) بعضها بكلمة توجيهية، وعلى الخصوص مهرجان النجف الأشرف بميلاد الإمام الحسين عليه السلام في الثالث من شعبان، ومهرجان كربلاء بميلاد الإمام علي عليه السلام في 13 رجب فقد كان المفهوم السائد لدى الشعب العراقي كافة أنه منبر المرجعية، وكان عادة يفتتح بكلمة توجيهية مهمة له، تعبر عن موقف المرجعية من الأحداث العامة التي يمر بها العراق وغيره في ظل الحكومات المنحرفة عن طريق الصواب، وفيها من النصح والإرشاد والوعد والوعيد لحكام المسلمين عامة على اختلاف شعوبهم، والعراق خاصة. وكان لي شرف إلقاء مذكرة الاحتفالات التي تتضمن مطاليب الأمة، وكنت أعرض فقراتها على سماحته وأنال موافقته عليها وتوجيهاته في زيادتها أو حذف بعضها، وكانت بصورة عامة تتضمن مايلي:

- مطالبة حكام العراق بالرجوع إلى الدين، وعدم تنكبهم طريق الحق، وإلغاء القوانين المعارضة للإسلام، كقانون الأحوال الشخصية الذي سن في عهد عبد الكريم قاسم، والذي يساوي -في إحدى مواده- بين حق الذكر والأنثى في الإرث، وهو تحدٍّ صريح للقران، الذي يقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]. وقد أصدرت -بناء على رغبته- كتاباً نقدت فيه القانون المذكور من وجهة النظر الإسلامية.
- كذلك المطالبة بإعادة مجلس الشورى الذي عطل من أول انقلاب في العراق عام1958إلى عهد صدام، فقد أعاده باقتصار على

أزلامه وجلاوزته وأعوانه، والمرتزقة من حوله.

- إعطاء الحرية للأمة لتعبر عن أفكارها ومعارضتها للنظام.
- إعطاء حقوق الأكراد المغتصبة.
- معالجة الأوضاع الاقتصادية التي كانت تتردى يوماً بعد يوم.
- إطلاق سراح السجناء الذين طمروا في ظلم الزنزانات بصورة تعسفية، أو لأنهم يطالبون بالنظام الإسلامي.

وإلى غير ذلك من المواضيع الآنية التي كانت تمثل حاجة الأمة واهم مطا ليبهم الأساسية، وكانت هذه القضايا هي محور أحاديث المتكلمين نثراً أو شعراً في تلكم الاحتفالات، وهي تعبر بمجموعها عن رأي المرجعية الدينية، التي كانت متمثلة بآية الله العظمى السيد الحكيم (رضوان الله عليه).

ولقد دعم هذا الجانب بتوجيهه في ضرورة إصدار بعض المجلات، والتي يمكن بواسطتها تغطية أخبار المرجعية والحركة الإسلامية، وكانت أشهر هذه المجلات: الأضواء، والإيمان، ورسالة الإسلام، بالإضافة إلى الكتب الإسلامية التي كان يشجع على إصدارها، وتضمينها معالجة الأوضاع الشاذة، ومجابهة الانحراف الذي كان يطغى في العراق يوماً بعد يوم.

هـ - إن المرحوم السيد الحكيم كان لا يألو جهداً في تشجيع الشعائر الإسلامية وخاصة منها المظاهر الجماهيرية، لأنه كان يعتبرها عاملاً لشدّ أحاسيس الناس ومشاعرهم نحو واقعهم الديني، ومن هذا المنطلق كان يبذل بسخاء في تشجيع المواكب الحسينية، والمجالس الإسلامية العامة، ومواكب الطلبة التي أرعبت النظام التكريتي في حينه.

لقد حاولت مرجعية السيد الحكيم، أن تعطي مركز المرجعية بعداً دينياً، واجتماعياً، وسياسياً، بحيث تستطيع التحرك على المستويات العامة،

وفي مختلف المجالات. فأوعز بتأليف (جماعة العلماء) في النجف الأشرف، ثم في بغداد، تضم نخبة من العلماء العظام في مستوى المسؤولية، يعيشون الظروف، والمرحلة الحرجة بفهم عميق، وفكر واسع، وموضوعية تتلائم مع سيل الأحداث السياسية التي كانت تعصف بالساحة العراقية عقب الانقلاب القاسمي، وتلاطم التيارات المنحرفة في هجمة شرسة تحت ظل نظامه الذي كان يحاول إعطاء الحريات للجميع، حتى ولو أدى إلى إرباك الوضع العام في الساحة العراقية، وتسلط الفئات الباغية على الأمة بلون وآخر، ثم الأنظمة التي تلته. وكان من الطبيعي أن يكون لجماعة العلماء في ذلك العهد دور فاعل متسق مع ضرورة اتخاذ الموقف من قبل المرجعية لهذه العناصر المنحرفة، والتي حاولت تغيير الوجه العريق لعراق الإسلام.

إن هذه المظاهر وغيرها - مما يضيق المجال بذكرها - ميزت مرجعية السيد الحكيم عن سابقتها، وأعطتها بعداً إسلاميا عالمياً، وزعامة روحية قل أن تحدث في تاريخ المرجعية في العراق. وأكدت على أنها قوة أساسية مستقلة، قادرة على التحرك ضد الاستعمار وضرب القوى السياسية المرتبطة به فكرياً وسياسياً.

كما أكدت قدرتها على عزل القوى السياسية الأخرى على المستوى الشعبي، ارتباطها بقائده الديني مهما كانت الظروف القاسية، ونوعية إرهابها، وعتو حاكمها في مسيرتهم الظالمة.

إن هذا التاريخ البطولي لمرجعية السيد الحكيم خلال ربع قرن أفهم الاستعمار أن الحركة الإسلامية وتعلقها بقوة قيادتها المرجعية اكبر حجر عثرة في استمرار التحكم الاستعماري في المنطقة، إذا كان الاستعمار يفكر في إبقاء ظله جاثماً على موارد المنطقة وخيراتها. فالسيد الحكيم من خلال حياته الجهادية، ابتداءً من أحداث عام 1914 إلى أواخر عام 1970، سلسلة معارضة صارخة ضد الاستعمار بكل ألوانه، وكان العدو اللدود،

الذي لا يهادن كل القوى الطاغوتية. ولاشك أن هذه الفترة التاريخية ولدت حقداً في نفوس أولئك المتضررين من وجوده وبقاءه حياً، وكانت الانقلابات تترى واحدة تلو الأخرى ابتداءً من العهد القاسمي إلى الدور الصدامي الأسود لضرب المرجعية، والحركة الإسلامية المرتبطة بها.

وحينِ قرر الاستعمار ضرب المرجعية الرشيدة المتمثلة بآية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قدس سره) على يد نظام العفالقة، أولا بتهجير الآلاف من أفراد الحوزة العلمية في العتبات المقدسة بحجج واهية، ومبررات ما أنزل الله بها من سلطان، ثم تبع ذلك ثانياً طرد الآلاف من المواطنين الشيعة بادعاء (التبعية) لإيران، ومصادرة أموالهم، وأردف ثالثاً بالعدوان على المؤسسات الدينية، استتبع بعد ذلك الإجهاز على شخصية المرجع الديني في حينه باتهام ولده الحجة السيد مهدي الحكيم بالتجسس، ثم بتضييق الخناق على السيد الحكيم (رض) وتقييد حركته، واحتجابه في بيته حتى لبى نداء ربه أواخر عام 1970م.

لكن الأمة الإسلامية حين شعرت بخسارتها العظمى بفقدانها السيد الحكيم هبت في تظاهرة صاخبة في وجه النظام العفلقي، أقضت مضجعه، حدث ذلك في أثناء تشييع السيد محسن الحكيم من بغداد إلى النجف موضع دفنه، ولم يغفل المسؤولون عن هذا الموقف المضاد، بعد أن لمسوا أن الروح الدينية لا زالت تتفاعل في الإنسان العراقي المسلم، فكرّت منقضة على أفراد الحركة الإسلامية بكل فصائلها، إعداماً وسجناً وتهجيراً.

ولكن هذا الموقف الحاد الظالم الصدامي لم يقف في وجه المرجعية التي تمثلت من بعد السيد الحكيم بآية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر، والذي قرر حمل راية المسيرة التاريخية المعارضة للنظم المنحرفة، وهو من هذه المهمة موضع القطب من الرحى -كما يقول المثل- فقد عاشها بكل أبعادها، ودار في خضمّها، مفكراً، ومرشداً، وقائداً، بل

استمر في ممارسة واجباته الشرعية مهما كلفه الأمر، لا يهادن، ولا يساوم، رغم الوعود البراقة التي بذلت له. وقد قرر وهو يلحظ الوضع المتفجر في العراق بأن العاصفة لم تقف عند حد، إنما تستهدف الكيان المرجعي بأجمعه، فلا بد أن ينطلق، ويحارب، ولتكن حربه للإرهاب الصدامي واضحةً دون مواربة. حينها بدأت الحملة عليه بتعقب تلاميذه. فتفجر الموقف أكثر بين الطرفين بإصدار فتواه المشهورة القاضية بتحريم الانتماء لحزب صدام العفلقي.

وفي هذه الأثناء انطلقت الثورة الإسلامية في إيران، وفجرت الطاقات الكامنة في الشعب العراقي المسلم، والتي كانت قد هيأتها المرجعية الدينية. هذه الثورة العملاقة التي هزت العالم، وقلبت الموازين الدولية، وكان موقف الشهيد الصدر منها: أنه دعى الجماهير الإسلامية في العراق إلى الذوبان فيها، والإيمان بقيادتها الرشيدة، والمناصرة المخلصة لها.

وعَبّر هذا الموقف عن تحد صارخ للاستكبار العالمي، الذي حسب أن المرجعية الدينية قد تفتت بعد السيد الحكيم، وهاله أن يشعر جيداً بأن الإرهاب، والموت لن يوقف عجلة التحرك الإسلامي في أطار المرجعية الدينية في العراق، بالعكس، فإن انطلاق الثورة الإسلامية العملاقة شدت الجماهير العراقية المسلمة إليها، وأكدت على ارتباطها الصميم بالإسلام وثورته البناءة، وقيادته الفذة.

ولا نذهل حين نرى الاستعمار العالمي يدفع جلاوزة صدام إلى تصفية هذا التحرك الفاعل الإسلامي، ومحاولة فصله عن الثورة الإسلامية في إيران. وفي البداية اعتقد النظام أن حجز السيد الصدر في بيته، ومنع الجماهير المسلمة من الوصول إليه محاولة هادفة لإخماد التحرك الإسلامي العراقي، وفصله عن الثورة الأم، ولكن هذا الأجراء لم يقف في وجه المد الجماهيري، والإقبال الرائع للمسلمين، وحتى أولئك المرتدين، أو الذين أضلتهم التيارات السياسية الأخرى، فضلاً عن جماهير المسلمين المستضعفة.

إن انتفاضة الجماهير الحسينية في 17 صفر عام 1397، وأسبوع بيعة الشهيد الصدر في عام 1399بالنجف، عبرتا عن حقيقة الشعب المسلم العراقي، وموقفه الحقيقي ضد النظام الصدامي، كما أكدتا على مدى أيمان الشعب المناضل بارتباطه العميق بإسلامه، والثورة الإسلامية.

وحين قرر النظام حجز السيد الصدر في بيته فترة من الزمن، ومنع الناس من الوصول إليه، ثم حين لم تنفع هذه المحاولة يجهز عليه وعلى شقيقته الطاهرة بالإعدام، ثم الانقضاض على المئات من أهل العلم، وأعلام الشريعة قتلاً، وسجناً، وتشريداً، لتخلو الجامعة النجفية من الزخم الإسلامي، وتكمّ الأفواه عن التحدث عن الدين، وشعائره المقدسة، فإن ذلك يعبر جميعه عن الخوف والرهبة من المرجعية الدينية وتحركها الإسلامي.

وصدام حين يعدم الكوكبة الطاهرة من أبناء وأحفاد وآل المرجع الديني الحكيم، وفيهم المجتهد، والمدرس والطالب في الحوزة العلمية، فإنه ينفذ أوامر أسياده في اجتثاث معالم المرجعية الدينية الشامخة، وهم آل المرجع الديني السيد الحكيم، ومحاولة منه لصد من يحمل لواء المعارضة العراقية من هذه الأسرة، في مقدمتهم الأخ آية الله السيد محمد باقر الحكيم.

أيها الأخوة العراقيون في كل مكان:

حين أذكر هذا العرض الموجز عن موقف الاستعمار العالمي من المرجعية الدينية، إنما أنبه الى حقيقتين هامتين تخصنا كعراقيين مسلمين:

الأولى: إن العملية الإجرامية التي أصابتنا على اختلاف مستوياتها، بداية من التهجير، ومروراً بمصادرة الأموال، والاستهانة بالكرامات الإنسانية، لم يكن ذلك نتيجة رغبة صدام الفردية، إنما هو تآمر الاستكبار العالمي في هذه المرحلة على الإسلام، بعد هذه النهضة الإسلامية في كل بلاد الإسلام.

الثانية: إن الشوط لم ينته بعد معنا، ولازلنا في بداية المعركة المصيرية، وسوف تمتد، فصدام لم يكن فرداً خاصاً -وإنْ قل نظيره- والاستعمار العالمي لم تمت مطامعه فينا، طالما نؤكد على أن الإسلام القدر الفاصل لنا.

ولعل ما تصلنا من أخبار بأن الدول الاستعمارية الكبرى وتتبعها الدول الاسكندنافية فتحت أبوابها لقبول هجرة العراقيين المتضررين من نظام صدام لها، خصوصاً أبناء العتبات المقدسة، يدل على أن مخططاً استعمارياً جديداً وجه إلينا في محاولة لاستيعابنا، وتذويب أخلاقياتنا، وامتصاص الروح العقائدية من نفوسنا، وعلى الأخص إذا علمنا أن هجرة معاكسة للعراقيين بدأت من قلب الثورة الإسلامية في طهران، وإذا ابتعدنا عن قيمنا الحضارية التي ننشدّ إليها طالما نحن في مثل هذه البلاد المسلمة الثورية، سهل استفراغنا من محتوانا الديني، وروحيتنا الثورية، وأصالتنا الفكرية.

وحين أتيحت لي الفرصة بأن التقي بإخوتي الأجلاء، وأبنائي الكرام في هذه الذكرى الحزينة، الذكرى الثالثة لهذه الكوكبة المؤمنة من آل الحكيم التي استشهدت، وجميع الشهداء الأبرار ضحايا نظام صدام، ومن قبلهم، فاني أدعو مخلصاً إلى:

1 - ضرورة تلاحم القوى الإسلامية فيما بينها أولا، ثم تلاحمها مع الثورة الإسلامية باعتبارها القاعدة الأساسية للمواجهة الصادقة مع قوى الطغيان والظلم.

2 - الاستعداد الكامل لدينا جميعاً للعطاء - وعلى مختلف المستويات - من أجل دعم الثورة الإسلامية التي هي منطلقنا في حقيقة تحركنا الإسلامي.

3 - الالتفاف حول المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق على

أساس كونه الأطروحة المؤيدَّة من القيادة الإسلامية الرشيدة.

4 - بذل الجهد في جمع كلمة العراقيين المخلصين في كل مكان على توحيد العمل من أجل إسقاط النظام الصدامي المتسلط على رقاب أمتنا الإسلامية في العراق ظلماً وعدواناً.

كما أدعو أقطاب الثورة الإسلامية إلى الاهتمام أكثر بالمسلمين في كل مكان لأنهم القوة الحقيقية التي نعتمد عليها بعد الله.

وكذلك بالاهتمام الأكثر بالعراقيين المهجرين والمهاجرين، الذين هم ضيوف الجمهورية الإسلامية - على حد تعبير إمام الأمة عنهم -فإن هذه الجموع فقدت كل ما تملك في سبيل التبعية لها.

أخيراً:

أدعو الله سبحانه مخلصاً أن يرحم شهداءَنا الأبرار بلطفه وغفرانه ورضوانه، وان يحفظ قائد الأمة وإمامها، وينصر جيوش المسلمين في جبهة الحق على الباطل، وأن يخلّص العراق المظلوم من الكابوس الجاثم على صدره، إنه سميع الدعاء.

الإمام الراحل السيد محسن الحكيم

في ذكرى وفاته الخامسة والثلاثين(1)

قبل خمسة وثلاثين عاما كانت ذكريات الأيام الزاخرة بالحيوية تزهو بكل ما هو جدير بالاعتزاز والافتخار؛ حيث كان «النجف الاشرف» هذا البلد العامر يمثل صوت العلم والمعرفة، وفي كل صباح، تنتظم الحلقات المنتشرة هنا وهناك في باحات هذه الجامعة التاريخية، وقاعاتها الكبرى المخصصة للمعرفة، فيلتقي فيها مئات الأشخاص درساً وبحثا وتحقيقا، وعلى مختلف مراتبهم ومعرفتهم.

على مرّ السنين الطويلة كان صحو الحوزة العلمية تنعكس فيه شمس الحرية على جامعة النجف الأشرف ذات العمر المديد، والذي يدق باب الألف عام، والتي هي إحدى أهم أربع جامعات في العالم الإسلامي، ومن يوم تأسيسها على يد واضع لبنتها الأولى الإمام الراحل أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، شيخ الطائفة - كما عرفته المصادر العلمية حينذاك- وحتى هذا اليوم لم تخبُ شمسها، كما لم يخف صوتها، وإن انتابتها ظروف قاسية حاولت خنق صوتها الهادر فباءت بالفشل الذريع.

وفي أواخر النصف الأول من القرن الماضي الهجري تسنم زعامة هذه الجامعة العلمية الدينية -والتي تمتد أجنحتها إلى مدينة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام- آية الله العظمى المرجع الديني الأعلى -حينذاك- الإمام السيد محسن الحكيم الطباطبائي -تغمده الله برحمته-، وقد تبنى

(1) القيت في النجف الاشرف في الاحتفال الجماهيري بمناسبة النصر وسقوط الدكتاتورية في: 27 ربيع الأول 1426هـ الموافق: 5/ 5/ 2005

رعاية هذا الجامعة، ووفر لها العطاء بما يساعد نموها واستمراريتها من بعده لمن يتصدر هذه المنزلة العلمية والمرجعية الدينية.

كانت حياة راحلنا العظيم الإمام الحكيم -عطر الله مرقده- زاخرةً بالعلم والعمل والفضل والفضيلة، فقد بدأ في حياته العلمية منذ أيام صباه، و ذكرت بعض المصادر: أنه شرع في تدريسه العلوم المقررة لطالب العلم في جامعة النجف الأشرف، أو ما تسمى "بالسطوح" سنة 1333هـ، وإذا عرفنا أن تاريخ ولادته كان سنة 1306هـ فمعناه أن ملكة التدريس حصل عليها وهو ابن سبعة وعشرين عاما وهي مدة قصيرة بالنسبة لطلاب العلم، بعد أن يكمل المنهاج المقرر لطالب الحوزة والتي تقدر خمسة وعشرين عاما -على أقل التقارير-فإذا أخرجنا منها -على أبعد المدد عشر سنوات للطفولة والصبا- فيبقى سبعة عشر عاما تمكن سيدنا الحكيم من استيعاب الدروس المقررة لطالب العلوم الجامعية، وهي تدل على نباهة ومقدرة رائعة يمتلكها طالب بهذا العمر.

ثم تضيف المصادر المطلعة: أنه أخذ يباشر بتدريس البحث الخارج في الفقه والأصول عام 1337 هـ علما أن ما يتعلق بالأمور التدريسية في ذلك الزمان كانت مضبوطة للغاية، ولا تقاس بهذا الزمان الذي ضاعت فيه المقاييس العلمية، وباتت الألقاب الموضوعة للدرجات والرتب الحوزوية، كآية الله، وآية الله العظمى، والإمام، والمرجع الديني، باتت عادية في هذا اليوم لكل من يرغب أن يضفي على نفسه أي لقب يشاء، وأهل العلم وأصحاب الحق الأصيل سكوت لا يتكلمون.

أيها السادة والإخوة الأعزاء...

إن الجوانب الشخصية لسيدنا الراحل الإمام الحكيم جديرةٌ بالمتابعة، والإقتداء بها، فهي درس للآخرين، ففي سيرته الذاتية مجالٌ للاستفادة منها، وفي سلوكياته خصوصية تنبع من سيرته المكونة من البيت والأسرة والمحيط والبيئة، ولقد نشأ وعاش راحلنا العظيم في تلك الأجواء التي

رافقته منذ صباه، وانتهت معه إلى مثواه الأخير، كلها تعبر عن قيمة علمية وأخلاقية وتربوية واجتماعية عالية.

لقد أتصف سيدنا الإمام بالتسامح وحبهِ للخير، وهاتان الخصلتان لدى سيدنا الحكيم ولدتا معه ونمت في طبعه كإنسانية تعبر عن واقع تجسدت فيه وهو زعيم كبير للمسلمين ينظر إليه الجميع كأب ومُربّ يرجون عطفه ومحبته وحنانه، أذكر في هذا الصدد أمثلةً صادف أني كنت طرفاً ثالثاً فيها، بإيجاز:

أ - كان احد أصحاب الفضيلة في بغداد ممن تربطه بالمرحوم والدي صداقة حميمة، وكان هذا الرجل رغم مكانته الاجتماعية وفضيلته ينال من سيدنا الإمام بشئ من القسوة، وكان مقاطعاً له لأسباب خاصة به، وفي يوم رأيته قد سبقني إلى ديواننا في النجف، ورحبت به فهو يسكن بغداد، فاجأني برسالة من أحد التجار يطلب من الإمام الراحل أن يصرف من حقوق الخمس المترتبة عليه مبلغ 2000دينارمن سهم الإمام لترميم بيت صاحب الفضيلة، وطلب مني أن أذهب لمقابلة سماحة الإمام وأطلب منه موافقته على ذلك، قلت له سيدنا مع موقفكم السلبي من سيدنا الإمام تطلب أن أقوم بهذه المهمة. رد عليّ: أطلب منك القيام بهذا الطلب واحفظ صداقتي مع والدك، ورجائي نفذ ما أريده منك.

ذهبت في عصر ذلك اليوم لمقابلة سماحة سيدنا الراحل، وكان قد خصص عصر كل يوم للإجابة على الاستفتاءات والرسائل وكان يساعده في ذلك كل من حجتي الإسلام الشيخ محمد الرشتي والسيد محمد جمال الهاشمي، ولا يقابل إلا الخاصة في ذلك الوقت، وحين دخلت عليه رد على تحيتي مستفسرا عما أتى بي وتركت "ديواني"؟ سكت ثم دخلت في حديث عن الأوضاع العامة، ولم أرغب أن أشير إلى الموضوع بمحضر الأخوين الرشتي والهاشمي كي لا يعيقان المهمة حيث يعلمان موقف السيد الطالب من الإمام الحكيم فيعيقان الموضوع، وحينما أطل وقت استعداد

السيد الحكيم للوضوء تهيئة لأداء صلاة المغرب والعشاء في الصحن الحيدري في النجف الأشرف، تبعته إلى الحديقة وبدأت أقدم للموضوع مقدمة دون أن أذكر اسم الشخص، مكتفيا بالإشارة إلى بعض ملامح الشخص، ومن مطاوي الحديث، كأنه عرفه وسكت ولم يجبني على شيء، وكأني فهمت أنه عليّ أن أنهي الموضوع وعدنا للصالة، وبعد دقائق استدعاني سماحة السيد، وطلب أن أبلغ الشيخ الرشتي أن يذيّل الرسالة بالموافقة دون أن يعلم صاحبهَا من هو، وعندما عدت لصاحب الرسالة، وكان على أحر من الجمر سلمته الرسالة وعليها الموافقة اندهش من هذا الخلق العالي، ثم طلب مني أن أصحبه إلى مقابلة السيد لرفع فروض الشكر، وفعلا ذهبنا في ذلك المساء إلى المقابلة، ورأى من سماحة الإمام كل المودة والعطف بما أنساه الماضي، وكان كلما حاول أن يشكر الإمام على عواطفه كان سماحة الإمام يغير مجرى الحديث، ولا يريد أن يعتذر الرجل المسن وهو شخصية دينية أمام الجالسين.

ب - قضية أخرى مع بعض أصدقائي الخاصين حيث جاءني يوما بحالة غير طبيعية فسألته عن السبب؟ قال: إن السيد عمك الحكيم أجاز فلان الفلاني بأن يبني مسجدا في منطقتنا، وقد شرع الشيخ بالبناء، ويفسر هذا العمل أن السيد الحكيم غير راض عنا وهو ما يصطدم مع مصلحتنا الأسرية أولا، و طعن لنا أمام القبائل المحيطة بنا ثانيا، ولا أدري ماذا أعمل؟ وأطلب منك أن ترى طريقا لسماحة السيد لعرض الموضوع عليه، وهو أب للجميع وتشرفت بمقابلة الإمام وشرحت له كل الموضوع فتأثر كثيرا لما فيه من إيذاء لهذه الأسرة وللشخص المذكور، وقال لابد من أصلاح الأمر، وفعلا كتب إلى الشيخ الآخذ الإجازة، طالباً منه أن يتخلى عن بناء المسجد وتسليمه إلى السيد، وفعلا كان ذلك.

ج - وقضية أخرى في ميدان سماحة السيد الإمام وحبه للخير، وتتلخص: أنه في عهد عبد الكريم قاسم كانت تكتلات وأحزاب متعددة، وإحدى هذه الجهات كانت تتظاهر بمناسبة وأخرى، وقد شارك في بعض

هذه التظاهرات بعض رجال الدين، وقد غضب سماحة السيد على هؤلاء، اذ يرى أن أهل العلم يجب أن يبتعدوا عن هذه الأمور التي لا تناسبهم، ومرت الأيام ولاحظت أن البعض من هؤلاء ظلموا لأنهم في الواقع غرر بهم، وبقاؤهم بهذه الحالة سوف يخل بمقامهم، وفاتحت سماحة السيد بأن يشملهم بعواطفه، وفعلا طلبهم وكشف عنهم غمة الابتعاد عن المرجعية وغضبها.

ومن هذه القضايا كثيرة، ولا يسع المجال لعرضها، إنما أخلص منها إلى أن سماحة السيد الإمام الحكيم كان يحمل في نفسه كل الاهتمام للحوزة العلمية وأعلامها وشخصياتها، ويعمل على أن يكون قدوة للآخرين، في عدم الانزلاق في متاهات السياسة المشبوهة.

أيها الأخوة الأجلاء

هناك جوانب عديدة تخص سيدنا الراحل الحكيم الكبير. ولعلي ألّم بشيء مما عشته معه، ومن الضروري أن أشير إلى بعضها ولو بصورة موجزة نحددها في محطات بما يلي:

المحطة الأولى: اهتمامه بحوزة الجامعة النجفية العلمية الدينية

السيد الإمام الحكيم عاش في الجامعة العلمية في النجف الأشرف على مدى أكثر من سبعين عاما ارتبط بها ارتباطا فكريا ودينيا، وعرف مواطن قوتها وضعفها إلى جانب هذا كان يتمنى - كمسؤول عنها – أن تتوسع آفاقها المعرفية من طريقين:

أحدهما: نظراً إلى توافد طلاب المعرفة عليها من سائر دول العالم الإسلامي، وخاصة أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام للاستفادة العلمية من الحلقات الدراسية إلتي تنتشر في المساجد والحسينيات والمدارس الدينية، وقد شجع– عطر الله مرقده– على بناء مدارس جديدة لتكون سكناً للطلاب الوافدين على النجف الأشرف لغرض الدراسات والمحاضرات، بالإضافة

إلى أنها قاعات للاجتماعات والحفلات الدينية، كما اهتم بتوفير مشاريع خدمية لها بما تساعد طالب العلم على الاستقرار في الفترة إلتي يعيشها في جامعة النجف الأشرف.

ثانياً: أنه اهتم في توثيق العلاقة بين الحوزة العلمية في النجف، وبين المؤسسات الثقافية الأخرى كالجامعات العربية والإسلامية والغربية، اعتقاداً منه أن طالب العلم اليوم يختلف عن مثيله بالأمس، فقد أصبحت أبواب العالم مفتوحة للجميع، وسوف يلتقي مع مختلف شرائح المجتمع، فلابد أن يكون الطالب الحوزوي - على الأقل- مسلحا بعلوم غير العلوم المقررة في الجامعة النجفية الدينية، وفعلا كان بعض التقدم في هذا المجال، حيث توفرت لكثير من الشخصيات الدينية وطلاب المعرفة الحوزوية الامكانية للمشاركة في الجامعات على اختلاف اختصاصاتها، فكان لهذا المزج العلمي بين القديم والأكاديمي الأثر المهم في تكوين الشخصية الدينية وخصوصاً في خارج العراق، ويمكن تلّمس ذلك بوضوح في الخارج فقد انتشر العديد من خريجي المدرستين في العالم، وقاموا بأداء واجبهم العلمي الرسالي على خير ما يرام.

إن هذا التلاقح الفكري كان من مبادرات الإمام الحكيم الرائعة في هذا الصدد وتجلى ذلك بدعمه إنشاء كلية الفقه في النجف الأشرف، وتبنيه لكلية أصول الدين في بغداد، وإيعازه لمجموعة من المثقفين والكوادر الجامعية بإنشاء جامعة الكوفة التي كان يعقد عليها الآمال لمصلحة العراقيين الذين يعملون لتكوين دولة تعبر عن التطور المعرفي، والتأهيل للوصول إلى الحكم، ولكن حكومة البعث ما إنْ وصلت إلى السلطة اجتثت هذه الجهود التي كانت أغلبها من وحي الإمام الحكيم لأنها أحست بالآمال المعقودة عليها في المستقبل، خاصة إذا وُفقت بتخريج جماعة تمتلك القابلية العلمية والسياسية، فسيكون الخطر المداهم لاجتثاث الفكر المستورد من خارج الوطن مهما كانت هويته، وسيكونون هم أولَ ضحايا هذه التوجهات المرجعية الدينية.

ولا يغرب عن بالنا أنه سمح بافتتاح مشروع مدرسة دينية باسم (دورة العلوم الإسلامية) تعتمد الطريقة الحديثة في التعليم بمناهج حوزوية مع إضافة بعض العلوم الحديثة كالرياضيات والتاريخ الإسلامي والجغرافية من العلوم التي ما كانت مقررة في الجامعة العلمية، وتعد هذه بادرة فريدة من نوعها لا يجرؤ كل أحد على القيام بها ضمن النظم الحوزوية الجديدة.

المحطة الثانية: اتساع آفاق وكلائه في العراق ليكون على صلة بأمته

وطبيعي أن تكون للمرجعية العامة وكلاء في المناطق إلتي يتواجد فيها مقلدوه، وكما أتذكر أن عدد الوكلاء في عهد مرجعية الإمام الراحل السيد أبو الحسن الاصفهاني لم يتجاوز العشرين شخصاً، تسنموا مناصبهم في المحافظات الجنوبية والوسط من العراق، وكلهم من العلماء الأعلام، ومن أسر معروفة في الأوساط العلمية، ولكن هولاء بحكم منزلتهم العلمية كان تحركهم الاجتماعي محدودا، وخاصة في التنقل بين مدن وقرى تلك المحافظة، ومن هنا كانت علاقات المجتمع العراقي بالمرجعية علاقة مرتبطة بمدى علاقة الوكيل بالمرجعية، بالإضافة إلى محدودية قنوات الاتصال الأخرى بمجاميع الناس في المحافظات.

وحين تولى الإمام الراحل السيد الحكيم المرجعية أهتم قبل كل عمل إصلاحي بتوسيع آفاق وكلائه بحيث تشمل أكثر مدن وقرى الجنوب والوسط بغية التعرف بصورة أكثر على أحوال الأمة مهما أمكن، ومعالجة مشاكلهم، علاوة على التوجيه الديني ونشر الوعي الفكري. وبهذه الطريقة تمكنت مرجعية الإمام الحكيم من توثيق العلاقة الوجدانية والارتباط الفكري والديني بين الأمة والمرجعية، والذي تجلى عبر الحضور الجماهيري عند حدوث ما يقتضي حضورهم دعما للمرجعية ولطروحاتها.

وهنا سؤال يتبادر، لماذا لم تستفد المرجعية من الجماهير حينما وقفت السلطة البعثية منه موقفاً سلبيا في أواخر عام 1969؟

والإجابة على هذا السؤال يكمن في أن الإمام الحكيم -بعد مداولات ومشاورات مع مستشاريه-قرر تجنب إثارة حرب غير نظامية لعدم توفر قيادة عسكرية وسياسية كافية لإدارة مثل هذه المعركة فأوعز إلى وكلائه بعدم التحرك المضاد حفاظا على الأرواح من المخططات الخارجية المرسومة، والتي انتهت بحكومة صدام وتصفياته لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام بما لا يخفى على أحد، والمقابر الجماعية شاهدة آثام الحكم الصدامي.

المحطة الثالثة: موقف مرجعية الإمام الحكيم من التيارات الوافدة

بعد انتهاء العهد الملكي وإطلالة العهد الجمهوري ووصوله إلى السلطة، و تنفس الشعب العراقي الصعداء اعتقادا منا جميعا أن عهد الحرية سيشمل الوطن، ورافق هذا التصور المرتجل شحنات من الكتب المستوردة تحتل أرصفة شوارع مدن العراق، وخاصة بغداد، وكانت تلك الكتب تحمل في طياتها أفكارا وتعار يف عن إيديولوجيات مختلفة، وليس بالغريب أن ينهال أفراد الشعب على هذه الكتب قراءة للتعرف على ما فيها، ولعل الكثير منها تهدف إلى غسل أدمغة العراقيين البسطاء، منها ما يصطدم مع عقيدة العراقيين، ومنها ما يكهرب أفكارهم بما تفرش دروب أحلامهم ورودا مصنوعة لا تحمل طعما ولا رائحة.

وهناك مشكلة خطيرة تفاعلت بالتظاهرات العارمة إلتي انساقت مع جو الحرية إلتي استفادت منه الأحزاب والتكتلات المنتظمة وغير المنتظمة لهذه الدولة أو تلك، ظاهر بعضها السلام وباطنها العذاب، وكادت الفترة العصيبة بما رافقها من مآسٍ تطغى على الشارع العام بالفوضى العارمة، والاستهتار بالقيم الإنسانية فضلا عن الدينية، وبدت مقدمات العواصف الهوجاء تأز في البلاد.

فما كان من المرجعية الدينية، والمتمثلة بالإمام الحكيم إلا أن تقوم بعمل ما في مجابهة هذا التيار بطرق متعددة:

1 - طبع الكتب التي تتبنى الفكر الإسلامي والعقيدة والوطنية، وإقامة معارض للكتاب العربي والإسلامي، وكتب التراث.

2 - عقد ندوات عامة تعالج الأجواء الطارئة التي بدأت تثير الفوضى، وانتشار الطائفية المقيتة، والأعمال الاستفزازية التي أرعبت المواطن.

3 - إنشاء مكتبات عامة في مدن العراق الرئيسية، وتوجيه الناس إلى قراءة الكتب التي تحفظ الذهنية العامة من الانجرار وراء العاصفة.

4 - إقامة احتفالات عامة بمناسبات ذكرى مواليد الائمة ووفياتهم.

5 - تشجيع المؤلفين والكتّاب على إصدار ما يمكن إصداره في جميع أنواع المعرفة، وخاصة التي لها علاقة بالواقع المعاش، ومناقشة ما يصدر من إعلام مضاد.

6 - إلزام كافة وكلائه أن يتحدثوا في المساجد والحسينيات بما يفند الحملة التي شنت على الإسلام بعنوان التطور والحداثة.

هذه الأمور العديدة لم تكن في واقعها مجرد عملية رد فعل لتلك الهجمة الشرسة التي رافقت التحرك الذي حدث مباشرة بعد انتهاء العهد الملكي، وقيام النظام الجمهوري الذي عانى منه المواطنون العراقيون أنواع الضيم والتعسف والاستبداد والدكتاتورية والذل. بل هي مخطط لتكوين رأي عام محافظ ومتدين يحمل الحس السياسي والهم الديني. هذا على الصعيد الوضع الداخلي.

المحطة الرابعة: صلاته على الصعيد الخارجي يمكن إجازها بالآتي:

أولاً: تشجيعه لحركات التحرر على المستوى العربي والإسلامي

في الخمسينات من القرن الماضي وحتى نهاية الستينات، وهي أوج زعامة الإمام السيد الحكيم حدثت في العالم العربي والإسلامي قضايا مصيرية هامة لها أثرها في الوضع العالمي، كموضوع الثورة الجزائرية،

والعدوان الثلاثي على مصر، وانتهاء العهد الملكي في مصر وميلاد العهد الجمهوري في العراق، وقضايا الانقلابات في سوريا. ومشكلة تحرير فلسطين، والقضاء على الإمامة في اليمن، وغيرها من القضايا إلتي تخص العالم العربي، كان الإمام الراحل السيد الحكيم يعيشها ويهمه استقرار تلكم البلدان بما فيه خير العباد والبلاد، وقد ساهم مساهمة فعالة في تلك الأحداث برسائله أو وفوده.

ثانياً: وكذلك كان موقفه من الأحداث العامة إلتي اجتاحت بعض الدول الإسلامية وخاصة فيما يتعلق بإيران، وتشجيعه نهضتها الإسلامية إلتي فجرها الإمام الراحل السيد الخميني -تغمده الله برحمته- واعتداء الشاه ايران على العلماء الأجلاء في مدينة قم، وترحيبه بالإمام الخميني حين انتقاله إلى النجف وبوساطة منه.

وبالنسبة لما يحدث في باكستان والهند فكان يتابع ما يحدث هناك نظراً لوجود عدد كبير للمسلمين الشيعة فيهما، وكان يدعو دائما إلى الاستقرار ومعالجة القضايا الناجمة من التوتر المذهبي، أو الاجتماعي أو الإثني، وكذلك ما يحدث من صراع مرير في كشمير، وأفغانستان وغيرهما من الدول الإسلامية فقد كان يحرص كل الحرص على متابعة الحلول التي تتعثر أمام تضارب الأحزاب والتكتلات، وانعكاسها على المسلمين من أخطار ودمار.

المحطة الخامسة: لقاؤه مع المسؤولين وعلى مستوى الملوك ورؤساء الجمهوريات

وكان سيدنا الراحل الإمام الحكيم مقتنعاً بالمقولة المشهورة: "إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فقل بئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فقل نعم الملوك ونعم العلماء".

كان المتعارف أن يلتقي المراجع والعلماء مع الوافدين إلى زيارة

النجف أو بمهمة خاصة معهم على الأعم الأغلب في الحرم العلوي، أثناء زيارة الوافد للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وبذلك يعتبر عدم قصد من أي طرف للآخر، وكان آخر اجتماع حصل من هذا النوع بعد تتويج الملك فيصل الثاني، حيث التقى مع خاله عبد الإله في الحرم العلوي مع المراجع والعلماء، وكان مع الإمام الحكيم آية الله المرحوم الشيخ عبد الكريم الجزائري، وآية الله السيد علي بحر العلوم وبعدها لم يلتق الإمام الحكيم مع أحد من الرؤساء والشخصيات مهما كانت درجتهم إلا في بيته في الكوفة أو النجف، وسن بذلك سنة حسنة تجسيدا للمقولة السالفة الذكر: "إذا رأيت العلماء....".

المحطة السادسة: هل كان الإمام الحكيم يرعى الحركة الإسلامية، أو يدعو إلى حكومة شيعية؟

الواقع أني طيلة الزمن الذي كنت من الحلقة الخاصة للإمام الراحل ما رأيته يوماً يمنع أحدا من التعاون مع الحركة الإسلامية، ولم يكتب شيئاً ضدها، بل العكس أنه كان يعلم أن بعض وكلائه من الحركة الإسلامية، كما لم يمنعنا من التعامل معها، او الاستعانة ببعض رموزها في تحرك المرجعية بقضايا الوطن، ومعارضة الحكومات إلتي يعلن السيد عدم رضاه عنها، كما كان يستقبل رموزها في كثير من المناسبات، كما كان رحمه الله مرجع 90% من جماهيرها.

أما بالنسبة إلى الدعوة إلى حكومة وطنية فأذكر قضية واحدة يستطيع الإنسان أن يستفيد منها جواباً لهذا السؤال الذي تكرر على لسان أكثر من واحد، ويتلخص: بأنه في عهد رئاسة عبد السلام عارف اشتد التوتر بين المرجعية وبينه، ولعله بسبب القرارات الاشتراكية التي أصدرها، حين رأى سماحة السيد فيها غمطاً لحقوق الناس، وتنفيذاً لطائفيته الشديدة مع الشيعة، شجب سماحته ذلك، وأضربت النجف وبعض مدن الجنوب والوسط تأييداً لموقف السيد الحكيم وشجب العمل الحكومي ألذي أرُيد به

مصادرة أملاك بعض تجار الشيعة في بغداد، وعلى أثر ذلك صرح عبد السلام بأنه سوف يقف من المرجعية موقفاً قاسياً في المستقبل، وقد أثار تهديده المبطن وتطاوله غير المؤدَّب على مرجعية الشيعة أثار اتباع المرجعية وجمهورها، فما كان من أهالي المشخاب والقادسية ونواحيهما في محافظة الديوانية إلا أن هاجموا دوائر الدولة، في هذه المنطقة واحتلوها، وعند ما وصل نبأ ذلك إلى سماحة السيد، أمرني وولده السيد محمد باقر شهيد المحراب أن نذهب إلى المنطقة وننهي الإضراب ونخلي دوائر الحكومة من المحتلين، ولم يقبل النقاش في ذلك، وامتثالا لأمر الإمام نفذنا ما أراد، وبعد عودتنا التقيناه و سألناه عن السبب، فرد علينا -رحمه الله-هل هيّأتم مسؤولين لهذه المهمة لو أن الأمر صار بيدكم؟ أو تعطوه لقمة سائغة لغيركم؟كما لقفها الغير من قبل؟ وفهمنا مغزى رأيه وصحته، وأخذنا نهيء كل شيء لمثل هذا الموقف وقد عملنا من ذلك اليوم إلى تهيئة مجموعة لهذا الغرض، وقمنا باختيار عدد من السياسيين وشيوخ العشائر والمثقفين والأكاديميين، ولكن أذناب البعث كانوا لنا بالمرصاد، فاعدموا من أعدموا وسجنوا من سجنوا وهرب منا من تمكن من ذلك وفشل مشروع تصحيح المسار الحكومي حينذاك من التعصب الطائفي الخبيث.

ومن هذا الموقف وغيره من الحوادث التي عشناها في تلك المرحلة أعتقد أن سماحة السيد المرحوم الكبير كان يتمنى أن تصل مجموعة من المسئولين الشيعة إلى سدة الحكم ليُرفع عنهم الغبن الذي أصابهم بداية من تشكيل ما يسمى بـ " الحكم الوطني"، وإلى يوم سقوط نظام الطاغية نزيل جحور الجرذان.

نحن لا نريد لأنفسنا أن نكون طائفيين أو هدامين لهذا الوطن، وإنما نريد حقنا المضاع في تخمة ورثة الحكم العثماني الغابر، والذين يحاربوننا اليوم بما يسمى بالمقاومة المجرمة إلتي وجهت حرابها وسياراتها المفخخة وهاوناتها وانتحارييها الذين تستوردهم عصابات صدام وجلاوزته. أقول لهم وبكل صراحة، إنَّ أحلامكم الإجرامية لا يمكن قبولها فهي مرفوضة رفضا

قاطعاً. فالمقابر الجماعية، وأعمالكم المشينة القاتلة، وقتلكم الشعب على الهوية، وأعمالكم الطائفية المقيتة لا يمكن نسيانها وسنبقى معاهدين سيدنا الراحل الإمام الحكيم أننا على خطه وصبره بما تحمله من الزمر الخائنة نسير، ونعاهد الله سبحانه على ذلك.

وإلى روحه الطاهرة، والشهداء الأبرار من أنجاله وأسرته، وجميع شهداء معركة الحرية والشرف من بيوتات النجف أو العراق المضام من عهد صدام إلى أرواح أولئك جميعا الرحمة الوافرة و السلام الدائم ما اتصل الليل و النهار.

آية الله العظمى
السيد محمد باقر الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23] صدق الله العلي العظيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد رسول الأمين، وآله الغر الميامين، وصحبه المنتجبين.

السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات ورحمة الله وبركاته.

في هذه الأمسية الشاحبة الحزينة، التي تلفها الذكرى الرابعة لاستشهاد الأمام السيد محمد باقر الصدر "رضوان الله عليه" ينعقد المؤتمر الأول للشهيد الصدر في لندن تحت شعار "كل ارض كربلاء وكل يوم عاشوراء" وعلى خطى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وفي ظل قيادة أمام الأمة الإسلامية ومفجر ثورتها السيد الخميني دام ظله العالي.

ومن منطلق هذه الثوابت الأساسية للحركة الإسلامية البناءة الأصيلة التي تحد مسيرتنا الرسالية النضالية، وكفاحنا الجهادي من أجل تحقيق غايتنا المنشودة، وهي أقامة حكم العدل الإلهي في الوطن الإسلامي الكبير، وفي المقدمة عراقنا الغالي، ولعلنا نستطيع ان نوجز تلكم المبادئ بما يلي:

أولاً: الأيمان الكامل والتائيد المطلق بقيادة الأمام الخميني العظيم للأمة الإسلامية أماما وقائداً ورائداً، نظراً لكونه الشخصية الفريدة التي أفرزته الظروف المعاشة، والساحة الإسلامية لتحمل المسؤولية القيادية لكل

الجماهير المسلمة على اختلاف أرائها، وميولها، وأقطارها، ومواقعها.

ولقد أثبتت الأحداث التاريخية التي مرت على الأمة الإسلامية في إيران بسلامة القيادة، ونضجها، وبعد نظرها وشموليتها، إضافة إلى عمق الأيمان الرسالي الذي تتجلى فيها.

وهي بمجموعها تكونّ ظاهرة رائعة، قد لم، تفرزها الأعوام إلا نادراً في خضم الأحداث المصيرية.

لذلك فان على الأمة الإسلامية المجاهدة أن تلتف حول هذه القيادة المخلصة، وتؤكد لها الانقياد في مسارها الجهادي في مواجهة الاستعمار، والظلم، والانحراف، والطغيان حتى يتحقق لها النصر في الأهداف الإنسانية النبيلة وتثبيت المثل الإسلامية العلياء وقيمه الرفيعة، وتذوب فيها كما أوصى شهيدنا الصدر "ذوبوا في الأمام الخميني، كما ذاب هو في الإسلام".

ثانياً: أن الشهيد الصدر في حياته العلمية والعملية كان له الدور المميز في تجسيد الحركة الدينية الرائدة للأمة في العراق، فهو من جهة عالم كبير، له موقعه العلمي في الحوزات العلمية الدينية في النجف الأشرف، وكربلاء، وقم، وخراسان، وطهران، وغيرها من مراكز المرجعية الإمامية، بالإضافة إلى اشتهاره الواسع في المراكز العلمية الأخرى كالأزهر الشريف في مصر، وجامعة القرويين في المغرب، والمجتمعات الإسلامية ذات الطابع العلمي في سائر الدول الإسلامية والعربية، وكان لعطائه الفكري القيم المتجسد في مؤلفاته الرائعة المتنوعة الأثر الكبير في اشتهاره وتعريفه، بحيث أصبحت "في حياته" مادة حية، وموضوعا مخصصا للتدريس والمذاكرة، سواء في أوساط الحوزات العلمية الدينية، أو في أروقة الجامعات، والمساجد، وحلقات الشباب في اغلب الأقطار الإسلامية، وخاصة العراق منها، وبعد مقتله أصبحت مراجع ثبت يعتمدها العلماء والباحثون في نتاجهم ودراساتهم، لما تضمنته من أصالة فكرية، وعمق في البحث، وجدة في الأداء، وروعة في الأسلوب.

ومن جهة أخرى فقد كان يعيش المجتمع الإسلامي، وأبعاد التحرك المضاد عليه، ويضع في أولويات اهتماماته توعية الأمة إسلاميا، وبناء طليعة مثقفة من الشباب المؤمن لتحمل المسؤولية في رسم خط إسلامي هادف تسير عليه الجماهير المسلمة، الملتزمة لغرض أداء رسالتها. ومن أجل العمل بجد ومثابرة.

"وبمساعدة أخوانه المجاهدين" لخلق حركة إسلامية فاعلة، أثرت على الساحة الجهادية في العراق وامتدت جذورها إلى خارجه لبعض الأقطار الإسلامية، وأثبتت وجودها الحي في الميدان العلمي، والتحرك الجهادي في مقارعة الظلم، والباطل، ومجابهة الظالمين والطغاة، بحيث جسدت الصراع السياسي بكل أبعاده مع السلطات الكافرة من أجل إسقاطها تمهيداً لإقامة حكم الإسلام.

وكانت حياته الغالية ثمنا لهذا الدور الرسالي، والقيادة المؤمنة الرشيدة، فقد اغتاله صدام رئيس نظام البعث العراقي امتثالا لأمر أسياده المستعمرين في مثل هذا اليوم.

وإيمانا بمكانة هذا العلم الفذ، والرائد الكبير، فأننا نؤكد على اعتبار الشهيد السيد الصدر رمزاً حيا لقضيتنا العراقية، ومفجراً لثورتنا الإسلامية، ومشعلا ينير لنا الطريق في مسيرة النضال الطويل في سبيل العقيدة. وفاء منا لما بذله من فناء تام للمصلحة العليا للإسلام والمسلمين في العراق، واعترافا بحقه علينا في ترسيخ الثورة الإيمانية في أعماق الإنسان العراقي المؤمن المتطلع إلى المستقبل الزاهر بالحكم الصحيح لمجتمع العزة والكرامة.

ثالثاً: العمل الجاد، والمخلص من أجل انتصار القضية العراقية المعاشة على أساس الأولوية في سلسة قضايانا المصيرية الإسلامية العامة، وبصفتنا المسئولين عنها بالذات لان العراق هو الموطن الأصيل لنا وتربة أجدادنا وإبائنا، وموئل أولادنا وأحفادنا، ولابد ان لا نهدأ، ولا نقر حتى

نسقط الباطل وحزبه ونعيد له "جنوبه، وسطه، وشماله" وجهه المؤمن وطابعه المشرق، ونزيح عنه الهيمنة الاستعمارية، وتثبيت قواعد استقلاله الداخلي، وسيادته الخارجية، وذلك من خلال ممارسة أفراده حرية الإدارة في اختيار نوعية الحكم الذي يرتضيه لنفسه، والشكل الذي يقبله لحكومته، وبما يطمئن من الانحراف عن الخط السليم، وأبعاده عن أخطار الأهواء، والتيارات المنحرفة التي لا تمثل واقع الأمة وطبيعة مجتمع الإنسان الحر.

رابعاً: ولما كان المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق يمثل طموحات الإنسان العراقي المخلص، ويحقق الأهداف النبيلة التي سعى وجاهد من أجل تحقيقها الأجداد والإباء من قبل، على دربهم الشاق الأبناء والأحفاد قافلة تلو قافلة، وكوكبة اثر كوكبة، وما زالت مواكب الشهداء تترى ساعة بعد ساعة تحمل شموخ مجلس الثورة العراقي، فان من مبادئ الالتزام العقائدي أن ننصهر في أطار هذا العنوان، ونذوب فيه أفراداً وجماعات، ليكون قوة هائلة، وسلطة فاعلة في تجسيد العمل الجهادي من أجل تحرير الوطن الغالي، وتخليص الأمة المظلومة والرازحة في سجن صدام الكبير وتمكينه من ممارسة مركزه القيادي قي خصوص القضية العراقية في ضوء تجربة الثورة الإسلامية المسيرة، والثبات على واقع الثورة، ومفاهيمها العادلة. وان أي انحراف عنه "وبعد تأييد الولي الفقيه له" يعتبر انحرافا عن خط الشرعية العامة، ودورها الكبير في إرساء قواعد المجتمع الإنساني.

خامساً: حيث أن الثورة الإسلامية في إيران بقيادة زعيم الأمة ومرجعها، ومؤسس دولتها الأمام الخميني كانت انطلاقة جبارة هزت العالم كله، وأقضت مضجع الاستكبار وأعوانه وهددت عرش الطغاة الكبار والصغار، في المنطقة وخارجها كما عبرت بوضوح عن ظاهرة رائعة فسحت المجال في أرجاء الوطن الإسلامي الكبير إلى امتداد واقعي للصحوة الإسلامية شدت العيون المرعوبة إليها، وزرعت الهلع في نفوس حكام الأنظمة في المنطقة خاصة، وعلينا "ونحن نطلب هذه الثورة

الشريفة" أن نخلص لها بكل أيمان، ونلتفت حولها حماية لها من كيد الأعداء ولتكون في واقعنا العملي مثلاً لتطلعاتنا الإسلامية، ونبراساً لمسيرتنا الثورية، وأملا مشرقا لطموحنا المستقبلي، وسنداً داعماً لتحركنا النضالي في سبيل إسقاط نظام صدام، وحزبه الكافر.

سادساً: أيجاد صيغة مشتركة للعمل الموحد بين كل الفصائل الإسلامية الفاعلة في الساحة إضافة إلى العلماء وتثبيت قواعد أساسية لها بكل فئاته ومذاهبه، يمكن للكل أن يندمج من خلالها في أطار موحد يجمع الكلمة، ويرص الصف، طالما وان الجميع يعمل في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمته وترسيخ حكمه العادل.

ونحسب أن السير على خطى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق هو الأطروحة السليمة لتحقيق هذه الغاية وتأكيد المحتوى الثوري لكل القطاعات الإسلامية ذات الأثر الفاعل في ميدان العمل العراقي.

وفي هذا الصدد يجب أن لا نستهين بكل إنسان يحمل في أعماقه شيئا من الوعي، والتوجه العقائدي، فالشجرة لا تكون في بدايتها إلا نبتة صغيرة تنمو وتكبر مع مرور الأيام. ومن الضروري أن نهتم بهؤلاء، ونوليهم العناية بغية إنقاذهم من شباك الصيادين المأجورين، وأحابيل دعاة الباطل.

أيها الأخوة والأخوات:

أن هذه المبادئ الستة "والتي أوجزتها لكم" هي الثوابت الأساسية لمؤتمرنا هذا ويلزمنا جميعا العمل الجاد والسعي المتواصل على تحقيقها، وتجسيدها، لو أردنا صدقا تحرير وطننا الغالي من نظام القمع والإبادة والإرهاب، وإقامة حكم العدل الإلهي في إرجائه.

وأخيراً:

فباسم لجنة إحياء أسبوع الشهيد الصدر ومنظمي المؤتمر أقدم وافر الشكر، وعظيم التقدير لحضرات الأخوة الأجلاء والأخوات الكريمات

الذين ساهموا في إحياء هذا المؤتمر وإقامته، سواء منهم المحاضرين والمتحدثين، أو المشاركين في الحضور أو المسيرة، أو المنظمين له واخص منهم وفد المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي يتفضل بالمشاركة الجادة في هذا المؤتمر راجيا من الله سبحانه أن يسدد خطى الجميع لما فيه الصواب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشهيد الصدر في ذكراه التاسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه الأمسية الحزينة، وبعد مرور تسع سنوات بكل فصولها المرة والمرهقة تطل علينا الذكرى التاسعة لاستشهاد الرائد القيادي، والمعلم الهادف، والشهيد الرسالي، آية الله العظمى السيد الصدر، وأبناؤه الأحرار في كل مكان يحيون ذكراه بإصرار، وعزم، وتحدٍّ

لماذا هذا الإصرار، والتحدي، والعزم على إحياء هذه الذكرى من قبل الجماهير الإسلامية المؤمنة بريادة وقيادة الشهيد الصدر، لأنه:

1 - تجديد العهد مع رائد المسيرة الإسلامية، الذي بذل وأرخص نفسه للإسلام «القضية» . فالاستشهاد يجب أن يكون «وسيلة»، لا «غاية».

2 - العودة إلى معالم المدرسة الفكرية، والأطروحات العملية التي كان يمارسها من خلال عطائه الثر، ولغرض تثبيت الصيغة الحية للأمة في مسيرتها المبدئية عبر تاريخها الحديث.

3 - محطة من محطات التأمل من أجل التقييم، والإعداد للمستقبل الذي نعمل كلنا جاهدين للوصول إليه، وإقامة حكم الله في الدنيا العريضة.

ولا شك أن سيدنا الشهيد قد أعطى حركة الإسلام التاريخية زخما رائعا، ومنح الجماهير سلاحا حضاريا، وترك ثروة إسلامية ومدرسة فكرية ثريّة العطاء، وافرة الإنتاج.

المعلم الهادف:

وإذا كان السيد الشهيد الرائد القيادي في توجيه الحركة الفكرية التي أغنت المدرسة الإسلامية، ودفعت الجماهير المؤمنة بقضيتها إلى واقع المسؤولية الرسالية فإنه إلى جانب ذلك كان طاقة بركانية نحو تحريك

إسلامي من أجل تعبئة الأمة في ظرف هو بأشد الحاجة إلى هذه التوعية لمواجهة المسؤولية وعلى مستوى العمل الإسلامي وأود أن أتوقف لحظات هنا لنعيش تجربة من تجارب العمل الإسلامي، والذي كان سيدنا الشهيد اللولب والمحرك، والموجه، وذلك من خلال ثلاث نقاط مركزية:

1 - التوجه إلى تعبئة قطاعات الشعب ضمن الارتباط العاطفي، والولاء مع أهل البيت عليهم السلام والتأثير على مشاعر الأمة في المناسبات الدينية، والاستفادة من تعبئتها سياسياً، واجتماعيا، وتوظيف تلك الطاقة الشعبية لدعم وإسناد المرجعية، والحركة الإسلامية فكانت «الاحتفالات» المظهر الابرز لهذا التحرك.

2 - التركيز على إعداد وتبني النخبة الصالحة المؤمنة المؤهلة لصناعة التحرك، وقيادة الجماهير في المستقبل من خلال «الدورات التثقيفية»،

وكذلك مَلْء الفراغ الفكري عن طريق تهيئة المكتبات العامة في الأماكن التي توجد فيها أرضية صالحة لتنمية الأمة.

3 - الاستفادة من بث الوعي الإسلامي، ونشر المعرفة عن طريق بناء المؤسسات الثقافية التي يمكن أن تشد الإنسان إلى واقعه الديني، كتأسيس المدارس على اختلاف مراحلها، وخاصة الجامعة مثل كلية أصول الدين، وجامعة الكوفة التي انقض عليها النظام الحاكم، وهي مازالت في دور الإعداد.

ـ كيف نفهم هذا التحرك من خلال المنهج؟!

من المهم أن نفهم وندرس معالم هذا التحرك من خلال المنهج الذي رسمه «رحمه الله».

1 - كان يحاول الوصول إلى اغلب قطاعات الأمة وتعبئتها عبر وسائل مختلفة، ومناسبة لمستوى تفكيرهم.

2 - كان يرفض التركيز على مبدأ إعداد النخبة كوسيلة رئيسة من وسائل عملية التغيير بدون الامتداد إلى باقي قطاعات الأمة التي يمكن تهيئتها وتجنيدها لهذه المهمة الرسالية.

3 - كان يرى أن المرجعية الدينية تعتبر الغطاء الواقي للتحُّرك الإسلامي.

هذه تجربة حية من التجارب التي عشناها مع الشهيد المعلم.

الشهيد الرسالي:

إن شهيدنا الخالد موفق للغاية في هذا التخطيط الرسالي، ولقد رصدت القوى العالمية هذا التحرك الرائد، وتبين لهم خطورة التحرك على مصالحهم فكان الاجهاز على قائد المسيرة، أملا منهم في إيقاف هذه المسيرة.

السؤال الذي يبرز ونحن نجتمع هنا لأحياء هذه الذكرى: كيف نقَّيم تحركنا لنصرة شعبنا على ضوء أطروحة الشهيد الصدر؟

لاشك أن شعبنا قدم وما زال يقدم المزيد من العطاء النضالي في سبيل تحقيق النصر ومن خلال مشاركة أغلب فصائل القوى الإسلامية العراقية في عملية صنع النضال. هذه حقيقة لا يمكننا نكرانها، ولكن علينا أن لا ننسى:

أن القضية العراقية أذا أريد لها الاستمرار في النضال والنهوض بها إلى المستوى العالي لابد من:

1 - التأكيد على قوة الشعب الذاتية، ووعي قياداته واستقلالية قراره السياسي.

2 - ترميم البيت الإسلامي بالعمل كوحدة بناءة والظهور كقوة سياسية موحدة تجمعها قواسم مشتركة كثيرة.

3 - قبول الأمر الواقع "الذي تقتضيه المرحلة الحالية، وإن كانت مرة" بالعمل المشترك مع بقية قوى المعارضة العراقية للوصول إلى الهدف، وهو تحرير الوطن من براثن النظام الكاسر.

إننا نعيش اليوم مرحلة خطيرة، ودقيقة، وتقتضى منا أن نكون سياسيين، بعيدين النظر، ولا نبقى منغلقين على أنفسنا، وندور في حلقة مفرغة، ويكفينا أننا بقينا سنوات، ولم نحقق الهدف الذي من أجله رفعنا راية المعارضة ضد النظام الصدامي، وكانت النتيجة أن النظام باق، وأننا ما نزال نراوح في مكاننا، وقد مزقنا الأسى وأجهز علينا الإحباط.

أرجو الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا لما فيه الصواب ويحقق أماني فقيدنا الغالي فينا للنهوض بأعباء المسؤولية الرسالية ومنه النصر وهو ولي التوفيق.

الشهيد الصدر في ذكراه العاشرة

الرائد الشهيد:

❖ هاهي الذكرى العاشرة، وأبناء الصدر في كل مكان يحيونها بإصرار وعزم وتحدٍّ

❖ لماذا هذا الإصرار؟

- إنه تجديد العهد مع القائد، الذي بذل وأرخص نفسه للإسلام والقضية.
- إنه العودة إلى معالم المدرسة الفكرية والأطروحات العملية التي كان يجاريها.
- إنه محطة من محطات التأمُّل من أجل التقييم والأعداد للمستقبل.

الرائد المعلم والرسالي الهادف:

لاشك أن سيدنا الشهيد قد أعطى حركة الإسلام التاريخية زخماً وطاقة بركانية، وضح السانيه وسلاماً حضارياً، ترك ثروة إسلامية، وتراثاً فكرياً ضخماً، ومدرسةً فكريةً ثروةً معطاءً وهذا جناح واحد من أجنحة التحرك الإسلامي وهو المَعْلَم الفكري أما المَعْلَم الآخر فهو التحرك العملي من أجل تعبئة الأمة. وددت أن أتوقف لحظات هنا لنعيش تجربة من تجارب العمل الإسلامي والذي كان الشهيد الصدر اللولب والمحرك والموجَّه فيها.

التوجه إلى تعبئة القطاعات الشعب من خلال حلقة الارتباط العاطفي والولاء مع أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ والاستفادة منْ مشاعر قطاعات المجتمع مع المناسبات الدينية من تعبئتها سياسياً، والاستفادة من تلك الطاقات الشعبية كسّدٍ للمرجعية والحركة الإسلامية.

الاحتفالات:

التركيز على إعداد وتبني النخبة الصالحة المؤمنة المؤهَّلة لصناعة التحرك وقيادة الجماهير في المستقبل من خلال إعداد (الدورات الثقافية)

الاستفادة من القطاعات: في بث الوعي الإسلامي ونشر المعرفة عن طريق بناء المؤسسات الثقافية ككلية أصول الدين وجامعة الكوفة وغيرها.

مَلْء الفراغ الفكري للجماهير المؤمنة من طريق دعم مشروع المكتبات العامة وحركة التأليف.

كيف نفهم هذا التحرك من خلال المجتمع؟!

- كان يحاول الوصول إلى أغلب قطاعات الأمة وتعبئتها عبر وسائل مختلفة ومناسبة لمستوى تفكيرهم.
- كان يرفض التركيز على مبدأ إعداد النخبة كوسيلة من وسائل عملية التغير بدون الامتداد إلى باقي القطاعات.
- كان يرى أن المرجعية الدينية تعتبر الغطاء الواقي للتحرك الإسلامي.

هذه تجربة من التجارب التي عشناها مع الشهيد المعلم.

الرائد الخالد:

لاشك ان القوى العالمية قد رَصَدتْ هذا التحرك الرائد فكان الإجهاز على قائد المسيرة، أملاً منهم في إضعاف المسيرة.

السؤال الذي من أجله نجتمع هنا لإحياء الذكرى كيف نقيم تحركنا لنصرة شعبنا على ضوء أطروحة الشهيد الصدر؟

لاشك أن شعبنا قدَّم وما زال يقدم المزيد في سبيل تحقيق النصر من خلال مشاركة أغلب القطاعات الإسلامية في عملية صنع النضال هذه حقيقة

لا يمكننا نكرانها، ولكنه علينا ان لا ننسى أن القضية العراقية إذا أريد لها الاستمرار والنهوض فلابد من:

1 - الاستقلالية في العمل والقرار.

2 - ترميم البيت الإسلامي بالعمل كوحدة، والتطور كقوة سياسية تجمعها قواسم مشتركة كبيرة.

- وما محاولات الميثاق الفض. الذي تقوم به عصابات الظلال التابعة لاجندات خارجية الا انهم المحركون خلف الستار وعلينا ان نقف في وجه هذا الطابور الخطير!!

سيدي أبا جعفر ...[1].

في ذكرى استشهادك الثانية عشرة توقفتُ برهةً أرصد الأيامَ الثقيلةَ الظلِ المهز هزةَ الساعاتِ، القاتمة المعالمِ، تلك التي تمر علينا ونحن في صراعٍ مرّيرٍ "يشيب منه الصغيرُ، ويهُرم فيه الكبيرُ " مع العدوِ المتغطرس، والحاكم المتعطشِ لإراقة الدم، والدكتاتورِ الذي لا يقرّ إلا على مناظرِ القمعِ والتعذيبِ، سواءٌ في الكبارِ أم الصغارِ، في الرجالِ، أو النساءِ، لا يهم ذلك أبداً، إنما المهم أن يكون الضحيةُ إنساناً عدواً له أم صديقاً، اختلف معه، أو تملق له، جامله، أو سكت عنه.

ولقد حشد علينا هذا الطاغية كلَ أساليب الموتِ والدمارِ، من دوامةِ إلى أخرى، ومن كارثةِ، إلى نازلةِ لم يبق في الوطنِ "جنوبهِ، و وسطهِ، وشماله" بيتٌ إلا وكان الخرابُ أظهرَ معالمهِ، فكأنه أصيب بزلزالِ. هكذا يحلو للحاكم أن يرى البلادَ خراباً يباباً، والناسَ فيه مَواتاً، وليست هذه مبالغةُ بل قالها بنفسه أكثرَ من مرة، وعلى ملاءِ من الإسماع "لا أترك

(1) الكلمة التي ألقيت في المهرجان الشعري بمناسبة الذكرى الثانية عشر للشهيد الصدرفي قاعة «بورجستر» لندن مساء 16/ 4/ 1992.

البلادَ الاقاعاً صفصفا، وأرضاً خالية من الناس "وكلما بانت بوادرُ الانفراجِ من هناك تدفعها قلوبُ محروقةٌ من الألمِ أجُهضت بقدرة أسيادهِ وصانعيهِ، كي لا يقع العراقُ بيدٍ أمينة، تُعيد لفراتيه رونقَه الضائع، وتبني مجدهَ المقهورَ من جديد، وترسم روعةَ فجرهِ المسروق بالأمس القريب أنتفض الجرحُ ثائراً، في كل بقعة من أرض الوطن، ثورةً تشدها السواعدُ السمر، تعملقت فيها الارادة العراقية الأصيلة، وحزمت أواصرهَا روحُ الإمام الحسين ﷺ، وامتدت تشتعل لهباً على الطغاةِ، تدك معاقلَهم، وتهدم ابراجَهم، إنها « انتفاضة شعبان الغاضب ـ آذار المجيد» . وكانت درساً قاسياً للبُغاة، وتقزم "خلالها " المتفرعُن الجبانُ يهرع من مخبأ إلى آخر يُخفي نفسَه من أعين المجاهدين، ويحتمي وسط السراديب كأنه القنفذ يخاف من لوعةِ المظلومين، ومن غضبِ المضطهدين.

وحانت الالتفاتةُ للأسياد الذين كانوا له بالأمس أعواناً، وأصبحوا اليوم أعداء، إن جماهير "علي والحسين" تدك صرحَ قائدِ الضرورةِ، فعدّ الخطر القادم أقوى من الخطر الجاثم وسرعان ما أعطى المذلَ المنهزَم «الضوءَ الأخضر» ليدحر الزحفَ الجماهيري، فطاش المذلُ المرعوبُ، وصال المنهزم المنكوب، لايلوي على الأعداء الذين أذلوه، ودحروه وأذاقوه ذل الهزيمة النكراء، بل وُجَّه كالكلب المسعور على شعب أعزل إلا من إيمانه بعقيدته، وحرصهِ على شرفِ وطنه، فعاث فساداً، ودمر عناداً، وكان ما كان من ويلاتٍ، ومحنٍ، وضيمٍ، يغص الحرفُ من مأساتها، ويتعبُ اللسانُ من الحزن عند الحديثِ عنها.

وإلى هذه اللحظاتِ المحزنةِ التي نقف فيها خاشعين بذكراك الغالية أقول، وأشتكي: بأن أمتكَ مازالت تعاني أنواعَ الظلمِ من الحاكم الجائرِ، ووطنكَ بعدُ يرزح في خضمِ الضيمِ المرهقِ، وكل شيء حوله جامدٌ تافه.

ونحن الشعبُ الخارجُ من الوطنِ، المنتشرين في بقاعِ الأرض، ما زلنا كما كنا لانعرف لوحدةِ الكلمةِ أيَّ حرفٍ، ولا نهتم لجمعِ الصف

ساعةَ ما، وكأن هذه السنواتِ السودِ "التي تقارب ربعَ قرن" والتي عشناها في ظلِ هذا النظامِ الفاشي، جامدةٌ في أذهاننا، لا تُبعدنا عن «ذاتيتنا» ولا تجنبنا مزالقَ «الأَنا» إلى درجةٍ لازلنا نهيمُ في هوامشِ القضيةِ، ونسرحُ بتاريخِ الخيالِ بين مصالحِ الصديقِ، وأماني الشقيق، وكلما أوغلنا في الدربِ، إرضاءً لهذا أو مجاملة لذاك، ومن جراء ذلك أنغمسنا في متاهاتِ صاعقة، عُدنا على إثرها نحتطب الآمالَ المبررة، ونوُزع الاتهاماتِ المفتعلة تبريراً لموقفنا اللاإرادي والنتيجةً ما زلنا في المحطة، نرقب القطارَ الذي يحمل لنا قائدَ الضرورةِ الجديدِ ولا ندري من أيّ جهة يرُسل إلينا؟ رجاؤنا أن لا يكون حالنا أسوءَ مما مضى.

آه ياقدر ... مهما تمادت الأيامُ معنا، وطغى علينا حقدُها، وصعّدت لؤمها في محاجرنا. فالأملُ ما يزال يرف من بين دماء شهيدنا الصدر، يتسع مع الوقت ليستوعب مساحةَ الضوءِ المعطاء، وتدرء عن الوطن مخابئ الظلام.

سيدي أبا جعفر:

أعود بالذاكرة" وأنا مثقلٌ بالهمومِ" إلى يوم استشهادك، والدنيا تصرخ في وجهي ألماً، وهولُ المصابِ يثُقل خاطري، وتنسابُ الكلماتُ المحزونة لتغتسل بدموعي المثكولة لتنسج قطعة الرثاء لك، بعنوان:

" الدم المسفوح "

تـعـب الـلـيـلُ مـن أنـيـنِ الـجُـراح
فـتـلـوى عـلـى الـدمِ الـمـسـتـبـاح
وتـلـظـى أسـى عـلـى صـهـوة الـزهـدِ
فـطـاشـت تـرنـيـمـةُ الافـراح
وإذا بـالـقـيـثـارِ مـزَّقـه الـحـزُن
فـهـاجـتْ أوتـارهُ بـالـنـواح

وإذا السامرُ المعرَّسُ ماتتْ
بين كفَّيْه نشوةُ الأقداح
فتلاشت في سورةِ الحقدِ
أطيافُ انتصار بهجعةِ المصباح
طال ليلُ العذاب والفجُر
مازال بعيداً يغصُ بالإصباح
ورؤى الموتِ في ثناياه
تزداد عتواً كريهةُ الأشباح
رزحت من مَقيلها عاصفاتُ
الرعبِ، والتاعَ مقبضُ السفاح
أجهدتها الأحلام والحقدُ
يجتث الأماني وصحوةَ الملاح
إن ليلَ «البعث» الذي أثقل
الدرب عناءً ولجّ في إلحاح
ليس إلارهجُ المساءِ وإنْ
طالَ مداهُ، وعمّ كلَّ النواحي
فدماء «الصدرِ» الشهيد شروقُ
كرَّمَتْه من نورهاِ بوشاح
توقظ الأمةَ الأبيةَ للثأر
ليُشفى به شموخُ الجراح

وأخيراً كل اعتذاري اذا قَصّر فيك قولي، فهول الجرح لا يغفو، وإن طال مداه وغص في اصباحي، فسلام عليك يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوُمَ تُبْعث حيا...

في ذكرى الشهيد الصدر الرابعة عشر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

[آل عِمرَان: 169]

تنصرم من عمر هذه الذكرى العطرة لسيدنا الفقيد أربعة عَشر عاماً، ولم يطرأ عليها ما يخمدها أو يقلل من لهبها المحزن، وقد يثار التساؤل عن سر هذا البقاء الحي؟ الجواب واضح للغاية، يمكن أن يدركه كل منا، فحين نعيش واقع الفقيد الرسالي، فالانسان المنغمر ذلك الذي يضع «ذاته» فوق كل مصلحة واعتبار، فينتهي حين يموت، ويتفتت ذكره وسط العاصفة القاسية. إنما الباقي حيّاً، ذلك الميت الخلّاق، فالموت يغزو جسده فيلويه، ولكن صداه لايقوى عليه، لأنه انعكاس روحه العظيمة.

سيدنا الشهيد عطاءٌ في حياته، وعطاءٌ في استشهاده، وعطاءٌ بعد استشهاده.

أولاً: كيف كان عطاءً في حياته؟

رغم قصر عمر سيدنا الشهيد الصدر فقد كانت حياته ثرة بالعطاء، مليئة بالنتاج.

1 - على صعيد الفكر، فقد رفد الجامعة العلمية في العراق وغير العراق، بالمنهج الدراسي الرصين في الفقه والأصول، والفلسفة، والاقتصاد، والتفسير الموضوعي والعقائدي، وغيرها من الجوانب العلمية، التي أبرزت التطور المنهجي في البحث، والتحقيق.

2 - وعلى الصعيد التربوي، كان له وجود شاخص في التحرك الإسلامي

(1) القيت في احتفال مركز اهل البيت ﷺ ـ لندن ـ بتأريخ 3/ 3/ 1994

العراقي ـ بعد أن كانت جذور الروافد الثقافية فيه نابعةً من مسارب لا تمت لمدرسة أهل البيت بصلة، غير أنه استطاع بأُفقه العلمي الرحب أن يغرس الثقافية الأصيلة في أفكار المتطلعين من شباب التحرك، لينتج الحاصلَ الجيد في تقيم الفكر الإسلامي الإمامي.

3 - طرح العمل المنظم للحركة الإسلامية، التي لولاه لاتجهت إلى مسار معاكس لمدرسة أهل البيت ومما لاشك أن الفضل الجهد في توجيه مسيرة الحركة، الإسلامية نحو خطها الأصيل، الذي ضمن سلامة المواصلة إلى تحقيق الهدف الأسمى، وهو بلوغ الطموح العقائدي الإمامي.

ثانياً: كيف كان عطاءً أستشهاده؟

لقد حكم على الكثيرين بالموت من قبل النظام الصدامي الخائن، وسجلوا لهم موقفاً يمثل الصبر والجلد، والمثابرة والإيمان لكن فقيدنا العظيم، جسد إلى جانب كل هذا موقفاً إيمانياً يعبر عن عميق المسؤولية الرسالية في نفسه.

فالنظام كان يقبل منه صرف الانعزال السياسي الديني، فهو يختلف عن غيره مكانةً علمية، ودينية، وسياسية، واجتماعية. وقد يجد لقبول السكوت منفذاً دينيا يعتمده في دفع الموت عنه، وعن شقيقته البطلة، ولكن الموازنة العقلية المؤمنة في قبول البقاء مفرغاً من القيمة الرسالية، والتي هي أساس الثبات العقائدي أمام الأعداء، وخاصة في هذا الظرف الحرج وفي ظل هذا الحكم الفئوي الباغي، أو التضحية ليؤجج بدمه الطاهر صحوة الفداء للرساليين من بعده. فكان الاختيار البطل هو الأمر التضحوي مهما كلف الأمر وكانت قوافل الشهداء تتصارع مع الموت من أجل الفداء لتحقيق الطموح الرسالي من بعده.

ثالثاً: أما عطاؤه بعد استشهاده؟

فأحب من نافلة القول أن أطيل في هذا الشق الواضح الصريح، فالسيد الشهيد أصبح رمز القضية الإسلامية في العالم الإسلامي، وللعراق خاصة، وان السنوات العجاف، التي أعقبت استشهاده أكدت على هذا الواقع الرائع.

ورغم المأساة المتعبة التي تأخذ بخناق الأمة الإسلامية، فأن صدى الشهيد الصدر، يبقى يلح على كافة المستويات، سواءً منها الفكرية، أو الإنسانية، أو الفدائية.

فالشوط طويل، والقضية أبعد من هذا التصور السطحي الذي يلج أفكارنا، فنحسب ان صدّاماً وأمثاله على قاب قوسين من السقوط فصدام واشباهه من الغرب والشرق، يعيشون باطمئنان، طالما في الأفق نظام دولي جديد يلوح بالأفق. وانَّ منطقة الشرق الأوسط هي الهدف لثروتها الطبيعية؟

إذاً فأن علينا، ونحن نجاهد من أجل تحقيق الطموح الإسلامي والوطني الأصيل، انْ نجسد "وعلى طول المسيرة الصعبة " موقف الشهيد العظيم البطولي، وصموده الرائع لقبول التضحية.

لهذه القيم النضالية، وعلى كل المساحات الزاخرة بعطاء السيد الشهيد الصدر، فكراً وقيادة، وتضحيةً وفداءً، وإنسانيةً، نحتفل بذكراه في كل عام، ونستجلي منها الدروس والعبر في هذا المنعطف الخطير، الذي نعيش محنته، وقيمه، ومعاناته، بأقسى ما يتصور.

في الذكرى السابعة عشر للإمام الشهيد الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

بإطلالة شهر نيسان الحزين تعيد لنا ذكرى استشهاد الإمام آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر ـ رضوان الله عليه ـ الذكرى المفجعة التي تحمل في طياتها مأساة أمة، وضيم شعب. يتجدد ألما، وتلتهب أحزانها رغم مرور الزمن على المأساة، وتزاحم الآلام المفزعة في كل آن علينا.

ذكرى استشهاد سيدنا الصدر لها أبعادها الخاصة، فهي من القضايا القليلة التي تصطدم بها الأمة فتجهد من لوعتها، ويشكل بها المؤمنون فلن تهدأ لهم رنة، ولا يسكن لهم عويل.

السؤال الذي يلح؟

في خضم شهداء وقرابين العقيدة في الساحة العراقية، طيلة حكم الطاغية صدام تبقى ذكرى استشهاد الإمام الصدر هي الأولى في مضمار الفداء العقائدي الذي أستأثر بأبعاد القضية، وخطف عنوانها الشامخ الذي لا يبلى فلماذا كل هذا؟

- الإنسان حين تنتهي حياته بأيّ لون كان، يُخفي جسده التراب، حتى يومِ العودة، لكن هذه الأرض الكبيرة لن تتمكن أنْ تخفي تراب الراحل، وقد قيل: "والذكُر للإنسان عمرٌ ثاني". هذا العمر قد يطول، وقد يقصر، قد يكون خيراً، وقد يكون شراً، لايمكن ان يكون هذا وذاك لابد أن يطغى أحدهما، أو يهمل لا وجود له.

- نحن مع الذين يبقى لهم وجود، ولكن ايُّ وجود؟ فصدَّام دخل التاريخ من أتعس أبوابه، ولكن إلى مزبلة الزمن.

السيد الشهيد الصدر قتل وطوى جسده التراب لكن وجوده الشاخص

يرتفع كالشمس لن تخبو بتقادم الأيام، انما تتوهج اشعتها لتضئ وتعيش الدنيا بنورها.

- كان شمساً في حياته، وكان لهباً في مقتله، وكان إشعاعاً بعد مقتله.

أولاً: في حياته رافد معرفة:

في حياته ـ رغم أنه استُشهِدَ في الخمسينات من عمره الشريف، إلا ان هذه الفترة كانت زاخرة بالعطاء وعلى مستويات متعددة.

1 - في حياته العلمية:

كان وجهاً مشرفا بعطائه العلمي، الذي اعتزت به جامعة النجف الأشرف العلمية ذات العمر الألف عام فقد ترك في مختلف جوانب المعرفة معالم شاخصة أكد وجوده العلمي فيها بما لا يشوبه ما يخل بقدره كعالم ضليع مقتدر في: التفسير، والفقه، والأصول، والفلسفة، والعقائد، والاقتصاد، والتوجيه التربوي، والتاريخ، وغيرها من المواضيع الهامة التي تعبر عن إدراك موضوعي عميق، قلَّ أنْ نجده في غيره من أعلام الأمة.

- واستمر أثر هذا العطاء العلمي المثمر في المعاهد العلمية الحوزوية منها والأكاديمية في الأوساط الإسلامية والعربية، والأجنبية. وسجل اعترافاً صريحاً بجزالته الفكرية، وقدرته على تناول المواضيع بإمكانات القادر المتبحر.

- ولعل الوجه الآخر من هذا العطاء الزاخر ـ ولا تقل أهمية مما سبق ـ العدد الوافر من طُلاب مدرسته ورواد معهده العتيد، ونحن نرى الآن خيرة الأساتذة والمفكرين من جيلنا المعاصر في الحوزات العلمية هم ممن تلمذوا عليه.

والعالم المعطاء يعُرف بنتاجه: كتبه وطلابه.

وهما ميزان التقييم عدَّةٌ متوازنة تعبر كلاهما عن رافد علمي ضخم، كلما مرّ عليه الزمن يظهر أثره أكثر وتتوهج مشاعله في باحات العلم، ومنتديات المعرفة.

ثانياً: العطاء التربوي:

ثم لم يقف العطاء في هذين المضمارين، إنما اتسع تربوياً حين كانت الحركة الإسلامية في وطننا تعود في توجهاتها إلى ميادين لا تمت لمدرسة أهل البيت ﷺ، وإنما كنا نتسكع على الآخرين لنرفد من مناهلهم شيئاً يقوّم مسيرتنا الحركية الإسلامية، وحين تعرفنا على الإمام الشهيد الصدر نُقلنا من التبعية إلى الأصالة الفكرية، وله الفضل في إرساء الحركة المنظمة بعطاء مدرسة أهل البيت ﷺ، وهو أمر كان ضرورياً لنا حينذاك، ويعبر عن ولادة حرة للخط الإسلامي، والواجهة الحقيقية له.

- وفي هذا المضمار استطاع سيدنا الصدر أنْ يعالج المشكلة الفنية بإخراج هذا التوجه إلى ميدان العمل النضالي بأقصر زمان، ويثبت على الساحة العراقية حشداً من المناضلين في سبيل قضيتهم الإسلامية ما أقلق الحكام على امتداد العقود الأربعة المزدحمة بالتوجهات المعادية للإسلام، والمضادة للتوجه الوطني.

- إنَّ فقيدنا العظيم حين يكون له هذا الأثر الفاعل الممتد من أواخر الخمسينات، وحتى يومنا هذا بعطاء فدائي، يركن إلى وضع الأسس الإصلاحية والمبدئية في تاريخ العراق الحديث، ولم ولن تخمد الذكرى وإنما تستمر توثباً فاعلاً لتحقيق الهدف الأسمى.

ثالثاً: في مقتله:

تزاحمت أحقاد الجاهلية الرعناء والتخلف الدكتاتوري على سيدنا الشهيد الصدر من قبل الطغمة الحاكمة، فإنها ارتعبت بالقوة الإيمانية التي يحملها الإمام الشهيد، واتباعُ مدرسته، وكان بالإمكان له ان يهادن ـ

واستغفر الله، أو يتخاذل ـ ويتجنب المعركة المصيرية المقدسة او ينزوي من الميدان لكنه رفض هذا الموقف المتخاذل، وصمم على الفداء «والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ».

- وبهذا الموقف الشجاع البطل، اقتدى به الكثير من رواد هذه المدرسة الفدائية من أجل العقيدة والمبادئ الشريفة، والكرامة الإنسانية، وساعدت هذه التضحية منه ومن الشهيدة العلوية بنت الهدى، على تماسك هذا الخط التضحوي بما يشرف ويفتخربه.

ثالثاً: بعد مقتله:

لقد اصبح -رحمه الله- منار فداء، ومَعْلَم تضحية، وهذه ذكراه تمر علينا في كل آن تعلمنا أنَّ طريق الشرف والمجد لابد أنْ يُسْقى بالدم، وأنَّ الحياة إذا لم تزخر بالعطاء الفذ فهي تتلاشى على مرّ الزمان، وتذوب كما تذوب الفقاعات.

- إننا رُوَّاد هذه المدرسة الزاخرة بالكرم والشمم والفضل والغيرة، والإنسانية، ماذا يجب علينا أنْ نؤديه؟.

- هل نكتفي بأنْ نتلقى هذه الذكرى بالدموع والأسف والجزع، أم لابد أن نجرد حيويتها.

لاشك أنَّ الإنسان الواعي الملتزم يرى أنْ يكون استقبالنا لها بما يجدد روعتها، وذلك بالسير على خطى هذا الفدائي العظيم.

- فالشهيد الصدر خُيِّر بين البقاء مهملاً أو تابعاً للنظام، أو الموت المعُذِب، فاختار الثاني، وهنا البطولة التي نشير إليها ونقصدها، ويقول الشاعر:

الــذُّل لــلــحُــر جُــرْحٌ لا دواءَ لـــه
والـعـيـشُ فـي الـذل أنّـى شـئـتَـه عـار

- اليوم يمر عراقنا الغالي بمرحلة خطيرة قد تكون فريدة في طوال تاريخه الإسلامي، إنَّ جميع قيمنا الإنسانية، وتراثنا الإسلامي في خطر الدمار والسحق، فالضغط المتنوع المحفوف بالدم والاعتداء الغاشم يحيط بشعبنا خاصة بداية من جنوب العراق إلى فراته الأوسط، وكأنها عملية مقصودة توضح أبعاد المؤامرة الخبيثة، الحاقدة، وأطرافها معلومة منفذها صدام حسين الطاغية المجرم .

- ونحن في النتيجة مسؤلون عن الدفاع عن هذا الواقع الديني الوطني، وكي لا تكون قضيتنا المقدسة مدوّلةً، تدار فصولها من وراء الكواليس الإقليمية والدولية بخبث ولؤم فأنَّ علينا أنْ نكون يقظين للغاية، ونفطن إلى الصيحات الخيانية التي تتعإلى من هنا وهناك في تلميع وجه صدام وعودته للحظيرة العربية، ومن ثم للمجتمع الدولي وحينذاك سوف يفرض علينا الأمر الواقع ويشارك في هذا التخطيط عراقيون ممن ركضوا وراء النظام حتى لفظهم، أو تظاهروا أخيراً بلبوس المعارضة، ولا نريد أنْ نكشف اسماء، وهويات وقد نضطر لذلك. وبوضوح أذكر ما حدث قبل أسابيع في .... الكوفة من دفاع مُرًّ لصدام و.... ومن هجوم على من عارضهم وصدهم عن الكيل لمدح صدام، وهي ظاهرة خطيرة للغاية.

- العراق عراقنا، ولن نتخاذل عنه ونعاهد الله على ذلك، ورحم الله شاعرنا مصطفى السيد جمال الدين اذ يقول:

أتيناكَ لم يعْقُد بنا خوفُ ظالمٍ
ولم نتهَّيبْ قرعَ كأسِ الردى نخَبا جج
أتيناك والشاراتُ حُمْرٌ دفوفُها ج
دمُ (الصَّدْر) تجلو نارُهُ الليل والكرباَ
أتيناك نَبني ما تهدم من هوى
تفردَه الباغي، فأوسعَه نهبا

قـبـابَ عـلـيٍ والـحـسـيـن فـهـل شـكـت
قريشُ ولا مت هـجنَـهـا الـعَـربُ الـعَـربـا؟!
وهـــل أضـــربـــت (فـــاسُ) وأنـــكـــر(أزهـــر)
وســكــرت (الــزيــتــونُ) أبــوابــهــا نــدبــا
بـلـى ... زار بـغـدادَ ابنُ مـلـجـم فـانـحـنـت
نـيـاشـيـن شـمـر فـوقـه تـمـسـح الـعـتـبـا[1]
لـيـغَـسِـل عـن شـدقـي هَـجِـيـن مُـعـربِ
دمَ الـعَـرب الاقـحـاح والـلـؤم والـعَـجـبـا
وهـيـهـات يـجـلـو سـحـنـةَ الـعـبـدِ غـاسـلُ
وهـل طـهـر الـبـحـران مـن دنـسٍ كـلـبـا؟!

(1) أشار الشاعر إلى الحالات المتكررة من بعض زعماء العرب لتلميع وجه النظام من جديد.

آية الله العظمى
السيد ابو القاسم الخوئي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

1 - عام يمر على وفاة المرجع الكبير، آية الله العظمى الأمام السيد أبو الخوئي «عطر الله مرقده».

2 - المصاب بفقده أكبر مما يتصور، لأنَّ الأمة الإسلامية خسرت به علماً من أعلام الإسلام الخفاقة وجهبذا من جهابذة العلم القلائل.

3 - رعى الجامعة العلمية في النجف أكثر من خمسين عاماً ورفد فيها الفقه وأصوله بفكر جديد، كان له ميزته العلمية على أفكار سابقيه، عُرَفِ بإبداعته العلمية الفقهية والأصولية.

4 - استطاع ضمن هذه الفترة الطويلة من رعايته للحوزة العلمية ومدرستها في النجف الأشرف، أنْ يخرّج منها علماء، مبلغّين، ورساليين، وكان لهم وجود في أكثر المراكز الإسلامية في العالم الإسلامي الشيعي.

5 - ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل إنَّ بعض فحول المرجعية الدينية الحالية، والمستقبلية هم من خريجي مدرسته الفقهية والأصولية.

6 - واذا رجعنا إلى أغلب ما صدر من نتاج علمي فقهي أو أصولي خلال

(1) ألقيت في الحفل السنوي بذكرى السيد الخوئي في مركزه بلندن الأحد 12/صفر 1414 - 1/ 8/ 1993

العقود الثلاثة الماضية ومثلها بعدها لا تعدو أنها حصيلة أفكار سيدنا الإمام الراحل.

7 - وحين نرى قسما من خريجي هذه المدرسة الذين انتشروا في البلاد الإسلامية علماء وأئمة مساجد، ومبلغين، جوهر رسالتهم الدينية أن يعملوا للإسلام، وانتشار كلمته، لم تذهب بهم الأغراض الخاصة، والمصالح العامة يمينا أو شمالا، وإنما لابد ان يكون العمل لله وفي سبيل الله هكذا كان.

8 - وإذا كان ما تقدم هو الجهد العام لحصيلة مدرسته العلمية، فإنه استطاع خلال خضم هذا العمل المجهد أن ينتج اعمالاً هامة لها مكانتها في مجال الإنتاج العلمي، إلا وهي:

- معجم رجال الحديث، الذي تم في 23 مجلداً وقال عنه (قدس سره) في مقدمة هذا الكتاب:
- "إنَّ علم الرجال كان من العلوم التي اهتم لشأنه علماؤنا الأقدمون، وفقهاؤنا السابقون، ولكن قد أهمل أمره في العصور المتأخرة، حتى كأنه لا يتوقف عليه الاجتهاد، واستنباط الاحكام الشرعية. لأجل ذلك عزمت على تأليف كتاب جامع لمزايا هذا العلم".
- البيان في تفسير القران. ومن المؤسف أنَّ مشاغل الإمام الراحل حالت دون إتمام هذا المشروع القرآني، والذي لو تّم لكان حدثاً مهاً في عالم التفسير والبحث العلمي، وما صدر منه جزءٌ واحد ضم مقدمة ضافية تتناول موضوعات علمية تتصل بالقرآن من حيث عظمته وإعجازه، ومن حيث صيانته عن التحريف وسلامة من التناقض، والنسخ في تشريعاته، وما إلى ذلك من وسائل علمية ينبغي تصنيفها كمدخل لفهم القران ومعرفته.

كما يضم المجلد تفسير سورة الفاتحة كاملة.

* أما في علم الفقه والأصول، فقد استعاض بتقريرات طلابه المقرَّبين أو المختصين، الذين واكبوا محاضراته في علمي الفقه وأصوله، وأصدروا فيها مجموعة كبيرة قد تتجاوز العشرين مجلداً في الفقه وعدداً يماثله في أصول الفقه، متضمنا تأهيلات وإبدعات أصولية ميزته عن سابقيه، والحاضرين من أساطين علم أصول الفقه.

9 - ولقد كان رأيه «عطر الله مرقده» أن يشجع خريجي مدرسته الفقهية، والأصولية بطبع تقريراته على أساس المزج العلمي بين الأستاذ والتلميذ ولا شك أن ذلك يكوّن إبداعا هاما في الإنتاج العلمي المتحرك.

10 - وهو لهذه الغاية سعى مجُداً ومُشجعاً الأفذاذَ من طلاب مدرسته، ونقلة أفكاره فكانت حصيلةً يعُتد بها في المكتبة الفقهية والأصولية الحديثة.

11 - وكان همَّ فقيدنا العظيم انْ يتوسع المشروع الثقافي العام للأمة، بحيث يشمل كل قطاعات التربية ولم يقتصر على المراكز الشهيرة في العراق وإيران، فقرر ولم يقتصر على المراكز الرسالية في أيّ بلد خارج نطاق هاتين الدولتين. فكانت باكستان والهند وبعض مناطق أفريقيا، ولبنان ولندن وأمريكا وغيرهم من بعض الدول الأوربية والأفريقية مشمولة بهذا الاهتمام، اذ تأسست فيها مراكز: ، إما رئيسية، أو ظلية للمؤسسة الامّ «مؤسسة الإمام الخوئي الرسالية في لندن».

12 - وفعلا كل مركز من مراكز هذه المؤسسة قد فتح له أفقا في أجواء العمل الرسالي بما يتناسب وظروفه المتعلقة فيه، والمحيط الذي يعيش به.

13 - ولم يقتصر تحرك الإمام الراحل على هذا الجانب في هذا الظرف الدقيق، والوضع المعاش في العراق، والحكم الدكتاتوري الفارض سلطته الغاشمة بقوة القمع والإكراه. اذ كان يحُصي كلَّ تحرك مضاد قد يُشمُّ منه موقفٌ معادٍ للنظام الحاكم.

14 - وكان موقف الإمام الراحل من النظام سلبيا، يمثل الشجب والاستنكار لمواقفه القمعية واللاانسانية مع الشعب العراقي.

وعلى سبيل المثال، حين يشتد الوضع المأساوي كان السيد الخوئي يعلن استنكاره، ويمتنع من مزاولة أعماله، ويعطل دروسه، ولا يصلي جماعةً ذلك اليوم.

15 - كما أنَّ النظام في خلال الحرب العراقية الإيرانية حاول عدة مرات أنْ يضغط على الإمام في انْ يستحصل شيئا ينبئ عن موقفه المضاد للجمهورية الإسلامية، فكان الفشل حليفه.

16 - لقد اقتنع بأنَّ بقائه في النجف الأشرف على رأس الجامعة العلمية، يساعد على الحفاظ على الهيكلية العامة للجامعة العلمية ذات العمر المديد، الذي يصل إلى ألف عام، وبوجوده .... من يمكنه البقاء أنْ يستمر رغم المضايقات العديدة والمأساوية التي كانت تنصب على الباقين من طلاب وأساتذة هذه الجامعة.

17 - لم يسلم المرحوم الإمام من مضايقات كان النظام يثيرها بقصد إحراج الإمام مثل بعض الاحتفالات والمناسبات الدينية، وكان يفرض على الكبار من أهل العلم في النجف حضورها، أو التكلم فيها، وكان يطلب من سماحة الإمام أنْ يسهم فيها بكلمة توجهية، فيمتنع الإمام من المشاركة بكل ألوانها وبذلك يكون قد سجل موقفاً مضاداً معهم بعدم مشاركته، أو بتمثيله أحد أولاده وأخصائه.

18 - كان يضطر «رحمه الله» لتوضيح موقف كان القصد منه أنْ يفهم

الرأي العام العراقي والعالمي، أنه لم يؤيد موقف النظام ضد الجمهورية الإسلامية في حربه الظالمة معها. مثلا كان الإمام يقيم صلاة المغرب والعشاء في جامع الخضراء بالنجف، مرة وحين شرع في الصلاة وصلت بعض الجماهير من بينها كان بعض المسؤولين.... وأعلن تلفزيون السلطة أنَّ الإمام أدى صلاة الغائب على ضحايا الحرب من العراقيين أتباع النظام، مما اضطر السيد أنْ يعلن ويكذب في الإذاعات الخارجية ذلك، وان الشيعة لا تقيم هذه الشعيرة، وليس لديها من آداب الميت صلاة الغائب.

وفشل التخطيط الحكومي أمام إصرار السيد بالتكذيب.

19 - وحتى الانتفاضة المباركة في آذار 1991، وحين سيطر الشعب العراقي على مدن الجنوب طلبت الجماهير من قياداتها الدينية تحمل المسؤولية في إعادة الحياة العامة إلى طبيعتها وأحسَّ الموتورون من أذناب الاستعمار والنظام الخطر الناجم عن ذلك، فتم الإيعاز إلى فلول الجيش المهزوم بالانقضاض على الشعب الثائر هكذا كانت موافقه لتعضيد العقيدة يوم كان الطاغية بالمرصاد لمن كان يؤدي واجبه الديني وكان للنظام موقف وقح حين منع الناس يوم وفاته من المشاركة في تشييعه وحتى المقربين منه.

مسيرة الامام الخوئي العلمية والاجتماعية

مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام، في الإسلام "والمعروفة بخط الإمامة" نحت نحواً جماهيرياً إصلاحياً من يوم وجودها، وبالتحديد من عهد الإمام علي عليه السلام وحتى هذا اليوم.

هذه المسيرة الطويلة عبر الزمان والمكان حددت الواقع الإيماني، والتحرك النضالي والعمل الاجتماعي لهذه الشريحة الكبيرة من الأمة الإسلامية دون ان تكون لها قواعد «مؤسساتية» ترعى هذه المسيرة وتخطط

لها من أجل التطوير في المسلكية التجسيدية نحوعملية التوسع والتغيير التي ينشدها المصلحون من هذه الأمة، وضحت في سبيلها الغالي والنفيس لتملك ناصية السلطة، وتوجيه الأمة نحو مستقبل يرتضيه الله، ورسوله والمؤمنون.

ان جماهير مدرسة ائمة الهدى من آل بيت المصطفى تجلت فيهم المزايا العديدة عبر مسيرتهم الطويلة ولعل من أبرزها:

الإخلاص في العمل والنزاهة في السير والإيمان بالمبادئ، والصدق في التعامل والكفاءة في الفاعلية. ومن هذا المنطلق النبيل والفذ، أصبحت موضع اهتمام وحذر من قبل السلطات الحاكمة في كل زمان ومكان.

الاهتمام: لأنها الأمة الملتزمة عقائدياً بقيمها الأساسية، وفي سبيلها تهون عليهم التضحية والفداء.

والحذر: لان هذه المقومات قد تكمن من جَرَّاء الضغوط الهائلة عليها والمتصفة في غالبيتها بالقمع والدم، والتعذيب، والتشريد والسجن والإرهاب بصفة عامة، ولاشك في ان ذلك يفجر «الانتفاضات» "بكل أنواعها" ضد السلطات المنحرفة، التي حكمت المسلمين "باسم الإسلام" طيلة هذه السنوات الطوال.

وحيث لم تجد السلطات سبيلاً لإخضاعها عن طريق القبول والموافقة، فأنها كانت تعمد "في الأعم الأغلب" إلى طريق القمع والإبادة، والتصفيات الجسدية، وما شابهها من أساليب حكام الظلم والجور.

والمشكلة الرئيسية لهذه القضية المصيرية "الوجود أو لا وجود" ليس الأساس أن تكون المسيرة الحياتية متروكة للظروف الزمنية وعوامل الساحة الآنية ومدى فاعليتها في هذا المضمار الحي، الذي يتطلب جهداً فكرياً وعملياً في إرساء المسيرة على الطريق الصحيح.

بمعنى أخر: ان نتحرى الهدف أو الأهداف التي تطمح لها هذه الأمة في مسيرتها الحياتية، ونعرف تحديدها، حتى نتمكن من تجسيد هذه الأهداف وطبيعة تحركها على الأرض ودون تلكُّؤ، ودون وجل ودون مجاملة.

من هنا تنشأ أهمية دور العمل المرجعي الذي يستبطن قوة فاعلة من تهيئة كوادر تستطيع أن تخطط، وتهيئ عوامل التجسيد، والتحرك والتنشيط لما يمكن تحقيقه وتفعيله للوصول إلى الأهداف السامية.

هذا العمل البناء في إطار المرجعية ما كان بمستوى الواقع المعاش في كثير من العهود الغابرة، والحديثة إلى عهد قريب، مما سهل الانقضاض على المرجعية الرشيدة، وإجهاض عملها ومحو مخططاتها الإصلاحية، وبالتالي التخلص منها وبأي وسيلة كانت. في حين نرى في الجانب الآخر توفر كل هذه الوسائل التي تضمن ديمومتها، حتى وإن كان عن طريق غير شرعي. فالشريعة أمر ثانوي في تلك الأعراف.

إن يومنا هذا يختلف عن أمسنا، قد يكون اختلافاً كلياً من حيث الثقافة، والسياسة والاجتماع، وبدأ الوعي بالفكر الإمامي يتنامى نمواً محسوساً لدى الجماهير الإسلامية الشيعية، بحيث أخذت نداءاتها تتصاعد "ان لم نقل تتفجر" بين آونة وأخرى في المطالبة الجادة بأن تكون مسيرتنا العامة على مستوى الأحداث التي تفاجئ هذه الطائفة.

وهذا الوعي ان لم يتدارك بتلبية بعض طموحاته "إن لم يكن كلها" فسينفجر نقمة وغضباً على القيادات المفروضة عليه، أو الفارضة نفسها على الساحة الإسلامية الشيعية، أو المتصدية للعمل السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الديني وحينها يصعب رتق الفتق ومعالجة المشكلة.

مما لاشك إن على المرجعية الرشيدة للمسلمين الشيعة القسط الأكبر من هذه المسؤولية الأساس لحياة الأمة، باعتبارها القوة الأكبر، والأكثر

إمكانات للعمل في خلق، أو إحياء المؤسسات البناءة، والفاعلة في تطوير أو تجسيد العمل المقدم لهذا الاتجاه الحيوي للأمة، وتطوير معالمها الناطقة بالحركة المثمرة.

ولم تخف هذه النقطة المركزية على المرجعية منذ منتصف القرن الماضي الهجري فأعطت الأولوية والأهمية في مرجعية الإمام الراحل آية الله العظمى السيد محسن الحكيم "تغمده الله برحمته" ولكن ما ان أعطت مسيرة المرجعية زمامها بيد سيدنا المرجع الديني الأعلى الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي "تغمده الله برحمته" حتى أولاها الاهتمام الكبير، هيَّأ الأجواء الملائمة للمشاريع التنموية على الصعيدين الفكري، والاجتماعي.

حين نسلط الأضواء على مسيرة مرجعية الإمام الخوئي الرائدة من خلال انجازه العلمي، وتحركه الاجتماعي نستطيع ان نتلمس تطوراً هاماً في مسيرة المرجعية العامة، ويمكن أن نجسد ذلك في خطين واضحين من خلالهما نستنتج ما ندعيه وبصورة لا تدعو إلى الشك.

الأول: الانجاز العلمي:

يعتبر الإمام الراحل المغفور له السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، أحد أبرز مراجع الشيعة في العالم الإسلامي، قضى قرابة ثمانين عاماً في خضم علوم الشريعة، وذلك من حين وصوله إلى النجف الأشرف "الجامعة الدينية للشيعة الإمامية في1330هـ/ 1912م وكان من ابرز أساتذته العلماء الأعلام، وآيات الله العظام الذين التحق بدورتهم التدريسية من عام 1338هـ/ 1920م هم الشيخ فتح الله، المعروف بـ «شيخ الشريعة الاصفهاني»، والشيخ مهدي المازندراني، والشيخ اقا ضياء الدين العراقي، والشيخ محمد حسين الاصفهاني، والشيخ ميرزا حسين النائيني، وهذان الاخيران أكثر من تتلمذ عليهما فقهاً وأصولاً، وأكمل على كل منهما دورة كاملة في الأصول، وعدة كتب في الفقه واستمر خلال أكثر من خمسة

عقود يرفد المدرسة العلمية في النجف الأشرف بالنتاج العلمي، حيث كان انجازاً هاماً يمكن إيجازه بالآتي:

1 - الفقه:

حاضر الإمام الراحل طيلة ستة عقود على طلاب حوزته الفقهية "والذين تجاوز عددهم المئات" في الخارج دورة كاملة في بحوث الفقه الإسلامي من العبادات والمعاملات كانت على الوجه التالي:

أ - حاضر دورتين كاملتين لكتاب «المكاسب» وهو يضم بحوث المرحوم شيخ الفقهاء الشيخ مرتضى الانصاري المتوفى سنة 1281هـ ـ 1864م في المكاسب المحرمة وقد جعله أصلاً لبحثه، ودار حوله تحقيقاً وشرحاً واسعاً.

ب - بحث في موضوع الصلاة دورتين كاملتين استعرض آراء الفقهاء السابقين وناقشها، وأضاف عليها تحقيقاً واسعاً في هذا الباب من مواضيع الفقه.

ج - كما انه جعل كتاب "العروة الوثقى" للفقيه الكبير المرحوم السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، المتوفى عام 1337هـ -1919م اساساً لبحثه الفقهي العام ولعله المرجع الوحيد الذي انهى البحث في هذا الكتاب الفقهي القيم، والذي أصبح موضع تدريس وتأليف لكثير من العلماء الأعلام من بعده.

د - بحوث فقهية متنوعة في العبادات والمعاملات كانت بمثابة تكميل مع ما سبق من بحوثه الفقهية لدورة فقهية تضم كل أبواب الفقه الإسلامي من العبادات والمعاملات.

وكانت حصيلة البحث الفقهي، مما حرره هو مباشرة أو محاضرات له دونها تلاميذه ونشرت تباعاً، كالآتي:

أ - مؤلفـــاتـــه:

1 - تكملة منهاج الصالحين ـ1 مجلد.

2 - مباني تكملة منهاج الصالحين –2 مجلد.

3 - تهذيب وتتميم منهاج الصالحين –2 مجلد.

4 - المسائل المنتخبة –1 مجلد.

5 - مستحدثات المسائل –1 مجلد.

6 - تعليق على العروة الوثقى –1 مجلد.

7 - رسالة في اللباس المشكوك –1 مجلد.

8 - منتخب الرسائل –1 مجلد.

9 - تعليق على المسائل الفقهية –1 مجلد.

10 - تعليق على توضيح المسائل –1 مجلد.

11 - تلخيص المنتخب –1 مجلد.

12 - مناسك الحج(عربي) –1 مجلد.

13 - مناسك الحج (فارسي) –1 مجلد.

14 - تعليق المنهج لأحكام الحج –1 مجلد.

ب – ما دونه طلابه من محاضرات في الفقـه:

15 - تنقيح العروة الوثقى -9 مجلد.، وقد قررهاالشهيد سماحة الميرزا علي الغروي.

16 - دروس في فقه الشيعة -4 مجلد، وقد قررها السيدمحمد مهدي الخلخالي.

17 - المستند في شرح العروة الوثقى -3 مجلد، وقد قررها سماحة الشهيد الشيخ مرتضى البروجردي.

18 - فقه العترة -2 مجلد. وقد قررها سماحة الشهيد محمد تقي الجلالي

19 - تحرير العروة -1 مجلد. قد قررها سماحة الشيخ قربان علي الكابلي

20 - مصباح الفقاهة -5 مجلد، وقد قررها الشيخ محمد علي التوحيدي التبريزي.

21 - محاضرات في الفقه الجعفري -2 مجلد وقد قررها سماحة السيد علي الشاهرودي

22 - الدرر الغوالي في فروع العلم الاجمالي -1 مجلد، وقد قررها الشيخ رضا لطفي.

23 - مباني العروة الوثقى -4 مجلد، وقد قررها الشهيد السيد محمد تقي الخوئي.

24 - المعتمد في شرح المناسك -4 مجلد، وقد قررها الشهيد السيد رضا الخلخالي.

هذه الكتب الفقهية المطبوعة سواء من تأليفه، أو محاضراته وهي تؤلف أكثر من 40 مجلداً.

وأما المخطوطة منها بأقلام تلاميذه فهي كثيرة و تتجاوز المائة مجلد، ولعل الزمن يجود بطبعها ورفد المكتبة الفقهية بها.

2 - الأصول:

يعتبر فكر سيدنا المغفور له الأصولي من أروع ما وصل اليه علم أصول الفقه في عصرنا اليوم، ولم يكن من المبالغة إذا قلنا ان أحداً من أعلام المحققين لم يسبقه في هذا المضمار، فقد درّس وحاضَرّ عدة دورات كاملة في هذا الحقل، وتشير المصادر المختصة بأنه أكمل ست دورات وشرع في الدورة السابعة ولم يكملها بسبب تراكم مسؤوليات المرجعية الدينية العامة التي اضطلع بها، واعتقادي بأن كتابه «أجود التقريرات» من أروع كتب الأصول الحديثة، وقد ضمن فيه آراء أستاذه المحقق الميرزا

حسين النائيني المتوفى عام 1355هـ 1936م مع تلاقح الأفكار الأصولية في هذا الحقل، وقد صدرت له عدة كتب، قد تتجاوز 20 كتاباً اذكر منها:

1 - أجود التقريرات -2 مجلد، وهي تقريرات السيد الخوئي لأستاذه الميرزا النائيني.

2 - محاضرات في أصول الفقه -5 مجلد، وقد قررها سماحة الشيخ محمد اسحاق الفياض.

3 - مصباح الأصول -2 مجلد، وقد قررها سماحة السيد محمد سرور الحسيني البهسودي.

4 - مباني الاستنباط -2 مجلد، وقد قررها سماحة السيد ابو القاسم الكوكبي.

5 - دراسات في الأصول العلمية -4 مجلدات، وقد قررها سماحة السيد علي الشاهرودي.

6 - مصابيح الأصول -4 مجلدات، وقد قررها سماحة الشهيد السعيد السيد علاءالدين بحر العلوم.

7 . جواهر الأصول -1 مجلد، وقد قررها سماحة الشيخ فخر الدين الزنجاني.

8 . الأمر بين الأمرين -1 مجلد. وقد قررها سماحة الشيخ محمد تقي الجعفري

9 . الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد -1 مجلد. وقد قررها سماحة الشيخ غلام رضا؟؟

وقد طبعت هذه الكتب واعتبرت مصدراً رائعاً في علوم أصول الفقه، وهناك عدد كبير من التقريرات التي لازالت مخطوطة ولم تنشر.

3 - القرآن:

ولقد شرع رضوان الله عليه في تفسير القرآن الكريم واهتم بذلك، وكتب مقدمة رائعة مركزة عن التفسير كمدخل لتفسير القران ثم بدأ في سورة الفاتحة، وأصدر ذلك في كتاب أسماه «البيان في تفسير القران» وطبع عدة طبعات وبلغات مختلفة، كان موضع اهتمام الباحثين لما فيه من مواضيع هامة جلاها كأحسن ما يقتضي ذلك وقد حالت ظروفه القاسية دون إكمال هذا المشروع.

4 - علم رجال الحديث:

ونظراً لما لمعرفة الحديث الشريف من أهمية في بناء الأحكام الشرعية، فقد بذل الإمام الراحل جهداً كبيراً في دراسة رواة الحديث، مع ترجمة بسيطة لكل واحد منهم تبين مدى وثاقته، وموقعه من الاعتماد عليه في نقل الرواية، وأسماه «معجم رجال الحديث» وفرغ من تأليفه عام 1389هـ -1969م ويقع في 24 مجلداً طبع عدة مرات.

الثاني: الإصلاح الاجتماعي:

لقد أعطى الإمام الراحل اهتماماً كبيراً إلى جانب الإصلاحي والاجتماعي والثقافي، وأولاه عناية خاصة في حياته، فالمشاريع الدينية والثقافية والتربوية والإنسانية التي أمر بتشييدها وأنجزت، أو التي في دور الانجاز، والتي قامت بها «مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية» كلها ممن تخطيطه، ورسمه وتوجيهه، وهي بمجموعها تدل على نظرة قيادية رائدة لم تقتصر على مكان معين، أوفئة معينة، أنما أكدت على شمولية أوسع وتوجه أكبر لكل طوائف العالم الإسلامي الشيعي في شتى بقاعهم، وأماكن تواجدهم، وأوليات احتياجاتهم سواء أكانت دينية، أو ثقافية أو تربوية أو اجتماعية نظراً لما لها من تأثير فاعل على بناء الإنسان المسلم الذي يعيش اليوم غربة في عقيدته وقيمه الأصيلة أمام هذا الزخم الكبير من الإغرات

والمدنية الحديثة التي أثرت تأثيراً هاماً في تفتيت الواقع العقائدي في الإنسان نتيجة عدم توفر المقومات والإمكانات البناءة في تسييج الفكر الإنساني الإسلامي حمايته من الانحراف.

ولقد تمكنت هذه المؤسسة من قطع شوط كبير في مسيرتها الإصلاحية، وسجلت لها مواقع جيدة في دائرة العمل الفاعل في هذا المضمار. ونستطيع ان نوجز تلكم المشاريع بما يلي:

1 - **في بريطانيا**: كان لها السهم الأكبر في هذا العمل فقد تمت أربعة مشاريع هامة مترابطة تسد بمجموعها ثغرة كبيرة كانت أمتنا بحاجة ماسة إليها منذ زمان طويل هذه المشاريع هي:

أ - جامع كبير واسع كامل المرافق، تحتاج إليه الطائفة في شتى مناسباتها الدينية والإرشادية.

ب - مدرسة ابتدائية للبنين وأخرى للبنات تتوسع وتتطور مع المراحل الدراسية وكانت الحاجة تقضي إيجاد مثل هذه المدرسة، والتي يمكن بواسطتها صيانة أولادنا وبناتنا من الانجراف في تيار الحرية الشخصية الواسعة التي يعيشها طلاب المدارس في الغرب وعلى كل المستويات تبعاً للتحديث الذي أوجدته في أوروبا البطالة والتمادي في التحرر من الأخلاق والقيم.

ج - المؤسسة الثقافية، والتي على عاتقها نشر الفكر التربوي، والثقافي لمدرسة أئمة أهل البيت، ولتحقيق هذا الغرض أصدرت مجلتين «النور» باللغة العربية والإنكليزية ومجلة (دايلوكـ) باللغة الأنكليزية وقد ترجمت ونشرت في العام الماضي وحده مجموعة كتب تعرف بمذهب أهل البيت عليهم السلام في أكثر من مائة وعشرين ألف مجلد باللغة الأنكليزية بما يخدم الإنسان المسلم الذي يعيش في العالم غير الملتزم.

د - تأسيس مكتب للعلاقات العامة التي من خلالها تطرح مشاكل المسلمين الشيعة بالشكل الواقعي وبيان مظلوميتهم.

هذه أهم المشاريع الإصلاحية التي تبنتها المؤسسة الفتية في لندن إلى جانب عدد من المشاريع الدينية الاجتماعية في بريطانيا، والموجهة بترشيد العاملين في المضمار الديني، وتهيئة ذوي الكفاءة للقيام بمهام التبليغ الإصلاحي الديني ورفع مستواهم العملي.

2 - في إيران: أنجزت معهد ديني باسم «مدينة العلم» في مدينة قم، وهذا المعهد الإسلامي خصص لتدريس العلوم الإسلامية على مختلف المستويات، مع أقسام داخلية للمقيمين من أساتذة وطلاب والمتتبعين لعلوم آل محمد ﷺ وقد شيد هذا المبنى في خمسمائة منزل والعمل جار في الوقت الحاضر لخمسمائة أخرى على أحدث طراز ينسجم ومتطلبات العصر من الناحية الصحية والمكانية.

كما أنجز بناء مدرسة لطلاب العلوم الدينية في مشهد الإمام الرضا عليه السلام بخراسان، وقد هيأت فيها كافة الوسائل المقتضة لطلاب المعرفة، ورواد العلم.

3 - مركز الإمام الخوئي الإسلامي في نيويورك: وقد أُعدَّ للاستفادة الدينية والثقافية، وهو يستقبل المسلمين كل أسبوع بتنظيم برامج دراسية في مختلف المستويات والمحاضرات الأسبوعية، والمناسبات العامة والخاصة كما هُيِّئت فيه مكتبة إسلامية يستفيد منها رواد الفضيلة والعلوم كما وتضم مدرسة عصرية على غرار مدرستي لندن.

4 - مشروع إنشاء مدينة جامعية في بومبي، مع بيوت سكن لطلاب العلوم، ويقدر أن يتم هذا المشروع الديني الضخم خلال أربع سنوات، ويكون فريداً في وجوده بالشرق، مهيأً ليستوعب أعداداً كبيرة من رواد العلم.

5 - **المركز الإسلامي في تايلاند،** وقد تأسس منذ عدة سنين، ومهمته التبليغ الإسلامي في تلك الجهات.

6 - **مشروع مركز ديني لطلاب العلوم الإسلامية في إسلام آباد ـ باكستان وضع أساسه في هذا العام.**

7 - **مشروع مدرسة على اختلاف مراحلها للطلاب المسلمين الشيعة في ديربورن- مشيكان،**

نظراً إلى أن مدينة ديربورن تسكنها جاليات إسلامية كبيرة، لبنانية وعراقية ويمنية.

وهناك مشاريع متعددة لها أهميتها في دور الإعداد أو التنجيز، تقوم بها مؤسسة الأمام الخوئي الخيرية لا يسع هذا المجال لحصرها الآن.

ان هذه المشاريع الهامة تحتاج إلى قدرات عالمية وإمكانات مالية، وكفاءات جيدة، لإدارة هذه المهام في الساحة الإسلامية، والثروة الثقافية للصحوة الإسلامية في عالمنا اليوم.

من هذا كله نستطيع أن نضع خلاصة لما تقدم في المضمارين العلمي، والإصلاح الاجتماعي وهو:

أ - ان الإمام الراحل رفد المدرسة العلمية الإمامية بعمل ضخم في الفقه وأصوله والتفسير، وعلم الرجال ولاشك أن هذا الوفرة العلمية سيكون لها أثرها في تقويم المدرسة الفكرية الإسلامية الإمامية.

ب - انه استطاع بمثابرته العلمية ومواكبته في هذا المضمار طيلة العقود الستة التي مثلت عمله العلمي ان يخرج عدداً كبيراً من الأعلام انتشروا في العالم الإسلامي، لأداء المهمة الرسالية الإسلامية، سواء بشخصياتهم العلمية، أو بنتاجهم الثر.

ج - اهتماماته الكبيرة بالجاليات الإسلامية في العالم الإسلامي والعمل الجاد على تهيئة الإمكانات الثقافية لهم بما يرفع من شأنهم وقدراتهم العلمية وعلى كل المستويات.

ولاشك ان المسيرة الحياتية للمسلمين الشيعة في الحاضر أكدت على حقيقتين هامتين لا يمكن التغاضي عنهما.

الأولى: ان تطور مسيرة المرجعية من خلال مرجعية الإمام الخوئي (رضوان الله عليه) يعرب عن واقع جديد فرضته الظروف المستجدة للأمة الإسلامية وانه أمر لابد من أخذه بنظر الاعتبار.

الثانية: ان التطور لابد وان يكون في الشكل والمضمون في اطار التحرك العملي لمسيرة المرجعية وهذا ما تبناه الإمام الخوئي (رضوان الله عليه) في مسيرته الفكرية والإصلاحية والاجتماعية.

كما وأن علينا كافة أن نتعايش مع هذا التطور، وننسجم معه، ونتجنب التخلف عن الركب الحضاري، والانصهار في تياره ليمكن دفع العمل البناء إلى الإمام.

فالأزمة الخانقة التي يعيشها المسلمون في كل مكان "وفي هذا العصر بالذات" تركت سلبية وحذراً في تفكير وسلوك الإنسان الشيعي يوسمه بصفات غير إنسانية وأخلاقية طارئة مما أدت إلى الحذر منه، وهي ليست منه، كما انها ليست من طباعه، ففي كل الطوائف والشعوب صالح وطالح وليس من الأنصاف ان تحمل مشاكل البعض على الكل فان الاختلاف في الاتجاهات الفكرية، أو التباين في الخطوط، أو التعارض في المبادئ الثانوية طبيعي في البشر، وعلينا ان نقيم الأمر بأسلوب موضوعي دون تحيز وانعطاف في الأهواء.

ان هذه المشاريع التي أسسها إمامنا الراحل الإمام الخوئي (رضوان الله عليه) لابد ان نحتضنها بكل جهدنا، ونهتم بها ونجل كل القائمين على

تنفيذها وفي مقدمتهم الأخوين الجليلين حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد تقي الخوئي وحجة الإسلام السيد عبد المجيد الخوئي نجلي الإمام الراحل ونشد على أيديهما بأن يحققا آمال الأب العظيم، الذي كرس حياته لأمته، وذهب لربه عظيماً كريماً. وبما يساعد على ديمومة المسيرة الإنسانية وتحقيق ما توخاه إمامنا الراحل منهما، والله المسدد للصواب.

سيدي الإمام الخوئي[1]

أقف في ذكرى رحيلك في عامها الثالث، وانا أعاني مرارة المصاب بفقدك الذي لا يعوض ولوعة الضيم بما وصل إليه حال الوطن الغالي من الدمار، والشعور بالخيبة والهوان لما وصل إليه الشعب العراقي المظلوم لمنحدر اليأس والألم المرهق لقبول المحنة عند البعض منا، وقد يتعلق هذا الشعور الخطير، إلى حد قبول الأمر الواقع لحد تجرع السم، لو بقي حالنا هذا من دون تغيير.

- وأنت أحسن من يعرف معنى قوله تعإلى «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» والمشكلة تكمن هنا، ولعلنا ما نزال، رغم هذه السنين العجاف ـ نقف على قارعة الطريق نطلب الحل لمشكلتنا الأساس بعد ان اختلفنا نحن أبناءُ القضية على تشخيص الطريق الذي قد يؤدي إلى الوصول لبداية الحل.

- المعطيات كلها التي نستقبلها يومياً لا تبشر بخير، كل منا يبكي على ليلاه، ولا باكي على القضية بإطارها العام.

- قبل أيام خلت مرت علينا الذكرى الخامس والسبعون لثورة العشرين العراقية. وسبرت غورها، وجوانبها مضطراً لسبب من الأسباب فرأيت العديد من جوانب الشبه بينها وبين الانتفاضة الشعبانية 1991 التي قادها سيدنا الإمام من منطلق الواجب الشرعي، والضرورة الإنسانية.

- ولست في صدد تعداد كل جوانب التشابه بينهما لأن ذلك يتطلب مزيداً من الوقت، لا نملكه بهذا الموقف التأبيني، ولكن جوانب جمة جديرة بالاهتمام، والإشارة إليها لابد من التعرض لها بإيجاز.

---

(1) القيت في احتفال مؤسسة الإمام الخوئي لندن في 8 / 7 / 1995

أولاً: إنهما عبرتا عن سخط جماهيري ضد الظلم والاستبداد، والتعسُّف السياسي.

ثانياً: إنهما كانتا بقيادة المرجعية الدينية ومركزها الأصيل، (النجف الأشرف).

ثالثاً: إنهما مثلتا الواقع النضالي لهذا الشعب الثائر الذي كافح، وما يزال، ويستمر حتى يصل إلى هدفه المنشود، وهو إقامة حكم الخلاص من البؤر الحاكمة، والتي لا تمثل إرادة الشعب العراقي، ولم تعتمد القيم الإنسانية في تأطير حكمها الفاشي.

رابعاً: وإذا كانت ثورة العشرين، لم تحقق لنا في حينها الهدف المنشود، من إبراز الوجه الناصع للشعب العراقي نتيجة تعاقب انظمة مرهقة، لم تهتم بالشعب فان انتفاضة 1991 الخالدة أيضاً لم تحقق الهدف المنشود لنا وهو إسقاط الحكم، لكنها أثبتت للعالم كل العالم، لعلها تحت الرماد جمراً.

خامساً: وإذا كانت ثورة العشرين قد رفضت الحاكم الأجنبي على العراق، وأصرت أمتنا على رفضه، ونلنا منه مانلنا، مما لا يخفى على كل عراقي مخلص لبيب.

فان انتفاضة آذار البطلة، أكدت هذه الحقيقة بأن القوى الاستعمارية، هي القابضة على أزمة الحكم، وان القائمين على السلطة في عراقنا الحبيب، هم الآلة التي وجهوها لضرب الشعب العراقي ومصالحه الوطنية بكل أبعادها الإنسانية، وبنيتها التحتية.

يا سيدي الإمام:

ان قضيتنا عميقة للغاية تمتد جذورها لقرون خلت، وإنها مازالت كأمسها طرية لم تغيرها الظروف، ولم تستبدل حالها الجهود المضنية التي

بذلت من أمتنا المجاهدة في الوصول إلى الهدف رغم التضحيات الجسام التي قدمتها على مذبح الحرية.

- لقد كانت فترة مرجعية الإمام الخوئي شاخصةً ثرةً بكل عمل بناء لهذه الأمة فكانت المؤسسات الفكرية، والثقافية، والإنسانية، شاهدةً على أهميتها خاصة، وأنها بالإضافة إلى الجهود التي بذلت في إشادتها رفدت بالدماء الزاكية من بنيه والمقربين إليه من طلابه خاصة والعاملين في حقله العلمي في مقدمتهم ولده الشهيد العلامة التقي، ولعل ما يخفيه القدرُ أشد لوعة، وأكثر ايلاماً.

- القوم أبناء القوم، والدرب طويل وشاق ومتغيرات الزمن ليست في صالحنا حتى بين اثنتين إما كراسيها، وإما لحودها. والحياة المتأرجحة لا طعم لها ولا قيمة.

- وقد اختار سيدنا الإمام الراحل الخط الثاني، والذي هو خط «الشهادة» خطُ الأنبياء والصالحين، فلم يخضع لضغط، ولم يتنازل عن قولة الحق، ولو أرادها لكان لها مردودُ فعال من قبل الظالمين وغيرهم، ولكن الصمود الإيماني، المطلوب من المرجعية الصادقة الشريفة، هو ما رأيناه من خط الأئمة، ونوابهم من أئمة المسلمين، ممن ألقيت القيادة الإسلامية إليهم اعنتها، فساروا بها في وضوح من النهج القويم، والبعد عن كل تخبط عشوائي، أو مراوغة بين الدنيا والدين. إنها صدقية العالم الرباني، الذي لاتأخذه في الله لومة لائم.

- ثلاث سنوات عجاف، تمر على العراق والعراقيين، ومركز النجف العلمي خاصة، والإمام الراحل الخوئي بعيدُ عنه يحسبه قريب منه بروحه، وقد أعطى من نفسه لهذا الصرح الشامخ الشيء الكثير من فكره، وجهده، حتى وصل الأمر إلى المشهد المروع من فصول المأساة بتشتيت عائلتهِ عن النجف وغير هذا كثير وكثير، وخَّلفَ -بشرفٍ - كلَ ذلك في جهادٍ لم يطو الزمن ذكرهُ ولم تتسلق الظروف عليه، فتبعده عن الوجهة الفكرية، والنضالية، والفدائية.

- ونحن نعيش المآسي وهي تمخر في عباب حياتنا لم تكن واحدة لنتقيها، ولا نتصور لها نهايةً قريبة، فنعلل أنفسنا بالفرج، أنها المسيرة الطويلة الشاقة، لابد ان نندمج في هذا الخط المضحي، الذي قطع شوطاً منه سيدنُا الإمام الخوئي، سائراً في طريق، أغذ فيه السير الشائك بامل الوصول إلى الهدف، ولم يدع حساب الخيار، ياخذ منه الموقف، أنما تقحمه، بمن معه من صفوة مؤمنة، لا تهاب الموت، ولن تقدّم على مسيرة الحق إلا لرضا الرب طرفة عينٌ والأجر والتوفيق منه سبحانه.

- إذا أردنا الحياة الكريمة فلابد أنْ نؤمن بقول الإمام الحسين عليه السلام وخط الكرامة والشهادة واضح لا لبس فيه، ولا غموض، وكلما يلجه الإنسان الصادق مع نفسه يتضح له المسار أكثر جلاء ووضوحاً بحيث لا تبقى شبهة في القصد، ولا تعلة في المسار.

الإمام الراحل السيد الخوئي ترك لنا خطاً واضحاً، ومساراً لايمكن التغافل عنه وهو الخط الذي جمع بين توجهين، وليس من السهل جمعهما، وخاصة في هذه الظروف الخطيرة، بين العلم الثقافي، والجهادي ضد الطغيان واستطاع ان يخوضها ببطولة وشرف، وان كان الثمن قد كلفه غالياً، ولكن النتيجة بهذا الرصيد العملي العلمي.

- ليس لنا إلا الجراح المرصودة في ضلوعنا ان تنفجر إيمانا أكثر، وتجمعنا على ضفاف سيولها القانية «صحوة غيرة» على شعبنا المضطهد في وطننا المستباح لنهدر زحفاً وثائراً على الطاغي والطغيان، فما بقي في القوس منزع.

إن روح سيدنا الراحل الخوئي تذكرنا بما يجب أنْ يكون عليه المناضل في سبيل الله، والأمة والوطن.

وأخيراً:

فسلام عليك يوم قُدت أمتك إلى تحرير العراق من غائلة الدكتاتورية، ويوم مت كمداً في سبيل ما وصل إليه جالة حوزتك وجامعتك العلمية في النجف، ويوم تبعث حياً.

ورحمة لفقيدنا العزيز الشهيد السعيد السيد التقي، وزميله في الشهادة والجهاد والمأساة السيد الأمين الخلخالي.

وعزاء لمن بقي من هذه الدوحة الكريمة، والخاصة الأجلاء.

وإلى روحك المقدسة، وأرواح الشهداء من ولدك وخاصتك الرحمة الوافرةو السلام المتصل.

في الذكرى الرابعة لرحيل الإمام الخوئي والثانية للشهيد الحجة ولده السيد محمد تقي(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

المرجعية النائبة للمسلمين الشيعة منذ وجودها الأول بعد عهد الأئمة الاثنى عشر ﷺ، إلى يومنا هذا مارست موقعها القيادي في المجتمع الإسلامي، ومسيرة الأمة تفرضها ضرورة عقائدية، وحاجة مركزية، تقتضيها مصلحة الحياة بكل شُعبها، وتوجهاتها العامة والخاصة، سواءً في مجال الشريعة وتطبيقاتها، أو في سُبل التنفيذ ومستلزماتها. ومن أهم خصائص هذه خصائص هذه المرجعية النائبة بقاء فتح باب الاجتهاد وعدم غلقه بعامل سياسي، أو أي سبب آخر، وحرية التعبير عنه، كما يفرضه عليها الواقع الديني، والمصلحة الإنسانية التي أراد الله سبحانه لها أن تكون مثلاً سامياً في الحياة، ومركزاً لتبليغ الرسالة الإسلامية على أكمل وجه.

وفي خضم هذا الزمن الطويل في مسيرة الإنسان يحدث ـ بطبيعة الحال ـ صراع مريرّ في مختلف المجالات الحياتية، بما يسمى «الحق والباطل» وخاصة في نطاق السلطة الحاكمة والأمة المحكومة، وبما يصور التباين في أغلب الأدوار الزمنية في الأحكام، وطرق أقامة الحكم، والاجتهادات الناجمة عن المصالح الذاتية، أو التوجهات التحزبية، وما شاكل.

وقد عاش المسلمون منذ فجر الإسلام حتى اليوم هذا الأسلوب المؤلم من الصراع العقائدي المرّ، والذي كلفهم غالياً، وعلى كل المستويات، سواءً على صعيد الحاكم أو الأمة والجميع لاقى منه معاناة كبيرة لا يقدر حجم خسائرها إلا الله سبحانه.

(1) ألقيت في الاحتفال التأبيني الذي أقيم في مؤسسة الإمام الخوئي في لندن 10 / صفر / 1416، 27/ 6/ 1997

والموقف الأصعب خلال هذا الصراع كان مع المرجعية الحقة، التي لا تأخذها في تطبيق الواقع الشرعي لومة لائم مهما كلفها الأمر، وقد تقتضي المجابهة إلى التضحية، و تصل التضحيات في كثير من الأحيان إلى النفس لغرض تجسيد الواقع الديني، اقتداءً بسيرة ائمة الهدى من آل بيت المصطفى «على جدهم وعليهم أفضل الصلاة والسلام» الذين عاشوا المسيرة الدامية، فلم يركعوا لحاكم، أو يرهبوا المخاطر. فالتضحية «في مثل هذه الحالات» لابد ان تكون على مستوى الحدث.

والنقطة المركزية في مثل هذا الصراع هي "عدم الانجذاب" للحاكم من أجل البقاء، أو تجنب الضرر، أو أي عامل مشابه يسلب الحقيقة الحكمية عن هذا المنصب الإلهي وهو أمر عسير للغاية يحتاج كثيراً إلى الشجاعة الفائقة المحفوفة بتقوى الله سبحانه في تحمل هذه المسؤولية الرسالية.

وقد دللت المرجعية خلال وجودها التاريخي في أطار مسيرتها الرسالية على الاستقامة والإرادة الحرة، وسجلت لها مواقف مشهودة على مرّ الزمن، حيث تبنت رسالة الأنبياء والائمة ﷺ، بما حفظ كيان الدعوة، وحدد موقعها القيادي، مبرهنةً على ذلك بسمو السلوك، وصدق العقيدة، وطُهْر النفس.

ولعل قرننا المعاش «ونحن بين مكوي بناره، أو مشاهد لمأساته، وبين من سمع أناته وقرأ أخبار آثامه» صورة حية لواقع حقيقي جسد الصراع المرير بين المرجعية النائبة، وبين الحكم السلطوي المرعب في الوطن الإسلامي الكبير، وما خلفته مواقف تزاحم الوجود واللاوجود من مظاهر مأساوية يبدو فيها زخم العنف الدموي، والانحسار الإنساني من الحكومة الجائرة، يقابله الإصرار المستميت من المرجعية الشريفة على حرية الإرادة، واحترام قدسية الرسالة.

كان آخره، وليس أخيره عهد الإمام الراحل آية الله العظمى، المرجع

الديني الأعلى السيد أبو القاسم الخوئي «عطر الله مثواه الطاهر» وما جدت عليه وعلى أسرته من محن وويلات أرهقته وأجهدته، وأصابت منه مراماً صعب تحمله، ومع ذلك لم يتوان عن الحفاظ على أرادته الشجاعة المعبرة عن سلامة المرجعية من الانتكاسة والانزلاق.

إنَّ المرحلة التي عاشها الإمام الخوئي لا نبالغ إذا قلنا إنها من أخطر المراحل التي يمر بها العراق، فالحكم الدكتاتوري بأبشع سماته البغيضة متسلط عليه، ويسم الناس الهوان والإعدام، والدمار، وأثار بحقده البغيض خلال الفترة السوداء «ولازال» حروباً ظالمةً، واعتداءً صارخاً ضد الأشقاء والجيران، ومارس إبادةً قاسيةً، وتدميراً شاملاً مع شعب اعزل إلا من أيمانه ووطنيته، من أجل بسط سلطانه المنحرف، ومحاولة أخفاء صوت الحق في الآفاق.

لقد استطاع الإمام الراحل السيد الخوئي ان يقف بوجه الدكتاتورية والفاشية، ويشجب الظلم والظالمين بموقف حدي صارخ، فلم يداهن الحاكم الظالم بتأييد، رغم الضغوط الكبيرة عليه، ولم يخضع لإرهاب أزلام النظام والذي كان يثار حوله من حين لآخر ليسكن ويداهن، وينتهي به الحال إلى الخضوع وتنفيذ ما تريده السلطة المجرمة منه.

إنَّ السلطة المنحرفة بحاجة دوماً إلى من يسدد خطاها ويبرر عملها، ويصحح أحكامها الغير مشروعة، ولو ظاهرياً، وهي تستطيع بترغيبها وترهيبها ان تخلق زعانف مدعين، ويقومون بهذه المهمة، ويطلقون عليهم كوماً من الألقاب الفارغة، ولكن هؤلاء الذين يسمون في العرف الاجتماعي بـ "علماء الحفيز" إلى أي مدى يملكون الديمومة وهم صفر من مقومات الإدامة؟ وفعلاً رأيناهم كيف ذابوا واضمحلوا، كفقاقيع المستنقعات سرعان ما ذابت وتلاشت غير مأسوف عليها.

لقد كان موقف الإمام الخوئي سلبياً للغاية مع نظام صدام وسلطته الفاشية، فلم يمد لهم يداً للمهادنة، ولا انتزعوا منه فتوى تسدد حكمهم

البائس، ولم يقم بعمل يجيره النظام لصالحه، إنما العكس كان واضحاً على طول الخط، سواءً في القول أو الفعل.

وحين تفجرت الانتفاضة المجيدة الشعبانية «آذار ـ 1991» وقف الإمام الراحل وبكل صلابة يمارس من موقع المسؤولية واجبه الديني، وما يقتضيه مركز القيادة من الحفاظ على الأمة وممتلكاتها، مع وضوح لديه بما يترتب على ذلك لو انتكست الانتفاضة، وهذا ما حصل، وبهذا الموقف الجريء المسؤول حسم نظام الطاغية موقفه المهادن مع الإمام الخوئي، وأعلن معاداته الصريحة بما مهد لإنهاء حياته الشريفة على الصورة المعروفة لدى الجميع، وما أعقب ذلك من اضطهاد مروع لأسرته وللجماهير التي كانت تريد أن تودع مرجعها الأكبر، وتشيع جثمانه الطاهر بما يتناسب ومكانته العلمية، ولكن السلطة الغاشمة أجبرت ذوي الفقيد على دفنه سراً، وعدم إقامة مراسم العزاء وسط إرهاب وبطش مكثفين، تجلت فيه خشية النظام وقلقه حتى من الموات.

وإذا استطاعت السلطة الدكتاتورية من اضطهاد الإمام الخوئي وبعد وفاته فأنها لم تتمكن من إخفاء معالمه الفكرية التي عبرت عن جهد عشرات السنين خلال مسيرته العلمية في الجامعة النجف الدينية وهي تدق أبواب الألف عام من عمرها المديد، سواءً على مستوى خريجي مدرسته العلمية الحوزوية، وهي بفخر تمثل الرعيل الواسع من العلماء الأعلام الذين انتشروا في سائر البقاع الإسلامية، ومازال الكثير منهم يؤدون رسالتهم التبليغية كما يرضى الله ورسوله، وائمة أهل البيت.

وكذلك على المستوى الفكري، فقد تجاوزت عشرات الكتب التي صدرت بتقريرات طلاب وتلاميذ مدرسته الفقهية والأصولية، وكلها تدل على تأصيل علمي رصين مما أحدث نقلة هامة في المسار الإبداعي لهذين العلمين، هذا عدا ما تركه من تراث قيم في مجالي: التحقيق في رجال الحديث، ومقدمة ضافية لتفسير القرآن.

كما وانه رحمه الله قابل عسف السلطة الحاكمة واضطهادها وإصرارها على تشتيت الحوزة العلمية بحجة وأخرى بكل قوة وجرأة مقاوماً ومُصِرّاً على ان لا يغادرها إلى خارج العراق، ويبقى رابضاً فيها حتى ولو كلفه ذلك حياته، رغم كل الطلبات والرجاء بان يترك النجف إلى أي بلد أخر، يؤمن فيها على حياته وأسرته فكان جوابه سأبقى وسط هذه الجامعة، وأتحمل المسؤولية مهما كان حجمها حفاظاً عليها من حنق السلطة وحقد طائفيتها على محاربة الدين.

ويجب أن لا ننسى جانب كل ما تقدم من تراثه الخالد، ومواقفه الشجاعة في محاولة الحفاظ على الحوزة العلمية في النجف، مشاريعه الإنسانية والاجتماعية الهامة في بعض مناطق العالم، أو التي ساعد على إنشائها بما يؤكد على أُفُقه الواسع، وفكره النير في معالجة حاجات الأمة ومحاولة رفدها بالممكن من الحلول، وبالقدر المتيسر له.

ولقد كان ولده الأخ الشهيد حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد تقي الخوئي المنفِّذ الأساس، والساعد الأيمن لتحقيق مشاريع المرحوم والده الإمام الخوئي وجاهد كثيراً في بنائها، وتوسيع أعمالها الدينية منها والإنسانية والاجتماعية، وأنجز ما استطاع إنجازه لتبقى مركز ضوء في مسيرة أتباع مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام كمؤسسة: لندن، ونيويورك، وفرنسا، وكندا، والهند، وبيروت، وإيران، وغيرها.

إنَّ المجاهد الشهيد السعيد «أبا الجواد» ترك إلى جانب خدماته الجُلَّى في أعماله العامة الإنسانية، جانباً تراثياً هاماً صدرت له في حياته وبعد استشهاده ما يدل على انه من تلك النبعة المعطاءة في مضماري الفقه والأصول، كما دللت على سعة أفق علمي تمتع به السيد الشهيد «رحمه الله».

والواقع ان خسارتنا الكبيرة برحيل الإمام الخوئي لا تُعَوض، وإنْ طال الزمن بذكراه، فقد كان للمرجعية النائبة في العالم الإسلامي في فترة

مرجعيته الفذة الأثر الفعال في إدامة هذا الصرح الشامخ، الممتد من الإمام علي عليه السلام إلى يومنا هذا، ونرجو العلي القدير ان يوفق مراجعنا العظام في النجف وإيران في رفد عطاء هذا الصرح الخالد.

كما وستبقى مشاريع هذا البيت العلوي عنوانا مضيئاً تشير بفخر إلى أيادي الشهيد «التقي» تذكرنا بقابلياته المعطاءة الطموحة فنقابلها بالتقدير والتكريم، وستثير مأساة شهادته ورفيقه الشهيد حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد أمين الخلخالي اللوعة والأسى في نفوس عارفي فضلهما، ومحبي أخلاقهما، «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والعاقبة للمتقين».

فإلى كل المصابين بفاجعة رحيل الإمام الخوئي والشهديين الجليلين آل الخوئي وآل الخلجالي، وخاصة عوائل الشهداء الكريمة الصبر والعزاء والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون نرجو الله العلي القدير ان يمد في عمر حجة الاسلام السيد عبد المجيد الخوئي الاخ الشقيق للفقيد التقي في تحمل المسؤولية الكبرى في إدارة المؤسسات التي شيدها والده الراحل الامام الخوئي بعد فقد اخيه لتبقى هذه الشعلة الحضارية شعلاً منيراً على مدى الايام والدهور.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في الذكرى الخامسة لرحيل الإمام السيد الخوئي

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل خمسة أعوام مضت نعى الناعي فقيد الدين والعلم، والمرجعية، الإمام السيد أبو القاسم الخوئي «رضوان الله عليه» ورغم هذا البعد الزمني ما زالت الذكرى خالدةً في النفوس، كأمسها مفعمةً بالأسى، مثقلةً بالحزن. كما ورغم الأحداث المرة، والمصائب القاسية التي أغرقتنا ألماً ورزية فأنها حية في القلوب لا تُنسْى.

قد يقفز سؤال يعصر الألم، وتثكله اللوعة، لماذا لم يجف شجن المصاب، والسنوات الخمس التي مرت على الذكرى مليئة بالأحداث والألم المروعة بما يهد الجبال؟

لنبحث عن السبب؟

حين نتابع الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أئمة الهدى عليهم السلام عن مكانة العلماء نعرف لماذا لم تجف ذكرى فقيدنا العظيم.

عن رسول الله ﷺ قال "موت العالم ثُلْمة في الإسلام لا تُسَّد ما اختلف الليل والنهار".

وعنه ﷺ أيضاً "ما قبض الله تعإلى عالماً من هذه الأمة إلا كان ثُغرةً في الإسلام وانَّ موت قبيلة أيسر من موت عالم"

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ [الرّعد: 41].

فقال عليه السلام: "فُقد العلماء"[1].

---

(1) الكافي 1: 38/ 1.

وقال الإمام الكاظم عليه السلام "اذا مات المؤمن ... ثلم في الإسلام ثلمةً لا يسد لها شيء، لأنَّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصون سور المدينة لها"[1].

راجع الروايات في الحكمة: 6/ 461 و 7/ 535

في ضوء هذه الروايات الشريفة نراها تنطبق على فقيدنا الغالي تمام الانطباق.

كيف؟

حين نرجع إلى حياة فقيدنا العظيم، ونستجلى منها بعض نقاط مركزية منها نستطيع من خلالها تحديد انطباق الروايات عليه، والتي هي بإيجاز:

أولا: وجود شاخص:

الإمام الخوئي عرف بالأربعينات من هذا القرْن بمكانته العلمية المرموقة في الأوساط العلمية الحوزية فهو من الطبقة التي تلمذت على إعلام عصره كالميرزا حسين النائني، والشيخ اغا ضياء العراقي، وشيخ الشريعة، وغيرهم ممن اشتهروا بالأستاذية المميزة في علمي الفقه والأصول، وكان المشار إليه بين أقرانه من أخصاء طلاب هؤلاء العلماء الذين تلمذوا عليهم وشاركم بالفضل ولا أنسى انه «عطر الله مرقده» في الخمسينات كان أحد المراجع الدينيين المشهورين في النجف الأشرف وممن ثنيت الوسادة لهم "كما يقول المثل" في الجامعتين العلميتين الدينيتين النجف الأشرف وقم المقدسة.

أما في السبعينات فيمكن القول بأن المرجعية في العالم الإسلامي الشيعي انحصرت فيه إلى التسعينات حيث وافاه الأجل، وانتقل إلى جوار ربه.

---

(1) الكافي 3: 254/ 13.

وإلى جانب المرجعية الدينية، أضاف لها شهرة أخرى، لا تقل أهمية عن سابقتها، وهي حلقة دروسه، أو بحثهُ الخارجي، والذي كان يحضره جل فضلاء عصره، ممن اشتهروا بالمرجعية من بعده.

فهو على طول خمسين عاماً كان بحثه العلمي مميزاً في جامعة النجف في علمي الفقه والأصول، ويشير طلاب المعرفة إليه استفادةً منه، وتوسعاً في آفاق علم آل محمد عليهم السلام.

ولاشك انه بمكانته العلمية التي عُرف بها تمكن من ربط الحاضر بالماضي، تلك المدرسة التي وضع لبنتها الأولى الإمام علي عليه السلام. وبرزت على العالم الإسلامي في عهد الإمامين الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام.

واستمرت على يد الشيخ المفيد، والمرتضى والطوسي «رحمهم الله» والأمر الملاحظ ان الإمام الخوئي قدس سره استطاع "رغم جهد المرجعية الدينية العامة" واستهلاك أغلب وقته في إدارة شؤونها ـ أن يضع موسوعة هامة في رجال الحديث قد تكون هي الأوفى من غيرها في هذا المضمار، وهو أمر جداً مهم بالنسبة لتمحيص الرواة الذين نستقي منهم الاحاديث وهي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وتمييز الموثق منهم عن غيره بما يصح الاعتماد عليه في مجال بناء الإحكام الشرعية عليها.

ومن هنا فان حياته الثرة وجود شاخص في هذا الميدان الذي كثر فيه المدعون، ولكن آثاره تدل عليه، وتشهد بفضله وتميُّزه عن غيره.

ثانياً: عطاء مثمر:

الإمام الراحل السيد الخوئي «رحمه الله» وذكراه العطرة باقية ما بقي الدهر.

لم أكن مبالغاً في إرسال هذا القول، فان من الأمور التي يحفظ فيها الإنسان نتاجه الإبداعي في حدود اختصاصه العلمي.

ولا أظن ان ما تركه من تراث هام سواءً على مستوى الأشخاص، أو الكتب خافٍ على احد فالمئات من طلابه وتلاميذه، والذين انتشروا في الوطن الإسلامي الكبير مبلغين ومرشدين ومفتين هم اللافتة ذات الأرقام الواضحة على هذا المدعى الهام والذي لا يمكن نكرانه، أو التغاضي عنه.

كما ان المصادر الحديثة في هذين العلمين الفقه والأصول جل مؤلفيها ممن تلمذوا عليه، واستفادوا من أبحاثه القيمة.

بالإضافة إلى كل ذلك خلف" كما أشرت" موسوعة في التحقيق عن رجال الحديث تجاوزت العشرين مجلداً، بذل فيها جهداً كبيراً، وزمناً طويلا، حتى تم إنجازها في هذا الاستيعاب الكامل الذي دلل على أفق مؤلفها الواسع، واطلاعه الرائع، بما أسبغ على أصحاب الفضل والمعرفة ما يرفع عن كاهلهم مؤونة البحث والتنقيب في هذا المجال.

كما كان له أسهام جدير بالتقدير في ميدان التفسير، حيث إذ ضطلع في هذه المهمة الشاقة واصدر مقدمة ضافية في فضل القرآن، وإعجازه وصيانته من التحريف، وحجيةِ ظواهر، والقراءاتِ التي تواترت فيه، وغيرها من المواضيع الهامة التي تتعلق في هذا المصدر الأول لتشريع الإحكام، وأنهى المقدمة بتفسير سورة الفاتحة، ومع كل الأسف ان ظروف فقيدنا الراحل لم تساعده على إتمام هذا المشروع الكبير.

ان حياة الإمام الراحل السيد الخوئي «قدس سره» كانت عطاءً مثمراً في مختلف العلوم التي تخص مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ولم تقتصر على لون معين، وحتى أن أجوبتة في العقائد أكدت على أفقه الواسع في هذا الميدان.

ثالثاً: بقـــاء مشرف:

في الحديث المعروف "اذا مات ابن ادم انقطع عمله عن الدنيا إلا

من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

وقد توفرت هذه العناصر الثلاثة في فقيدنا الغالي:

1 - الصدقــة الجارية:

لم تكن هذه المؤسسات الدينية، والاجتماعية والخيرية في عدة دول من العالم التي أنشئت بأمر من الإمام الخوئي إلا دليلا على أنها خصصت لخدمات الأمة الإسلامية، سواء أكانت على مستوى التدريس، أو الأمور الدينية، أو الخيرية، أو الاجتماعية أو الإعلامية كلها تخدم مبادئ أئمة أهل البيت عليهم السلام وهي بمجموعها تدل على تطور فكر المرجعية الذي امتدت إلى خارج الحوزات العلمية، وهو ما يتطلبه العصر الحاضر للمجتمعات الإسلامية وخاصة في البلاد غير الإسلامية كأمريكا وبريطانيا، وفرنسا والهند، ومثال ذلك فهذه المواطن التي اضطر المسلمون إلى الهجرة إليها بحاجة إلى مؤسسات رعاية في جوانب الحياة، ومجابهة التيارات المضادة للإسلام التي تعمل بجد واهتمام على اجتثاث الصحوة الإسلامية، وانتشار المسلمين إلى درجة تصاعدت الدعوات من السلطات والكنيسة إلى مراجعة حازمة لهذا الخطر المداهم على المجتمع الغربي وصد أي تيار إسلامي يهدد حضاراتهم كما يدعون.

ولاشك ان هذه المؤسسات الإسلامية ـ إذا أحسنت تفاعلها في مثال هذا المجتمع، فهي صمام الأمان أمام التجمعات الإسلامية، وخاصة أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وبحمد الله فإن مؤسسات الإمام الخوئي الخيرية في المواطن التي أنشئت تؤدي دورها على خير ما يرام ونرجو أن تستمر في عطائها المثمر بفضل الجهود الجبارة التي تبذل من قبل المسؤولين عنها والمشرفين عليها.

2 - علم ينتفع به:

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن الإمام الخوئي رحمه الله خلف فكراً نيراً في ميدان المعرفة تجلى بهذا الحشد من المؤلفات العديدة، خاصة في علمي الفقه والأصول، وقد تجاوزت العشرين مؤلفاً مطبوعاً، عدا المخطوطات في مختلف الجوانب في الفقه والأصول، والحديث، والتفسير، والعقائد، إلى جانب ما أصدره الطليعة من تلاميذه ممن أصدروا تقريراته في الفقه والأصول، وقد تجاوزت الثلاثين مؤلفاً ولعل بعضها تجاوز العدة مجلدات وسجلت فيها آراؤه القيمة المجددة في هذين العلمين المهمين.

إنَّ هذا العطاء العلمي له أثره الكبير في صقل أفكار المذهب كما لها الدلالة الواضحة على صقل ومواهب ونضوج طلاب مدرسته.

ولعلي لست مبالغاً إذا ادعيت أنه من الصعب أن يتحقق لزعامة الحوزة العلمية من يسد الفراغ الذي أحدثه رحيل سيدنا الأستاذ قدس سره.

3 - ولد صالح:

تقول الرواية "كما أسلفت" من العناصر التي تحفظ الميت الولد الصالح، ولعل في بعضها "الولد الصالح الذي يحفظ غيبة أبيه" وكيفما كان، فان الإمام السيد الخوئي أيضاً في هذا الجانب موفق فيه، فالذين حملوا رايته في مضمار العمل الجهادي لمدرسة أهل البيت كان لهم ما يعترف لهم معه بالفضل والعمل الدؤوب.

ورحم الله الفقيد السعيد الشهيد حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد تقي الخوئي، والذي نحتفل بالذكرى الثالثة لاستشهاده، فأنَّ له في إنشاء هذه المؤسسات الخيرية اليد الطولى، وهو المنفَّذ الرئيسي لرغبات سماحة والده فيها.

إضافة إلى مكانته العلمية، وما صدر له من مؤلفات، وخاصة مؤلفه القيم «الشروط أو الالتزام التبعية في العقود» والذي طبع عام 1993م دللت على نبوغه العلمي في عهد مبكر.

إن الآمال الكبيرة التي يهتم بتحقيقها في خدمة مدرسة اهل البيت، وامتدادها إلى خارج العراق، أذهل أعداء الإسلام فسارعوا في تصفيته، والتخلص منه على يد أذنابهم أزلام صدام، بالطريقة المؤلمة التي أتت عليه وعلى رفيق دربه حجة الإسلام السيد محمد أمين الخلخالي.

وأملنا وطيد بأن تلكم الآمال المنشودة في أعمال الإمام الخوئي، وولده الشهيد، تبقى حية في الجهود الخيرة التي يبذلها أخونا العلامة السيد عبد المجيد في ديمومتها وبقائها.

وما أعظم قول الإمام علي عليه السلام: "إنَّ العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة"

هكذا يخلد الإنسان بفكره وعمله، لا بجسمه، وادعاءاته، فإنَّ ما يخلد هو الذي يتجسد على أرض الحقيقة، لا الواقع المعاش فرب واقّع معاش، ولكنه فارغ من كل حقيقة، فهذا إلى مزبلة التاريخ.

بعد هذا العرض الموجز لحياة سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي، لاشك أننا تلمسنا الخطوط الأولية لفهم الأحاديث الشريفة التي أوردتها في مقدمة البحث، وهي تدور حول موت العالم المؤمن الذي يحدث ثلمة في الإسلام لا تسد إلى يوم القيامة.

رحم الله فقيدنا العظيم، ونجله الشهيد وحفظ الباقين لما فيه خير الدنيا والآخرة.

والسلام عليكم

في ذكرى الشهيدين الخوئي والخلخالي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]

- للموت "الذي لا مفر منه" آفاق واسعة، ومسارب متعددة تنتهي إلى نقطة واحدة، وهي غروب الإنسان من هذه الحياة المجهدة وانقطاع علاقته من كل ما يخصه في دنياه، عدا أمور ثلاثة:

كتاب ينتفع به الناس، أو صدقة جارية، تفيد المجتمع، أو الأفراد، أو ولد صالح يعيد مجد أبيه وذكراه...

- نجتمع اليوم «أيها الأخوة والأخوات» لتأبين شهيدين من ضحايا النظام الصدامي في عراقنا المثكول بهول الفواجع، التي تترى كل يوم دون انقطاع.

- ومن تلكم الفواجع المؤلمة، من نجمع اليوم لتأبينهم ضحايا نظام صدام حسين وهما: الحجة السيد محمد تقي الخوئي والحجة السيد محمد أمين الخلخالي.

- الشهيدان، علمان، ورمزان، ومثالان، نعتز بهما وكانت خسارتنا بهما كبيرة، والمصاب بهما جلل.

- فهما عَلَمان من أعلام الجامعة العلمية في النجف الأشرف ..

فالشهيد الخوئي "وهو نجل الإمام الراحل، المرجع الديني الأعلى السيد أبو القاسم الخوئي «رضوان الله عليه» وكان الساعد الأيمن له في حياته المرجعية العامة.

(1) ألقيت في لندن بتاريخ: 31/ 7/ 1994

ومؤسس المشاريع الكبرى العلمية، والثقافية، والإنسانية، بتوجيه من والده العظيم في كثير من بقاع العالم، كلندن، وباكستان، وتايلند، ونيويورك، وبيروت وغيرها.

- وهو إلى جانب ذلك كتب عدة مؤلفات في ميدان الفقه كان آخرها كتابه، «الشروط والالتزامات التبعية في العقود» بحث مقارن في ثلاثة أجزاء.

- وكانت دروسه العلمية، في الفقه، والأصول، والتفسير والعقائد، معروفة في الحوزة العلمية النجفية.

أما الشهيد الحجة الخلخالي، فهو نجل آية الله السيد رضا الخالخالي المُغيَّب في سجون النظام من أيام الانتفاضة- آذار عام1991، وحتى هذا اليوم، وأسرته علمية مشهورة في النجف وإيران ومن سلالة العلماء.

- وهو أستاذ معروف في الحوزة العلمية في النجف الأشرف في الفقه، والأصول، وباحث له كتاباته فيهما نأمل أن ترى النور قريباً ولم تُطْبع الى الآن.

بالإضافة إلى أنه أمام جماعة يقيمها في أحد أبرز جوامع النجف الأشرف، وهو جامع البهبهاني.

وكان هو ممن يرعى الجامعة العلمية، ويحرص كل الحرص على بقائها وجوداً شامخاً في هذا الظرف العصيب الذي تعيشه مدينة الإمام علي عليه السلام في ظل تجار الطائفية المقيتة.

- ثم هما رمزان من رموز النضال الجهادي ضد النظام الحاكم في العراق.

الشهيد الخوئي كان الساعد الأيمن "كما أشرت" للمرحوم والده المرجع الأعلى السيد الخوئي الكبير، وقد حاول النظام استمالته «بالترهيب والترغيب» ولكن ذهبت جهوده سدى فالرجل صلب العقيدة.

- وحين اندلعت الانتفاضة الشعبانية «آذار ـ 1991» وعين الإمام الراحل السيد الخوئي لجنة لإدارة شؤون المدن التي سقطت بيد الثوار، واندس فيها حكم الطغيان، بأحذية المنتفضين، كان في إدارة شؤون القيادة السياسية والعسكرية فيها.

وقد تعقبه النظام بعد انتكاسة الانتفاضة حتى أودى بحياته.

أما السيد الخلخالي، فلقد كان حركة دائبة في النضال الجهادي من أجل مكافحة العامل الطائفي، الذي أخذ ينفجر حقداً في جسم المواطنين.

وحين كانت الانتفاضة الجماهيرية، بعد المذلة المخزية التي سببها النظام للشعب العراقي، بغزوه الظالم للشقيقة الكويت والاعتداء الصارخ على شعبه الأعزل. كان شهيدنا الغالي عاملاً جريئاً في تحريض المواطنين ضد النظام الحاكم، وضد الغازي الفاشي، ولولا أن والده المجاهد كان عضواً في اللجنة القيادية التي اختارها الإمام الراحل السيد الخوئي لإدارة شؤون البلاد لكان الاختيار لا يعدوه في عضوية اللجنة.

وحين أخذ النظام في تصفية هذه اللجنة، ومساعديهم كان فقيدنا الغالي احد الرموز التي لابد لها من التصفية في عرف الحاكمين المجرمين، بصفته عاملا مؤثرا في الوجدان الشعبي ضد الحكم المنحرف عن طريق الحق.

- ثم هما مثلان من أمثلة الوفاء الإنساني لبعض عوائل المعتقلين والمغيبين، وضحايا النظام.

فالشهيد الخوئي ... وحتى أخر يوم من حياته كان يقوم بدفع الرواتب الشهرية، التي كان يدفعها الإمام الراحل لطلاب العلوم في الحوزات العلمية في النجف الأشرف وغيرها، بالاضافة إلى المعوزين والفقراء.

كما كان له مساعٍ خاصة في رفد حاجات أهالي المعتقلين

والمسجونين وخاصة من رجال الانتفاضة، والقيام برعاية عوائلهم والاهتمام بشؤونهم.

أما الشهيد الخلخالي: فقد كان عاملاً يضرب به في الوفاء الإنساني مع العوائل التي حكم النظام باعتقال رجالها وخاصة بعد الانتفاضة المباركة، وكان يهتم بقضاء حوائجهم، وإدارة شؤون الكثير منها.

ولا أكتم سراً أن الشهيد الغالي، كان من جملة أعماله الإنسانية رعايته آل بحر العلوم، والتي تزيد على اثنى عشر بيتاً، فكان يقوم بكل حوائجها وشؤونها، وحين فُقد ـ فقدنا به الوالي لتلك العوائل التي لا معيل له، ولا رجل يقوم بقضاء حوائجهم.

- أنَّ الفقيدَيْن الغاليين: كانا يحرصان كل الحرص على أن لا يتركا النجف، فلقد غادرا العراق عدة مرات، وحين كنا نصر عليهما أن لا يعودا إليه مع هذا الوضع الشاذ الذي يسيطر عليه كانت الأجابة، منهما ان النجف تحتاج إلينا، وإن الحوزة العلمية فيها لابد ان نسندها، وان العوائل التي نرعاها لا يملكان غيرنا فلمن نتركهم لصدام وحزب صدام، ثم: قالا "لن يصيبنا إلا ما كتب الله علينا".

أيها الإخوة والأخوات:

ان قافلة الشهداء مستمرةٌ وطويلة، ولن تنتهي ما دام النظام الصدامي، رابضاً على صدر وطننا الحبيب.

- وإنَّ النضال الدامي لن يهدأ ما بقي هذا الحكم مسلطاً على رقاب المواطنين.

- ولو بذل صدام، وجلاوزة صدام كل جهدهم في تصفية المعارضين، لكن دون جدوى، فلن تخرس الألسن ولن تهدأ الجراح من صراخها:

أتـعـلـم أم أنـت لا تـعـلـم   بـان جـراح الـضـحـايـا فـم

- ماذا يريد صدام من وراء تصفية رجـال النجف المخلصين؟

أيحسب أن الأمة الرسالية تنتهي، ويصفو له الجو؟

أيحسب ان النجف يموت؟

كلا و ألف كلا !!

- لا يا صدام، كل ما يمكنك اعمل، وكدّ كيدك، واسع جهدك فوالله لن تمحو ذكر النجف، ولا تميت صداها، وستذهب بعارها وشنارها. ويعلو النجف الأشرف بمجدها وكرامتها.

- لقد أصبح القتل لنا عادة، كرامتنا من الله الشهادة، وهيهات منا الذلة، لن نمدلك يداً خائنة، ولن تقبل منك كلاماً معسولاً فقد ولغت بدمائنا، واسرفت في حقدك.

- فالخلود لنا، والمجد لشهدائنا، والبقاء للنجف الثائرة فلن تهدأ لها رنة إلا يوم تذهب انت ونظامك الخائن إلى مزبلة التاريخ.

- ونقولها صريحة لا لبس فيها ولا غموض نرفض كل تطبيع مع النظام، ولن يكن للخونة مقام لدينا حين تمد الأيدي الملطخة بالعار للموافقة على سلام مفتعل مع نظام أثبت طيلة ربع قرن انه يسير في ركاب الاستعمار، وأدوات الصهيونية. وأذناب الطائفية، وتجار المصالح الشخصية.

- كفانا تخديراً بالأمل المعسول سيقدم لنا على طبق من وعود فقد ازدردنا مرارة هذا الطبق، وبقي «جنوب العراق» يعاني قسوة الحاصد الشقي، ولا مجيب له من منظمات دولية، ومؤسسات عالمية، كان الأجدر انْ تكون لحماية الحيوان من عنوانها لحماية الإنسان.

احبائي هل يسلو العذاب وينساني؟
وتغفو جراح من شجوني وأحزاني؟
وارنو إلى أرض الغري لعلها
تريني إخواني، وأهلي، وخلاني
واقضي سواد الليل أرصد نجمه
عسى المس الطيف المغذ بأشجاني
واصحبه كيما أزور أحبتي
ونفسي من جدب اللقاء لتنهاني
فماذا أرى؟ والظلم كلكل موحشاً
أرى فجره سقما يمض بوجداني
سهرت على أحشائه أمضغ الأسى
فالتاع من هول، ويرُعب تبياني
أنا قد قضيت العمر أبحث من أنا؟
سوى موئل للحزن منه إلى ثانِ
حلمت بآمال الوصال إلى المنى
ولكن حقد الشامتين تولاني
إلى أين ينأى الركب عني وقد
وقد مضى أحبائي من حولي خفافاًوأعواني
أوسد منهم كل يوم فريةً
بقلبي، وأطويه بحبي وتحناني
وما زالت الأعداء تقسو بلؤمها
وأحسبها تحنو عليّ وترعاني

ولكن عرفت الضيم يحمد خاطري
ويـنـتـابـنـي لـلـنـائـبـاتِ هـوى الـجـانـي
مـلـلـت مـن الأحـلام أطـلـب عـطـفـهـا
ولـكـن سـراب زائـغُ الـعـيـن يـنـعـانـي
إلـى أيـن؟ والـركـب الـجـنـوبـي تـائـه
بـمـسـراه، والأهـوار ظـمـأ بـشـطـآنـي
تعبت من المجداف، والبحر صاخب
وزورقـي الـمـكـدود غـاض بـأحـزانـي
وإذ كـنـت حـتـى الـيـوم أحـصـد شـوكـه
فـلـي أمـل بـالـنـصـر يـغـمـر إنـسـانـي

وأخيرا:

- ادعو الله سبحانه للشهداء بالرحمة والرضوان.

- ولأسر الشهداء بالصبر والسلوان.

- ولكم جميعا ولكل المعزين بهذا الفاجعة الشكر الجميل، والنصر المحتم على الأعداء، والعودة للوطن، إنه سميع الدعاء.

المرجعية الدينية بعد التغيير

توجهات السيد السيستاني لبناء العراق الدستوري الجديد

الإمام آية الله العظمى المرجع الديني السيد السيستاني دام ظله رعى الحكومات المتعاقبة على السلطة من يوم سقوط النظام المباد في العراق ولهذا اليوم بالتوجيه والنصيحة والإرشاد والملاحظات القيمة التي تصب في مصلحة الأمة والوطن، وبما ينفع المسار السياسي في هذه اللحظات السياسية الحاسمة التي تمر على البلاد، بما فيها من مآسٍ وأحزان، وخاصة بما يتعلق بالفلتان الأمني فقد كان وما زال بحق صمام الأمان في عدم إنجرار البلاد في حرب طائفية مؤلمة تحرق الأخضر واليابس، رغم الاعتداءات الصارخة التي أنصبت على العرب الشيعة من العراقيين وباستمرار من التكفيرين والظلاميين أتباع أزلام صدام وترويع الأهالي وعلى اختلاف الأصعدة من قتل وذبح وسلب ونهب وتهجير بالقسر وتدمير للمساجد ولمراقد الأئمة والعلماء والصالحين والأولياء بما يندى له الجبين، وتتقزز له النفوس الشريفة، وكان من الممكن أن يُرد على هذه الأفعال الظالمة بما يعادله أو أكثر وأكرر لولا إصرارمرجعنا العظام وخاصة السيد السيستاني حفظه الله المتواصل على كبح جماح المتضررين من ممارسة العنف ومقابلة المثل بالمثل وأكثر، وهو ممكن و ومتهمّي من العراقيين الذين يسامون سوء الاعتداء، لكانت المأساة فظيعة للغاية.

ورأي السيد الإمام وبقية مراجع الدين الذين أيدوا سياسته الرشيدة أن الاقتتال بين الأمة الواحدة سوف يحدث شرخاً كبيراً لا يمكن التئامه بسهولة، وهذا ما يضر بمصلحة المواطن والوطنيين، وخاصة أن الجميع في ظرف بناء العراق، وإعادة تعمير ما دمره صدام وجلاوزة حكمه طيلة سنواته السود.

ولقد نجح بهذه السياسة الحكيمة، حيث أفشلت مخططات المنحرفين الذين يعملون ليل نهار على إثارة النعرات الهدامة، والتكفير الظالم، والمروق عن الأخلاق الإنسانية.

وكان آخر هذه التوجيهات الأبوية الشاملة عند زيارة الأستاذ نوري كامل المالكي، رئيس الوزراء المكلف إلى سماحته بتاريخ 27/ 4/ 2005 في مقره بالنجف الأشرف، وبعد الزيارة أصدر مكتب الإمام بيانا هاماً يمكن أن يكون بيانا وزارياً للحكومة الجديدة في الحالة الحاضرة، ومنهاجاً لحكومة تعمل على إنجاح مهمتها الأساس في بناء العراق الواعد، فقد ركز الإمام على نقاط حيوية هامة، منها:

1 - الحالة الأمنية:

ففي صدد الحالة الأمنية أكد سماحته على "معالجة الحالة الأمنية، ووضع حد للعمليات الإجرامية إلتي تطال الأبرياء يومياً خطفاً وتعذيباً وتهجيراً وقتلاً وتنكيلاً وغير ذلك".

ومن أجل تنفيذ ذلك قال السيد -حفظه الله- "ولهذا الغرض لابد من حصر حمل السلاح في أيدي القوات الحكومية، وبناء هذه على أسس وطنية سليمة بحيث يكون ولاؤها للوطن وحده لا لأية جهة سياسية او غيرها".

2 - الخدمات العامة:

وحيث أن الخدمات العامة تهم المواطنين فقد: "نبه سماحته على ضرورة الاهتمام الجاد بتقديم الخدمات العامة، وتوفير القدر الكافي من الكهرباء، والماء الصالح للشرب، والوقود ونحوها للمواطنين تخفيفا لمعاناتهم في هذه الظروف العصيبة".

3 - السيادة والاحتلال:

وموضوع السيادة والاحتلال من المواضيع الهامة والتي شغلت حيزاً كبيراً من أفكار المرجعية الدينية، ولذا من الأمور الأولية التي بحثها سماحة الإمام السيستاني مع رئيس الوزراء المكلف هذا الموضوع، حيث قال: "إن على الحكومة الجديدة أن تعمل كل ما في وسعها في سبيل استعادة سيادتها الكاملة على البلد سياسياً واقتصاديا، وغير ذلك، وعليها أن تسعى بكل جدّ لإزالة أثار الاحتلال".

4 - أوثق العلاقات مع دول الجوار:

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية فيرى سماحته "إن من الضروري إقامة أفضل العلاقات، وأوثقها مع دول الجوار كافة على أساس الاحترام المتبادل، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، والتعاون في مختلف المجالات بما يخدم مصالح شعوب المنطقة جميعاً".

5 - مكافحة الفساد الإداري:

ولقد استشرى الفساد الإداري في معظم أجهزة الدولة إلى درجة من الصعب السكوت عنه، وقد تعرقل الأعمال الدولة، وتسبب في تعثر مسيرتها، ولذا كان سماحة الإمام صريحاً للغاية في هذا المضمار، حيث قال: "إن على الحكومة المقبلة التي تحظى بأهمية بالغة مكافحة الفساد الإداري المستشري في معظم مؤسسات الدولة بدرجة تنذر بخطر جسيم، فلابد من وضع آليات عملية للقضاء على هذا الداء العضال، وملاحقة المفسدين قضائياً أيا كانوا".

6 - الوزارة الجديدة تتألف من عناصر كفؤة:

وحيث أن ما تقد م من القضايا المهمة التي يرى سماحة السيد السيستاني ضرورة معالجتها أن يقوم بها وزراء أكفاء معروفون بالنزاهة

والخلفية المعروفة بالوطنية، وان لا تقسم بين التكتلات الحزبية والطائفية والعرقية، أكد -دام ظله-: "على ضرورة أن تشكل الحكومة الجديدة من عناصر كفوءة -علمياً وإدارياً- وتتسم بالنزاهة، والسمعة الحسنة مع الحرص البالغ على المصالح الوطنية العليا، والتغاضي في سبيلها عن المصالح الشخصية والحزبية والطائفية والعرقية ونحوها".

7 - المرجعية الدينية لا تداهن على حساب مصالح الأمة ومراقبة الأداء الحكومي:

وكي لا يظن أحد أن مسؤولية المرجعية الدينية المداهنة والمجاملة على حساب مصلحة المواطنين، فقد أوضح سماحة السيد السيستاني هذا الجانب بقوله: "إن المرجعية الدينية - التي لم ولن تداهن أحدا أو جهة فيما يمس المصالح العامة للشعب العراقي العزيز- ستراقب الأداء الحكومي، وتشير إلى مكامن الخلل فيه كلما اقتضت الضرورة ذلك. وسيبقى صوتها مع أصوات المظلومين والمحرومين من أبناء هذا الشعب أينما كانوا بلا تفريق بين أنتماءاتهم وطوائفهم وأعراقهم".

8 - على جميع القوى دعم الحكومة الجديدة:

وبعد هذه التوجيهات والإرشادات الأبوية لرئيس الوزراء المكلف الأستاذ المالكي: "تمنى سماحته كل التوفيق والنجاح للحكومة المقبلة مشدداً على أن نجاحها نجاح للجميع، وإخفاقها -لا سمح الله- سيصيب الجميع بالضرر البليغ، ولذلك فلابد من التكاتف والتعاضد بين القوى السياسية وسائر الأطراف المعنية لإنجاح هذه الحكومة، وتمكينها من أداء مها مها على الوجه الصحيح".

إن هذا البيان الصادر عن مكتب السيد السيستاني في النجف الأشرف بتاريخ 27/ 4/ 2006م يوضح وبصورة لا لبس فيها متطلبات المرجعية الدينية المتمثلة بالإمام السيستاني دام ظله من الحكومة الجديدة التي يرأسها

الأستاذ نوري كامل المالكي -رعاه الله- بالتوفيق في مهمته الصعبة متمنين أن تكون هذه الوثيقة الخطيرة خير مرسم للحاكم الذي يأمل أن يقود المواطنين على شاطئ السلامة والبلاد إلى الازدهار والله سبحانه المسدد للصواب.

ما وراء بيان الإمام السيستاني بشأن عيد الفطر؟

في مساء الثلاثاء من يوم 29 رمضان المبارك المصادف 30/ 9/ 2008 أصدر المرجع الديني آية الله العظمى السيد علي السيستاني- دام ظله- بيانا أعلن فيه أن غدا الأربعاء هو مكمل لشهر رمضان، وأن أول أيام العيد هو يوم الخميس، مبررا فتواه على انه: لم يُر في الأماكن التي أدعي فيها الرؤية بالعين المجردة، وانه لا يعتمد في ثبوت الهلال مبدأ "وحدة الأفق" - الذي أفتى به أستاذه الإمام الراحل السيد الخوئي قدس سره- ولذا يرى بداية الشهر الهلالي في كل مكان أنما تتبع رؤية الهلال بالعين المجردة في أفق ذلك المكان... وكان مظهر العيد في العراق الشيعي خاصة - رغم ثبوته لدى مراجع النجف الآخرين- إلا ان الوضع العام في العراق عبر عن إتباع رأي الإمام السيد السيستاني فيكون العيد يوم الخميس.

إن الاستجابة العامة التي أظهرتها الجماهير العراقية بإتباع رأي الإمام السيستاني، أستظهر منها عدة رسائل هامة رمى بها السيد للعالم عدة عصافير بحجر واحد -كما يقول المثل- وهي باختصار:

1 - إنها رسالة موجهة للقوى الخارجية التي تتحكم بسياسة العراق كأمريكا، أو بمعنى أعم " قوى التحالف " أن رأي المرجعية الدينية ملزم الإتباع في الأوساط الشعبية.

2 - إنها رسالة إلى الكتل السياسية العراقية التي أعلن أكثر من مرة سماحته عدم رضاه من سياستهم في إدارة شؤون البلاد، وخاصة في أجواء البرلمان العراقي الذي يرى - حفظه الله - أن أعضاءه لم يهتموا بشؤون الأمة بقدر ما يهتموا بمصالحهم الخاصة.

3 - إنها رسالة للعالم الخارجي الذي يرى أن السيد السيستاني يهتم للرأي الإيراني أو تابع له، وهذا خطأ صرف، فما أظهره هذا البيان من

المخالفة الصريحة للرأي الإيراني الذي أفتى أغلب مراجعه بمن فيهم القيادة الدينية الرسمية بأن العيد هو "الأربعاء" وإذا كان السيد تابعاً كان عليه أن يؤيد الموقف الإيراني في هذا العيد، والمخالفة صريحة للغاية.

4 - أثبتت الرسالة أن رأي المرجعية الدينية الشيعية في العراق هو رأي السيد السيستاني ولا يمكن تجاوزه، وهذا تلميح للأمة بالنسبة للانتخابات العراقية القادمة على المستويين: المحافظات، أو البرلمان فيحددهما رأي المرجعية الدينية، وليس الكتل السياسية، وأصحاب المحاصصة. وهذه قضية هامة للغاية بالنسبة للمرشحين القادمين للوصول إلى كرسي مجالس المحافظات أو البرلمان القادم بانتخاب جماهيري منوط برأي المرجعية الدينية قبل رأي الكتل السياسية في مبدأ "المحاصصة الفاشل "أو عناوين أخرى.

وفي صدد هذه النقطة بالذات نستعين بما صرح به ممثل الأمم المتحدة للانتخابات قبل أيام بأن إقبال العراقيين على تسجيل أسمائهم للمشاركة في الانتخابات القادمة متدنية للغاية عن مستوى الانتخابات الماضية، أو هناك "عزوف "عنها على القوى السياسية أن تبحث عن أسباب هذا " الانكفاء الجماهيري، أو العزوف الخطير" لأهمية الموضوع، وتداركه بمعالجة جادة أعادت الثقة للشعب بغية مشاركته في الانتخابات المستقبلية.

إن المخاض العسير الذي يعيش العراقيون اليوم من القضايا المصيرية المهمة كالاتفاقية الأمريكية - العراقية، والفساد الإداري، ومعالجة تلكُو أداء الأمور الخدمية(كالكهرباء، والنفط، والبطاقة التموينية وتطوير المجال الصحي، وغيرها) من القضايا التي تهم الشعب مباشرة.

ومع كل الأسف أن البرلمان العراقي لم ينظر لهذه القضايا بعين الاهتمام بقدر ما يهمه شؤونه الخاصة، مما تنتقده الجماهير، والأعلام

العراقي يؤكد هذه الحقيقة، وإذا لم يُبدُ مواقف جادة في حل هذه المشاكل المتفاقمة فصرخة السيد السيستاني - كما ينقل- على الأبواب، وحينها لا ينفع الندم.

اهتمام مراجع الدين في النجف الأشرف بالانتخابات

أصدر مراجع الدين العظام في مقدمتهم الإمام آية الله العظمى السيد علي السيستاني - دامت بركاتهم- في النجف الأشرف توجيهاً بتعطيل الدروس العلمية الحوزوية في جامعة النجف الأشرف بداية من 24/ 2/ 2010 إلى نهاية الانتخابات في العراق بغية تفرغ الوكلاء، ـ وطلاب الحوزة للسفر إلى مناطقهم ومدنهم في كل أنحاء العراق من أجل ممارسة واجباتهم الدينية والإرشادية والوطنية في حث المواطنين على الاهتمام بالمشاركة فيها على أساس من التلاحم الإيجابي لكل من يمكنه القيام بأداء هذه المشاركة في هذا المضمار الوطن، على أن لا يكون دفعهم للانتخابات إلى قائمة معينة أو جهة محددة، أنما القصد أن يكون أرشادهم لمن يرون فيه الكفاءة والإخلاص، والحفاظ على القيم الأصيلة، والخدمة العامة للمواطنين عامة.

إن للمبادرة التاريخية من أصحاب السماحة دلالة على اهتمامهم الجاد في دفع المواطنين لاختيار أصحاب الكفاءات، والذين يتحملون المسؤولية في أدارة شؤون الأمة، في وقت يمر به الوطن في أدق مراحله السياسية والتاريخية، وأن بناء الوطن يحتاج إلى أيدٍ نظيفة وشريفة تضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار، وتقديم المصلحة العامة على المصالح الذاتية والحسابات الخاصة.

إن أداء مسيرة البرلمان في دورته الماضية كانت مربكة من حيث عطائه في انجاز المشاريع التي تهم الإنسان العراقي، ومعالجات هامة تخص الذين صوتوا لهم لبناء وطنهم، وتسنموا كرسي البرلمان بفضل أصواتهم، لكنهم - وياللأسف - تاهوا في قضايا ومشاريع لم تحقق للمواطن من حيث السكن، ولقمة العيش، وتوفير احتياجاته الخدمية الأولية: كالكهرباء، والماء، والبطاقة التموينية، والوسائل التعليمية في مراحلها الثلاث: الابتدائية والإعدادية، والجامعية، وتطوير المستشفيات،

وغير ذلك من الأمور الأولية التي ينتظر المواطن من ممثليه أن يهتموا بها قبل غيرها من الأمور الثانوية، التي تعتبر كمالية للمواطن.

و كذلك معالجة صارمة ومتحدية لإنهاء الفساد الإداري الذي استشرى في البلاد، وعم غالب دوائر الحكومة، وأضر بمصلحة المواطن وتركته يعيش غالبيته تحت خط الفقر.

ولخطر هذا الأمر ذكرت المرجعية الدينية في النجف الأشرف كافة المسؤولين الذين أتيحت لهم الفرصة لزياراتهم، وأبدوا لهم النصائح والإرشادات لمكافحة هذا الخطر الذي طال وانتشر. ولو كان لممثلي البرلمان صوت مجلجل كما لقضاياهم الخاصة: كزيادة رواتبهم، وحماياتهم، وجوازاتهم الدبلوماسية لمدة ثمان سنوات، وغير ذلك لكان الشعب المتطلع لحياة أسعد - بعد مسيرة مرهقة أكلت الأخضر واليابس خلال أربعة عقود عجاف- قد حصل بعض الآمال التي طالب بتحقيقها، ولما حصلت هذه الفجوة بين الناخب والمنتخب، و أدى إلى عزوف الكثير من المواطنين عن المشاركة هذه المرة في عملية الانتخابات.

ومن أجل ذلك اضطر المرجع الديني السيد السيستاني وإخوانه من المراجع العظام- دامت بركاتهم- ان يعطلوا دروس طلاب الحوزة العلمية في النجف ليمارس وكلاؤهم في المدن والأرياف العراقية واجبهم الإرشادي في حث الناس على المشاركة في الانتخابات، وهي لفتة هامة منهم تعبر عن نظرة دقيقة، وعمق حضاري في إدارة البلد وبنائه الاجتماعي، ومصلحة المواطنين، والله سبحانه من وراء القصد.

مراجع الدين يجمعون المكونات العراقية[1]

مشكلة الشيعة اليوم إذا تحدث أحدهم عن خصوصية الشيعة قالوا عنه: طائفي، وإذا تكلم عن حقوق الجنوب قالوا: أنها بداية أنحياز إلى إيران، وإذا طالب بأن تكون القضايا الاختلافية في الأحوال الشخصية أن يرجع كل شخص بها إلى مقلده في مذهبه زعلت عليه المنظمات النسائية، واعتبرته رجعياً «طوخ»[2] وإذا قدر فنقد زعماء الكتل السياسية قالوا: لماذا تعالج القضايا الساخنة والتي لها علاقة مباشرة بالشعب، وتبرم الاتفاقيات في الغرف المغلقة، وكأنها ميراث خاص للمجتمعين قالوا عنه: معارض للديمقراطية، وإذا اجتهد بأن فيدرالية الجنوب ضرورية لأنها في مصلحة «المقموعين» منذ زمان طويل ثارت عليه جموع من «إخوان الوسط» بأن تحقيق هذا الأمر من أخطر الأمور، لأن بعض دول الجوار تخشى من هذا «العفريت» المنطلق من قمقمه أن يزحف إلى ديارهم، ويحيل أجواءهم إلى عذاب، وأخيراً وليس آخراً إذا تساءل المواطن المسكين عن وعد رئيس الجمعية الوطنية لمناقشة الدستور بيوم الخميس 25/ 8 ومرّ هذا اليوم بما فيه مساؤه ولم تنعقد الجمعية لهذا الغرض وألح بالسؤال عن ذلك قالوا له: ما دخلك في هذا الشأن؟ أمر يخص أعضاء الجمعية ومجلس الرئاسة، فابتعد عن ذلك رجاء لأنك من خارجها، وإذا صممت على التدخل فالمفرزة الأمريكية على استعداد لمداهمة بيتك و «تبهدلك» حسب الأصول، وبالأخير تغادر المفرزة و بيتك بعد بعثرته و «خربطته» - هذا إذا

(1) نشرة افتتاحية جريدة المواطن العراقية.

(2) كلمة باللهجة العراقية ومعناها: «زيادة».

ما اعتقلتك فترة من الزمن تكفي لإفهامك بعدم التدخل في قضايا الأمن في المستقبل - ومع المنية عليك يودعك رئيس المفرزة بـ «سوري = عفواً».

هذا هو الواقع المعاش في عراقنا بعد سقوط النظام، وكل يوم يزداد سوءً وتتفاقم مشاكل الوطن، ولعل ما نشاهده اليوم من ضيق الأفق عند بعض مكونات المجتمع المدني يؤكد لنا أن الإحساس الفئوي لا زال يُخندق نفسه في شعور هذه القلة من أبناء مجتمعنا، الذي لا يمكنها أن تقبل بالتغيير السياسي، والتطور الزمني.

نحن على مفترق طريق في بناء المجتمع المدني مستقبلاً مع هؤلاء إن اليوم أو غداً أو بعد غد، فأخذ حق المواطنة في الحرية، والاختيار المطلق لما يطلبه إنسان هذا الزمن - شريطة الاجتهاد القائم على المصلحة العامة - أمر لا بد من تحققه، وغير هذا وذاك من عالم الحرية أصبحت من القضايا الأساسية التي تنشدها الشعوب المرهقة بذل الاستعمار الداخلي والخارجي، وتعمل على التحرر منها، وعدم قبول ما رسمته العقلية التراثية المتاخمة للتخلف والحجر الفكري، فكما يريد هذا التوجه ويعمل على إبقاء ما كان على ما كان، كذلك الطرف الآخر الذي ينشد الحرية يريد ويعمل على تحقيقها بالطرق المشروعة. الهوة واسعة بين الرأيين بين من يريد تكبيل العقل، وكم اللسان وهو أمر صعب للغاية، وقابل للفشل والسخرية، وبين من يتطلب الحداثة والديمقراطية لشعبه.

إننا بحاجة في هذا الظرف الحرج أن يتفهم كل مكون من المكونات العراقية الطرف الآخر، ويحرص كل الحرص على إبقاء - ولو قدر شعرة معاوية -يبقى رابطاً بين أبناء المجتمع العراقي من أجل المعايشة السليمة بين مكونات البلاد، وتمتين الوشائج الأخوية الوطنية فيما بينها، وإيجاد علقة مصالحة فيما بينها، اللهم إلا اللذين باعوا الوطن بالأمس وداسوا كرامة أمتهم، وشربوا دماء أهليهم نخب نشوة الحزبية الضيقة القاتلة، فإن هؤلاء سنقاتل في سبيل عدم قبولهم بمجتمعنا العراقي الإنساني، حتى وإن

ضغطت علينا القوى الكبرى بقبولهم، وحاربنا «بنو أعمامنا »في بعض دول الجوار بالإصرار على عودتهم بلون وآخر إلى حضيرة العمل السياسي في مجتمعنا بثوب قشيب جديد، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب الأليم.

أيها السادة: لا زالت صور التعذيب والمقابر الجماعية وأحواض التيزاب، والموت في الزنزانات المظلمة، والاغتصاب للأعراض، والمتاجرة بالأطفال المعدومين ظلماً لحساب مصالحهم الحزبية. هذه الصور المأساوية بحاجة إلى قرن كامل يُحتمل أن يتناساها الشعب العراقي، وتنمحي من ذاكرته ولا أعتقد.

أيها العالم: هذه مشكلاتنا مع الآخرين فكونوا معنا لحلها ونحن نطلب الحل، ولا تكونوا علينا مع الزمن المُذل، ونؤكد للجميع أننا لن نتنازل عن عراقيتنا لأننا ولدنا فيه من الأجداد أوالآباء، وإيماننا به جرى في عروقنا، وثقوا - مهما كانت الظروف القاهرة والأحقاد المتحجرة من التكفيريين وباعة الوطن فلا نبيعه ولن نتخلى عنه، ولا نخونه حتى وإن امتد زمن الإرهاب، وتعسف الظلمة، وقهر المجرمين.

وإن قادتنا في هذه المسيرة الدامية المرهقة في كل زمان هي مرجعيتنا الرشيدة، ومدينة النجف الأشرف مركزهم العتيد، ورغم أنهم عانوا من ضغط الحكومات الدكتاتورية وعسفها مما يدفع بهم إلى الابتعاد عن مهامهم الرسالية، لكنهم وقفوا بكل صلابة وإصرار على عدم التخلي عن واجبهم الديني والوطني، ولعل أقرب مثل على هذا الصمود المشرف لمراجع النجف في الفترة السوداء التي مرت على الوطن في عهد صدام الوحش، والمواقف الخطيرة من القتل والإرهاب والتسفير طالت وبأبشع صورها هذه النخبة المجاهدة، في مقدمتهم آية الله العظمى المرجع الديني السيد علي السيستاني - دامت بركاته - واستطاع بمواقفه الشجاعة أن يصمد أولاً - رغم قتل بعض طلابه وتشتيت تلامذته - أمام هذا الموقف المرعب الرهيب.

وأن يكون ثانياً لسان صدق ووفاء للشعب العراقي، وأميناً مخلصاً على مصالحه بكل بطولة وشجاعة واستقامة، وهو - بحمد الله - لا زال صمام الأمان للشعب والوطن من أخطار الغزو الخارجي بكل تصوراته وأشكاله، ولنا الثقة بأنه العامل الأساس لوحدة كلمة الشعب العراقي، وبناء الوطن، وجمع شمله رغم كيد الأعداء والمتسللين الحاقدين من إرهابيين وتكفيريين حفظ الله سبحانه مراجعنا العظام، وأبقاهم قوة عظيمة ضد الطغاة والظالمين.

الفصل الرابع

المرجعية الدينية والعالم

1 - بدأ الاسلام غريبا ويعود غريبا.

2 - الوضع السياسي والحقوقي للشيعة في العالم.

3 - دور المرجعية الدينية والمراكز الاسلامية تجاه مسلمي أوروبا وآسيا الوسطى.

4 - دور العلماء والمراكز الدينبة في الدفاع عن الإسلام.

5 - مدى تأثير عناصر التبليغ في المجتمع المدني في ظل المرجعية الدينية.

6 - الإسلام ومشكلات القرن 21 "العراق أنموذجا".

بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً

نداء يهز أرجاء مكة، ويتفجر ثورة عارمة يلوح للمجتمع الجاهلي بالدمار، ويؤذن للظالمين بالزوال، ذلك النداء الذي أطلقه رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ في هذا اليوم من عام 610 للميلاد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: 19].

ذلك الدين القيم، الذي ختم به الرسالات السماوية، والتي كانت هدفها جميعاً - عبر مسيرتها التاريخية - إقامة العدل الإلهي في المجتمع الإنساني، ونبذ تحكم المستكبرين في عباد الله، والإيمان بقدرته على هذا الكون بسائر مخلوقاته.

ولم يفق المجتمع الجاهلي من صدى النداء الأول، حتى صك أسماعه النداء الثاني ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 85].

ووقف المجتمع الجاهلي بكل طواغيته صفاً واحداً في وجه هذه الدعوة الإسلامية لتخمدها في جذورها الأولى، ولكن الله يأبى لدعوة دينه أن ترتد خائبة في انبثاقها وامتدادها الرسالي، فرسول الله ﷺ مقدام غير هياب في أداء رسالته، حتى ولو اجتمعت مكة بكل قواها على أن يتخلى عن هذا الأمر لما تركه.

إنه الاختيار الإلهي له، فمهما اجتمعت قوى الشر من: جاهليين، ويهود، وحاقدين، ومنافقين، حاولت أن تعمل بما لديها من قوة، فإن الدعوة الإسلامية لا يمكن أن تنتكس وتفشل، لأن الإرادة المؤمنة التي

تجلت في نفس الرسول قد شدّت عزيمة الرواد الأوائل لها من المستضعفين والمستغلين، الذين استجابوا لنداء الإسلام، فثبت في قلوبهم إيماناً عميقاً لا تهده الآلام، وتفجر في واقعهم شعوراً عقائدياً صلباً سخر من كل ضيم صبَّه الطغاة عليهم لعلهم يرجعون عما هم فيه.

ولم يسلم من هذا الشر حتى صاحب الدعوة، فقد قال ﷺ أكثر من مرة: «ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت»[1] فلم يبق في خاطر عتاة أعداء الإسلام أسلوب من القمع والعسف والاضطهاد إلّا ومارسوه مع الرعيل الأول من المؤمنين برسالة الإسلام وكانوا يزدادون إيماناً كلما ازداد عنف الطغاة وعنت المستكبرين معهم.

مهمة رسول الله ﷺ تأسيس مجتمع إنساني تتوفر فيه عدالة اجتماعية تستمد قواعدها الأساس من كتاب الله المجيد، وسنته الشريفة، ويريد أن يوفر للإنسان المضطهد بالعهد الجاهلي - وكل العهود الجاهلية - الكرامة والإنسانية، التي تحاول الطغمة المتحكمة أن تفرض إرادتها على الناس، فتسلب كرامتهم وتميت إنسانيتهم.

ثم امتد شموخ الإسلام، وكان لرسول الله ﷺ أعوان في أداء رسالته رفعوا راية الجهاد في سبيل الدعوة، وشهروا سيوف الدفاع عن العقيدة، وانصاعوا لأمر قائدهم ونبيهم في تقحم المسيرة الرسالية إلى عمق المقابلة والصراع، فلم يعد لقبول المسالمة مجال، إنها ساعة عملية التغيير، وهي من أخطر الساعات، التغيير للمجتمع الجاهلي، القائم على أصول قبلية، وتحكمية مبنية على امتصاص القوي للضعيف، واستغلال الأبيض للأسود وهكذا.

وكان الإيمان الديني يستقر في النفوس مع امتداد الزمن، ويدفع بالإنسان إلى الاستعداد الصادق للتضحية والفداء، وذوبان حب النفس

(1) بحار الأنوار 39: 56.

وسعادتها لتقوى أواصر العقيدة في داخل الفرد المؤمن، بحيث تؤهله لأن يكون مثلاً طبيعياً للإنسان الملتزم، الذي لا يستهدف في عمله وتفانيه غير رضا الله، وطاعة الله، وتجنب سخطه وغضبه.

ولقد أكد الإسلام على التمسك بالعقيدة، والعمل على وحدة هذه الأمة، وجمع شملها، وتعميق روح الأخوة فيما بينها، قال الله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 103].

ورغم هذا الإيمان العميق، فالشيطان يمكنه أن يوسوس للمسلم، ويرجعه عن صوابه، ويعيده إلى جاهليته الرعناء ليبقى شقياً في حياته، ويمزق شمل الأمة المسلمة، ويهدد سلامة وحدتها، وتفتيت عزمها. وحقد أعداء الإسلام لن يقر في كل زمان ومكان، ولن يهدأ، وكلما فشلت محاولة تجددت المحاولات الشريرة، المحركة من اليهود والمنافقين والصليبيين، وكل من على شاكلة هؤلاء من الذين لا يريدون خيراً للأمة، ويعملون على تفريقها وتمزيقها.

إن وحدة المسلمين أساس الرسالة الإسلامية، وإنهم كمسلمين روّاد يكوّنون البنية الإجتماعية المتكاملة للمجتمع الإسلامي، ولهذا يشير الله سبحانه بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 105].

هذا التحذير من الفرقة وتمزيق الوحدة يؤكد على أن الصراع الأزلي بين الخير والشر، والحق والباطل، لا يمكن أن ينمحي أو يخمد، وما دام الوجود قائم فالتكالب على إثارة الفتن مستمر، لأن المسلم إذا لم يكن شاخصاً في عقيدته مطمئناً إليها، لا يمكن أن يكون ثابتاً في إيمانه، قال الإمام علي عليه السلام:

«الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِح».

ولقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة الأمة حيث يقول الله سبحانه:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

وقال سبحانه:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: 104].

وقال سبحانه:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

وهذه الآيات توضح معالم المسيرة في الإسلام، فهي:

أولاً: تدعو إلى وحدة المسلمين، وأنهم جميعاً في العبودية لله وحده سواء.

ثانياً: إن الإنسان لم يخلق سدى، إنما حمل مسؤولية العمل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، وذلك عن طريق:

1 - الدعوة إلى الإسلام، فالمسلم مهمته يجب أن تكون خالصة في تبليغ الرسالة.
2 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصفة أن المسلم داعية لهذا الدين فلا بد أن يقوم بواجبه الرسالي.

ثالثاً: التحذير من التنازع والخلاف الذي ينتهي بالمسلمين إلى المصير الموهن، والجبن والضعف.

إننا حين ندعو إلى وحدة المسلمين، لا نريد أن يكون السني شيعياً، ولا الشيعي سنياً، فإن الأصول في الأمة الإسلامية واحدة لا يختلف فيها الجميع، فالصلاة -مثلاً- كلهم يجمعون على أنها سبعة عشرة ركعة، وأن صلاة الصبح ركعتان، والمغرب ثلاث ركع، والظهر والعصر والعشاء كل منها أربع ركعات، وأن أسس الصلاة: النية، وتكبيرة الإحرام، والقراءة، والركوع، والسجود، والقيام، والتشهد، والتسليم، وإذا كان ثمة اختلاف فهو في الفروع، وهذه لا تؤثر على سلامة الصلاة، وصدق انطباقها عليها، وهي لا تخرج عن كونها مسائل توافرت عليها اجتهادات العلماء من المسلمين، وهذا الاجتهاد حين يقوم على أساس من الكتاب والسنّة الشريفة، فقد كسب خصائصه العلمية.

والقرآن الكريم أشار إلى هذا الأمر بوضوح، حين قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النّساء: 59].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ: 10].

وإذا كانت هذه الأسس ثابتة بين المسلمين في العبادات والمعتقدات الأساسية، فإن الاجتهاد في الفروع لا يدعو إلى تحكم الفرقة والخلاف بين المسلمين، ونهي القرآن صريح من شق الوحدة الإسلامية، وإثارة الشحناء والتباغض بينهم.

وسيعود غريباً:

إن الإسلام يمر اليوم في مرحلة خطرة لم يشهدها إلّا في دوره الأول، وأن مهمتنا إتجاه رسالتنا العظيمة الخالدة تنطلق من المبدأ الإيماني بها والفداء لها، فلا بد:

أولاً: أن نلتزم بتعاليم الإسلام السمحة، التزاماً واقعياً، ونعمل على تطبيقها على أنفسنا، ونكون مثلاً لها. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«المسلم أخو المسلم، هو عينه، ومرآته، ودليله، لا يخونه، ولا يخدعه، ولا يظلمه، ولا يكذبه، ولا يغتابه»[1].

ثانياً: تربية أولادنا -وخاصة وهم في دار الكفر وعدم الأخلاق- بالتوجه نحو خلق روح إسلامية في نفوسهم لأنهم طليعة الإسلام في الغد المرتقب، وعلى الآباء تقع المسؤولية التربوية.

ثالثاً: خلق أجواء ومناخات روحية للمسلمين في مثل هذه البلاد لتبديد الأجواء المادية التي تحيط بهم.

رابعاً: التفاعل والتعرف على الجاليات الإسلامية الأخرى لتحقيق الأخوة التي يدعو لها الإسلام: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: 10].

خامساً: العمل الجاد على ترشيد التحرك الإسلامي في كل مكان واعتبار هذه المهمة الرسالية جزءاً من مهامنا العملية الجادة نحو التغيير للأفضل.

قال رسول الله ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من رد عن قوم من المسلمين عادية أو ناراً وجبت له الجنة»[3].

سادساً: رفض كل ما يدعو إلى تمزيق وحدة المسلمين، كالنشرات التي تبعث على الفرقة والخلاف، وطبع الكتب التي تثير الضغائن بين المسلمين وتزرع الأحقاد في النفوس، قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا

(1) الكافي 2: 166/ 5.
(2) الكافي 2: 131.
(3) وسائل الشيعة 15: 142 كتاب الجهاد باب 60 ح1.

الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»[1].

أسأل الله تعالى أن يوحد صف المسلمين، ويجمع كلمتهم، ويلم شملهم، وينصرهم على أعدائهم، ويسدد خطى المجاهدين في سبيله في كل مكان، إنه سميع الدعاء.

(1) مستدرك الوسائل 8: 362، احكام العشرة باب 33 ح5.

الوضع السياسي والحقوقي للشيعة في العالم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلائق أجمعين، محمد رسول رب العالمين، وآله الغر الميامين، وعلى أصحابه المنتجبين.

أيها الأخوة الأجلاء سلام من الله عليكم ورحمته وبركاته

وبعد:

حين دعيت للمشاركة في مداخلة لأحدى محاور البحث المطروحة في جدول أعمال هذا المؤتمر العتيد من أجل تحقيق أهدافه العامة، شدني المحور الأول الذي عنوانه "الوضع السياسي والحقوقي للشيعة في العالم" ورغم أن البحث في مجالات هذا المحور واسع لكنني سوف أحاول الإيجاز بالقدر الممكن في أعطاء هيكلية مختصرة جداً للتعامل مع الوضع السياسي والحقوقي للشيعة في العالم عبر النقاط التالية:

أولاً: أنَّ وجود منهجية في التعامل مع الموضوع ضرورة تمليها الظروف المعاشة لهذه الأمة في العالم في ظل المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وانَّ هناك حاجة ماسة لفرز المفردات التالية:

1 - الوضع السياسي والحقوقي [القدرة].

2 - الشيعة المجتمع [العددية].

(1) مداخلة معدة للمؤتمر الثاني للمجمع العالمي لأهل البيت المنعقد في طهران ـ من 6-8 شوال 1418هـ/ 2-4/ 2/ 1998م

ثانياً: إن الشيعة من حيث هم مجتمع إنساني إسلامي يختلفون في نسبتهم العددية في المجتمع من مكان إلى آخر، ففي حالة تفاعل هذين العاملين يمكننا أن نقسم الوضع السياسي للشيعة في العالم إلى الأقسام التالية:

- الشيعة يشكلون الأكثرية الساحقة ويتمتعون فيه بالسلطة، أو بكلمة أخرى حكومته منها كما هو الوضع في إيران.
- الشيعة يشكلون الأكثرية الساحقة في مجتمع السلطة به للأقلية، وهي تغمط حق الأكثرية، أو لا تهتم- على الأقل- لهذه الناحية كما هو الحال في العراق والبحرين.
- الشيعة يشكلون نسبة مهمة من التعداد السكاني، ولهم قوة يعتد بها، ويحسب حسابها، كما هو الحال في لبنان، وأفغانستان، وباكستان، وبعض دول الخليج مثل الكويت وعُمان، وعلى الرغم من وجود القوى المضادة لهم إلا أنهم يمتلكون القدرة على حماية أنفسهم، إما قانونياً كما هو الحال في الكويت وعُمان، أو عسكرياً كما هو الحال في لبنان وأفغانستان، أو كليهما كما هو الحال في الباكستان.
- الشيعة يشكلون أقلية في دول لم تتبلور بها أنظمة حقوق الإنسان مما يجعلهم يعانون الاضطهاد.
- الشيعة يشكلون أقلية في دول ديمقراطية وقد تبلورت بها قضية حقوق الإنسان ولو ظاهرياً، وهي تضمن حق الأقليات الدينية والعرقية في أنظمتها كدول أوروبا وأمريكا، وغيرها.
- الشيعة يشكلون أقلية في دول لا تتبنى محاربتهم، بل تمنحهم حقوقهم الدينية أسوة بأبناء الأقليات والمذاهب الأخرى كسوريا، ومصر، واندونسيا، وبعض الدول الإفريقية.
- كيانات شيعية لم يتضح تصنيفها حسب المنهج السابق، وهي:

أ - الشيعة في تركيا - حيث يبلغ عددهم يقرب من ثلث السكان، ولكن لا وجود لهم ظاهر في المؤسسات السياسية.

ب - الشيعة في أذربيجان- هم الأكثرية الساحقة، ولكن لا يوجد تعامل واضح مع الانتماء الشيعي للشعب.

ج - الشيعة في اليمن- فأنهم شيعة على المذهب الزيدي، والحكم فيها قبلي.

وإمام هذا التقسيم لوضع الشيعة السياسي والحقوقي، وبناء عَلى المنهجية العلمية في البحث فنحن نعتقد أن التعامل مع هذه الأقسام ينبغي أن يُنظر له من زاويتين، هما:

1 - العناصر المشتركة بين الشيعة في التكوينات المختلفة المذكورة أعلاه.

2 - الخصوصيات الوطنية والقومية والاجتماعية والسياسية لكل مجتمع من هذه المجتمعات الشيعية.

وعلى هذا فان لكل تكوين من هذه المجتمعات المشار إليها ورقة عمل خاصة به، ولا يمكن تسطيحها من خلال مقولات عامة لا تستطيع أن تشق طريقها إلى الواقع، وذلك لاختلاف العناصر المكونة للواقع الذي تعيش فيه كل فئة من تلك الفئات.

ونرى أن من العناصر المشتركة للكيان الإسلامي الشيعي العالمي هي:

1 - تقديم ثقافة إسلامية شيعية معمقة ومبسطة للأجيال الشيعية الصاعدة، بها إجابات مقنعة عن احتياجاتهم بما يتناسب مع متغيرات الواقع وتعقيداته، وترك أسلوب مخاطبة أبناء آخر القرن العشرين بلغة ملّ حتى الأموات من ترددها.

2 - بناء كادر إسلامي شيعي رسالي يتحلى بالصفات الآتية:

أ - التدين والتقوى العلمية.

ب - امتلاك المهارات المعاصرة، والتخصص التقني الحديث في أحد المجالات المهمة.

3 - التوعية السياسية العامة عن المسلمين الشيعة في العالم، وديناميكية التعاطي معهم ضمن المشتركات العامة.

أما على صعيد الخصوصية لكل مجتمع شيعي فينبغي لنا الالتفات إلى آلية العمل السياسي، والتي نود الإشارة فيها إلى ما يلي:

1 - الفهم الدقيق للوضع الخاص الذي تعيشه الجماعة الشيعية المعنية في محيطها، وإمكانية التعاطي السليم معه بما يتناسب مع الطموحات الإنسانية والإسلامية والوطنية لتلك الأمة.

2 - إيجاد الأطر المناسبة للتحرك السياسي والحقوقي والاجتماعي بما ينسجم مع ما يلي:

أ - النظام العام للبلاد.

ب - عدد الشيعة.

ج - قوتهم السياسية.

3 - بلورة أطروحة في التعامل مع الآخرين في البلاد التي يعيش بها المجتمع الشيعي:

أ - مع المضطهدين في كل مكان من أجل أقامة نظام حقوق الإنسان.

ب - مع المسلم غير الشيعي.

ج - مع المسيحي واليهودي وغيرهما من الأديان.

د - مع المؤسسات الدولية والإنسانية.

4 - حل إشكالية التعامل الداخلي بين الشيعة أنفسهم، وذلك لوجود محاور خلاف بينهم من قبيل:

أ - المحور المرجعي - المرجعي.

ب - المحور الإسلامي - العلماني.

ج - الصراع والتوازن الاجتماعي.

5 - السعي لتوفير امتيازات امتلاك القدرة لحماية الشيعة في كل مكان يعيشون به لأنفسهم ومجتمعهم وأمنهم وحقوقهم، والسعي الجدي لتأمين وضعهم القانوني في كل مكان يحلون به.

وختاماً ولكي نكون مواكبين للمتغيرات، وعلميين في صياغة المواقف نقترح تشكيل المركز العالمي لدراسة وتوثيق شؤون الشيعة، مهمته:

- جمع المعلومات المُفصلة عن الشيعة في العالم وأوضاعهم في مختلف البلدان.
- المعلومات الإحصائية المُفصلة عن تعداد الشيعة، وتركيبتهم السكانية، ورتبهم العلمية.
- علاقاتهم بالآخرين.
- مشاكل التمييز الطائفي ضدهم.
- تقديم المقترحات المناسبة-والممكن تنفيذها-لمعالجة تلكم المشاكل المختلفة.
- استمرارية عملية المراقبة والمتابعة لشؤون الشيعة المختلفة، وتجديد المعلومات، والتأكد من صلاحيتها بصورة دائمة.

أملي أن أكون قد وفقت بهذه المداخلة التي أراها مفتاح عمل هذا المؤتمر من أجل تحقيق أهدافه السامية في رفع مستوى المجتمعات الشيعية في العالم، وحصولها على حقوقها الأساسية في مختلف الجوانب الحياتية، والله سبحانه المسدد للصواب.

دور المرجعية والمراكز الإسلامية تجاه مسلمي أوروبا وآسيا الوسطى(1)

المسلمون في كل جهات العالم عبر أيامهم الطويلة أصيبوا بصدمات عصيبة، اضطرتهم ـ راضين، أم مرغمين ـ إلى ترك أوطانهم، ومسقط رؤوسهم، وانتشروا في أوربا وبلاد الغرب، والشرق، وكونوا لهم في المهجر والغربة مجتمعات صغيرة تختلف باختلاف قومياتهم ونسبهم السكانية، وأصبحت بمرور الزمان وجوداً لا يمكن تجاوزها، أو التغاضي عنها، خاصة بعد هذا التطور السريع العالمي في ميدان العلم والمعرفة، والقيم والحضارة، وغزو المدنية الحديثة.

هذا العالم اليوم دخل مرحلة جديدة من الحياة الصاخبة التي تعبر عن متغيرات ومتطلبات تقتضيها ظروف سياسية واجتماعية لها كل التأثير على مجريات المسيرة الإنسانية في عصرنا الحاضر، وتمليها سياساتُ وأيديولوجيات متباينة، ولكنها في جوهرها الاعتباري لا تختلف في مفهوم واحد، وهو الحملة الشعواء، والحرب السجال ضد قيم الاسلام، وتراثه الأصيل.

وليس هذا التباني الغربي على إثارة مشاعر الكراهية ضد المسلمين ناتجاً عن موقف محدد لجهة ما، أو جماعة خاصة، إنما القضية أكبر من ذلك كله وليس أدل على ذلك، من الوضع العام للمسلمين ـ اليوم ـ فنرى الاعتداء الصارخ في «البوسنة، والهرسك» و«الصومال» و«الهند» و«العراق» واغلب الدول العالمية، كما وليس أوضح مما يشار في الجزائر، والمغرب، ومصر، ولبنان، وأي مكان آخر في العالم يكون للإسلام

(1) بحث مقدم لمؤتمر رابطة الشباب المسلم ـ السابع والعشرون ـ في بريطانيا عام 1993م.

مجتمع فيه، يشتد فيه التفاقم حول المسلمين بشكل وآخر بما يصل إلى حد الحروب، والاعتداءات، والكراهية والبغضاء، وقد يتجاوز إلى أبعد من ذلك، فقد نقلت وكالات الأنباء العالمية في 19/ 12/ 92 أن الجنود الصربيين، قد اغتصبوا النساء البوسنيات الأسرى، وهذه تشكل جريمة حرب واعتداء صارخ على الإنسانية، وغيرها من المآسي الفاضحة كتهجير إسرائيل لأربعمائة فلسطيني من أراضيهم، وتركهم على الحدود اللبنانية، إنتقاماً لمقتل ضابط إسرائيلي وهكذا الكثير من المعانات القاسية التي يمنى بها المسلمون وخاصة أوربا، وكافة الدول الغربية.

ولا احسب أن هذا الموقف الإنساني في المجتمعات الأوربية وغيرها طبيعي، أنما لابد له من دوافع ومؤشرات خاصة بما يعكس تهشيم الواقع الإنساني في نفس الفرد أو الجماعة، الذين يدركون مدى التدهور والدمار الّذي يلحق بإنسانية الإنسان في الحالة التمادي بهذا الموقف الّذي يتنافى وابسط قواعد حقوق الإنسان.

إن دوافع هذا الموقف بعمومه يعود إلى عدة أسباب أهمها:

أولاً: الأمن الحضاري :

يقول علماء مختصون بدراسة «الحضارات»:

إن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة. فالإنسان هو المخلوق الوحيد الّذي يرتقي ويعمل على تحسين أحوال نفسه بفضل ما أهداه الله من عقل يمكنه من التفكير، واختزان المعلومات، والربط بينها والإفادة منها. وما من شعب إلا وله مستواه الحضاري، على اختلاف الفروق بين المستويات. فالجماعات البدائية التي لا زالت تحت سفح الجبل لها حضارتها[1].

---

(1) د. حسين مؤنس ـ الحضارة: 49 سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت 1977.

والحضارة -كما تعرف-:

(ذلك الكمّ المركب الّذي يحتوى على المعلومات والمعتقدات، والفنون، والقيم، والقوانين، والتقاليد، وجميع العادات والقابليات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع ما).

والحركة الزمنية، هي التي تطور الحضارة، وهي عامل التغيير في كل واجهات الحياة، وسواء أكانت قوة هذه الحركة الزمنية خارجية ـ أي ان حوافزها لم تنبع من ذاتيات الإنسان، وخلقه، وابتكاراته. أو أنها، داخلية، بمعنى أنها تمثل عامل الابتكار والخلق، وأنها تفرز القيم الإنسانية التي تستهدف الرفعة والكرامة.

والمجتمعات الأوربية حين وفد عليها المسلمون وغيرهم وأصبحت لهم مجتمعات صغيرة تحمل طابعهم، وعاداتهم، وتقاليدهم التي تختلف بطبيعة الحال عن الأسلوب الحضاري المعاش، بدأ الخوف من الأوربيين من احتمال الغزو الكفري والاديولوجي لمجتمعاتهم، وتغيير الطابع الحضاري الخاص لهم ومن هنا أخذ الصراع الخفي يشتد من الجانبين: المجتمع المتحرر من القيود الاجتماعية، والأخلاقية والّذي يحرص ان لا تطغى عليه موجة الغرباء، بحيث تجتاح كل الجهود التي بذلت لبناء كيان مجتمعهم القائم على الأسس الواسعة من الحرية الشخصية، والتي ترفض كل القيود التي يعتبرها المجتمع الإسلامي قضايا أخلاقية تمزق المجتمع الأخذ بها. من هنا نشأ الأمن الحضاري، أو الصراع الخفي بين المجتمعين المتحرر، والملتزم إلى حد ما.

ثانياً - الصراع التبشيري:

الصراع التبشيري بين المسيحية والإسلام على أشّده في المجتمعات المختلفة وخاصة في المجتمعات الغربية المسيحية التي تهتم أن لا يطغى عليها الطابع الإسلامي وموضوع التبشير قديم، ولعل حروب الصليبين

للمسلمين يؤكد هذه الحقيقة. وكلما تطورت الحياة الغربية، أزداد الحرص على تفعيل عملية التبشير، وقد يدخل عامل السياسة فيه.

تقول بعض المصادر:

يظن بعض الناس أن المبشرين يأتون إلى الشرق لنشر الدين على انه هو الاسمي. والحق أن نشر الدين أمر ثانوي جداً في جميع الحركات التبشيرية ...

أننا إذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالماً ملحداً لا يؤمن بدين، وعالماً مادياً لا يعرف للروح معنى. إن أمريكا التي تعبد الحديد والذهب، والبترول، قد غطت نصف الأرض بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية، وسلام ديني.

وبينما نرى فرنسا دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التي تحمى رجال الدين في الخارج. ان اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصومها في الداخل، وأصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها.

وكذلك إيطاليا التي ناصبت الكنيسة العداء، وحجزت البابا في الفاتيكان، كانت تبني سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين.

حتى روسية السوفياتية التي تدعو في بلادها إلى محاربة الأديان ـ كما يقال ـ رأيناها بعد الحرب العالمية الثانية، حينما أرادت أن تحقق لنفوذها توسعاً أقليمياً وسياسياً قد تظاهرت بالعطف على رجال الدين، ودعت إلى مجمع مسكوني في موسكو، وحملت إليه المؤتمرين في طائراتها، وقابلهم ستالين نفسه.

وكثيراً ما كان الرجال العسكريون من الأنكليز خاصة يحضون حكوماتهم على بث المبشرين في العالم، كما نصح الجنرال هايغ الحكومة البريطانية أن ترسل مبشريها إلى شبه جزيرة العرب.

على أن جميع المبشرين، سواء أكانوا انتهازيين دينويين، أم كانوا مخلصين في مهمتهم تتميز كل فرقة منهم بعداوة شديدة نحو العرب المسلمين.

ولا ريب في أن مرد هذه العداوة الشديدة أنما هو إلى الحروب الصليبية على ذلك أجمع مؤرخو التبشير كلهم، وهم في ذلك على صواب. ثم أن هذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن العداوة دنيوية سياسية لا صلة لها بالدين. ان المبشر جسب ـ مثلاً ـ يود أن يمحي الإسلام من العالم.

من هذا النص نفهم حقيقتين مهمتين:

الأولى: أن حملات التبشير العالمية تستبطن الكثير من الواقع السياسي الاستعماري ضد الشعوب المستعمرة.

الثانية: أن العامل الأساس لإثارة الموقف الغربي من هذه المجتمعات الجديدة هو الإسلام والإسلاميين، وإلى هذا أشار أحد المستشرقين بقوله: «أن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبة»[1].

من هذا المنحى الخطير ينبثق الموقف السلبي من المجتمعات الأوربية، ويبقى عامل الفرقة هو الحاكم في مثل هذه الحالات، حين تنعدم الثقة بين الجانبين، ويصبح الناقوس الخطر على استعداد لإعلان الإنذار.

إن المشاكل التي تأخذ بخناق المجتمعات المسلمة ذات شقين:

1 - **الشق الداخلي** : يتعلق ـ كما ترى بعض المصادر ـ ببعث روح التراث، وتفجير إمكانيات الحضارة، فيتصل الماضي بالحاضر في تكامل وتفاعل لتحيى الشخصية الإنسانية بعد قرون طويلة من الجمود والاجترار.

2 - **الشق الخارجي**: يتمثل في هذا التحدي الكبير الّذي يواجه هذه

(1) لزيادة الاطلاع يراجع: عمر فروخ والخالدي ـ المصدر السابق: 36 ـ 45.

المجتمعات وغيرها من مجتمعات العالم الثالث، ويدفعها دفعاً قوياً إلى التخلي عن ماضيها وحاضرها واكتساب شخصية جديدة هي الشخصية الغربية إلى سعي الرجل الأبيض إلى التمكين لها في معظم بقاع العالم من أكثر من خمسة قرون.

وحين ندرس هذين الشقين نرى أن أهمية الشق الخارجي من قضايانا تنبع من أنه سلاح موجه غايته القضاء على روح المقاومة التي تدافع بها الحضارة عن ذاتها، ووجودها أمام الخطر الخارجي الدائم(1).

وحين تكون الإرادة مشلولة، معناه انهيار الثقة بالنفس بسبب ضعف المقاومة أو انهيار روحها، وحين تصل القضية إلى هذا الحد، تقف المعركة، وتنهزم الحضارة، وتنساق مغمورة بظل الحضارة الغازية، وعندها تفقد الشخصية المسلمة لتذوب في الكيان المحتل، وتنتهي رويداً رويداً. كما حدث قبل زمان من انهيار الانتشار الإسلامي في أوربا، وغيرها من الدول المتاخمة لها.

«أن أطراف أوربا في الأندلس، وصقلية في جنوب ايطاليا، ومشارق الإمبراطورية البيزنطية الشرقية كلها كانت في أيدي العرب المسلمين، وكان البحر الأبيض المتوسط بحراً إسلامياً، كما كان المحيط الهندي بحراً إسلامياً، وكانت تجارة العالم كلها في أيدي التجار المسلمين. ولم يكن أمام أوربا من سبيل سوى كسر هذا النطاق الحضاري. فكانت الحروب الصليبية منذ قديم الزمان أحدى المحاولات المباشرة لكسر النطاق، وكانت الحركات الفكرية التبشيرية محاولة أخرى للقضاء على السيطرة الإسلامية».

وفي بعض المصادر: وحين تم للحضارة الغربية أعادة ترتيب حياتها العقلية والروحية والاجتماعية التفتت إلى خارج ذاتها لتجد أن الحضارة

---

(1) د. عون الشريف قاسم ـ الإسلام والثورة الحضارية: 223 ـ 224 / ط دار القلم بيروت 1980.

الحية الوحيدة التي تشكل تهديداً مباشراً لمصالحها المتوقعة هي الحضارة الإسلامية ...

ولذا فإن الحقيقة التي نجابهها هي أن الحضارة الغربية بحسها التاريخي الحاد تسعى إلى تشكيل العالم في صورتها بالغاء كل الكيانات الحضارية، والثقافية المغايرة، وما تعيشه المجتمعات المسلمة من ضغوط تستهدف أخص خصائصها ما هو إلا جزء من المعركة الحضارية الضارية، والتي تسعى بها الشعوب الغربية إلى تغيير خريطة العالم الحضارية، مثلها أفلحت في تغييرها عسكرياً، واقتصادياً، وتكنولوجياً.

وهذا التحدي الحضاري من جانبهم لا بد أن يقابله تحدٍ حضاري من جانبنا، ولا خيار لنا في ذلك، وإلا ذهبنا مع الذاهبين[1].

وماذا العمل، والضرورة تدعو الكثيرين من المسلمين الذين هاجروا، أو هُجروا إلى الإقامة في هذا العالم، حتى يأذن الله سبحانه لهم بالعودة إلى ديارهم إذا رفرف فيها الأمن والسلام، والاستقرار؟

إذا أردنا أن نُحسن الموقف، ونعمل على طمئنة المجتمع الّذي يشاركه المسلمون العيش يبرز دور الجهات التي تتمكن من عكس حقيقة الإسلام الناصعة، وانه يدعو إلى التعايش السلمي مع كافة المواطنين، والتمسك بالقيم الإنسانية. هذه المهمة الكبيرة تستطيع أن تنهض بها جهتان إسلامية لها موقعها ومركزها في الإسلام، وتأثيرها لدى المسلمين، ولعل اهم هذه الجهات:

الأولى: المرجعية الدينية:

للمسلمين عامة مراجع دينيون لهم مركزهم المعروف وهم ذوو اثر كبير لدى المسلمين، والمراجع هم العلماء الذين تتوفر فيهم صفة القيادة

(1) لزيادة الاطلاع يراجع د. عون الشريف ـ المصدر المتقدم: 223 ـ 230.

والريادة للأمة، ومهمتهم أن يوجهوا الأمة الإسلامية المحدودة ـ ضمن مجتمعات كبيرة غير إسلامية ـ من قبل المرجعية الدينية الإسلامية بإرسال ممثلين عنها، وإنشاء مراكز إسلامية ثقافية، توضح الفكر الديني، والتأكيد على أن الإسلام لا يريد أن يحكم هذه البلاد، وان غالبية هؤلاء المهجرين أو المهاجرين عائدون إلى أوطانهم إذا ما ارتفعت الحالة الشاذة الحاكمة عليهم هناك.

والمرجعية يمكنها أن تقوم بأعمال إيجابية تشعر الطرف الآخر بان أتباعها لم يعملوا على تقويض الحياة الغربية، ومصالح أمتها بقدر ما هي مسؤولة عن تسيير مجتمعها الصغير بما يدفع عنه خطر الذوبان، والاندماج بالمجتمعات الكبرى التي تختلف معها في غالب شؤون الحياة.

كما أن المرجعية ذات الإمكانات الواسعة يتهيأ لها أن ترفد حياة المسلمين في خارج مجتمعاتهم بمرشدين يعملون على توثيق عرى المحبة والتعايش السلمي ورسم الإنسانية للآخرين، بما يشدهم بعضاً لبعض بما ينفع المسلمين، ويرفع من شأنهم أمام بقية الأفراد والجماعات الذين يضمهم ذلك المجتمع الغربي الكبير.

وكذلك للمرجعية القدرة على تأسيس حوزات علمية، ومدارس تعليمية تخص الجالية الإسلامية، بما يقوّم التربية الدينية في نفوس الناشئة، وتتجه إلى أقامة الحواجز. الفكرية لتحول من تسرب الأفكار والعادات، والآثار السيئة إلى الأمة، والسيطرة عليهم من الانسياق وراء تيار المدينة الحديثة الغارقة بها تلك المجتمعات الأوربية، والعلمانية.

فالحوزات العلمية التي تنشأ في خضم هذه المجتمعات تستطيع أن تؤدي رسالتها الإرشادية بما يتناسب والمحيط القائم، واللغة الحاكمة، والأسلوب المقتضى، بخلاف المرشد الوافد فهو بحاجة إلى زمن طويل يمكنه في خلالها أن يتعايش مع المجتمع الجديد، ويتعرف على سلوكية حياته.

وهكذا شأن المدارس بجميع مراحلها الدراسية ـ فإنها تكونّ قاعدة جيدة وصلدة لتسيج الفتيان والفتيات ـ لو أُحسن تدّبرها وأدارتها ـ ويمكن أن تحقق الآتي:

1 - تستطيع أن تثقف الإنسان من بداية نشأته إلى مرحلة نضوجه ورشده، وتنمي قابلياته الفكرية نحو بناء ثقافي متطور ينفعه وينفع به الآخرين، الذين هم بحاجة إلى المثقفين من أبناء أمتهم.

2 - أنها تسيج الإنسان في هذه المرحلة الخطرة من حياتهم من الانزلاق في مهاوي الرذيلة، والانحدار إلى الشبهات الشاذة، وتسمو بهم حياة كريمة تهديهم إلى طريق الخير والسعادة.

3 - كما أنها تساعد على الحفاظ، وعلى تمتين العلاقة الوطنية بينهم وبين واقعهم الوطني، وتبقي الصلة بينهم وثيقة، بحيث يُشعران هذا الإنسان بأنه يعيش ويتثقف لأمته ووطنه، ولم يخلق لغير ذلك. فهو في هذه المرحلة يهيء نفسه لتلك المهمة الجليلة، والمسؤولية العظيمة.

4 - أن المرجعية الرشيدة بحكم إمكاناتها الواسعة، وسلطتها الكبيرة وقدرتها المالية يمكن أن تقوم بهذه المهمة المسؤولة، التي هي من أولويات أعمالها البناءة في سبيل رفع معنويات الأمة، وخاصة في ديار الغربة والمهد اللاإرادي.

الثانية: المراكز الإسلامية:

والمراكز الإسلامية في دار الغربة لها المرتبة الثانية في توجيه الأمة وترشيدها بعد المرجعية فالعالم ينظر إلى أي أمة من خلال مراياها الصافية، وهي: مؤسساتها الثقافية، ومراكزها الاجتماعية، ومنتدياتها العلمية ـ وهذه المؤسسات تستطيع أن تلعب دوراً فاعلا في تقديم جاليتها إلى المجتمع الوافدين عليه، بما يتناسب والقيم التي يتمسك بها، أسلوباً ونظاماً.

ان المراكز الإسلامية لها دور فاعل فهي تستطيع أن تحقق الآتي:

1 - في إمكانها خلق أجواء تثقيفية للجالية، تعرف وتوضح طبيعية البلد المعاش وعن عاداته وتقاليده، المنسجم منها مع التزامنا المبدئي، أو ما نختلف معها.

2 - دراسة المجتمع الغربي، وأثره على الجالية الإسلامية، ورسم الحواجز الفكرية من أجل إيجاد الضمانات المطمئنة بالمعايشة السلمية، وأنها لا تؤثر على مجريات حياتهم المتحررة.

3 - إنشاء المدارس، والمعاهد وعقد الندوات ذات الطابع التربوي، والأخلاقي واحتواء الإنسان في جميع مراحله حفاظاً عليه من الانسياق مع المجتمع الغربي وحريته اللامحدودة.

4 - تهيئة أسواق خيرية للجالية بغية مساعدة الضعفاء والمعوزين بما يساعدهم على تكاليف الحياة، والاستغناء عن الانخراط في الوظائف المستغرقة لأهم الأوقات الحياتية، أو التي لا تنسجم معهم، فيضطرون إليها.

5 - بث روح الأخوة، والمحبة، والتعاون، والتفاهم بين أبناء الجالية، وصهرهم في وحدة إنسانية ترتفع فيها الأحاسيس والمشاعر إلى البناء، والتطور، والازدهار.

ومن الواضح من خلال قراءة الأحداث للعقدين الماضيين، نجد وبكل وضوح أن هناك تهديدات كثيرة تواجه كل المسلمين في كل أنحاء العالم، وعلى مختلف الأصعدة بداية من الهموم والمشاكل الاخلاقية على مستوى الفرد والعائلة، ونهاية بما يواجهونه من مخططات تمس وجودهم.

غير أن أحداث العامين الماضيين عام 1991-1992 تميزت بمجريات هامة، ومنعطفات في مجمل أوضاع المسلمين تستحق أن نقف أمام حدثين

هامين متميزين، خاص، على الساحة الأوربية، ونحاول أن نسلط الضوء على الدور المرجعي معها. ولا شك أن مثل هاتين التجربتين العنيفتين ستثرى تحركنا في ساحة الواقع، وتشدنا من خلال ما نؤمن من مفاهيم ومبادئ إلى حركة المسلمين وواقعهم.

الحدث الأول: هو ما يواجهه المسلمون من إبادة في البوسنة والهرسك بشكل خاص، وأوربا الشرقية بشكل عام.

الحدث الثاني: ما يواجهه المسلمون من تحديات في الجمهوريات الإسلامية السوفيتية.

في الحدث الأول: نجد صورة التشريد عن التهجير، والعنف والقتل والاغتصاب تلاحق الأبرياء المسلمين حتى بلغ عدد اللاجئين والمشردين من ديارهم حتى نهاية الشهر الأخير من العام الماضي ما يقارب 000 / 1700 مليون وسبعمائة ألف شخص يمثل الأطفال 45 % منهم، ولا زال أكثر من 000 / 500 ألف مسلم في سراييفو يواجهون حصاراً عسكرياً من قبل الغرب يجعلهم يفتقرون لأبسط المواد الغذائية، ناهيك عن مئات الآلاف الآخرين يعيشون حالة مزرية.

وفي الحدث الثاني: نرى المسلمين في هذه الجمهوريات، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي يواجهون تحديات لبناء أوضاعهم الداخلية، ورسم مستقبل ينسيهم الآلام، والاضطهاد الّذي دام أكثر من نصف قرن، باحثين خلاله عن انتمائهم العقائدي، والحضاري.

وكلا الحدثين يمثلان وضعاً لا بد وأن تتعاقد كل الجهود الخيّرة من أبناء الإسلام في العالم لإنقاذ الموقف.

والسؤال هو: كيف يمكن للمرجعية الدينية، أو المراجع العظام للأمة الإسلامية، والمراكز الإسلامية من القيام بالدور الرسالي والجهادي تجاه هاتين التجربتين؟ التي من الممكن أن تتكرر في أماكن كثيرة من العالم.

وإنَّ المتتبع للحدثين قد يجد دوراً رسمياً للحكومات الإسلامية، ونحن لسنا في معرض تقييم ذلك، بل نحاول أن نكتشف ما يمكن للمرجعية الدينية والمراكز الإسلامية ـ ككيان مستقل يرتبط بالأمة ارتباطاً مباشراً، ويعتمدها سبيلاً لتحقيق رسالته والقيام به.

الواقع أن المسلمين في أوربا الشرقية، وبعد انهيار أنظمتهم الشيوعية بحاجة إلى احتضان، ورعاية، ودعم كل قطاعات الأمة الإسلامية، ولا شك أنَّ المرجعية الدينية باعتبارها تمثل القيادة الدينية تتحمل القسط الأوفر من توجيه عناية الأمة نحو ذلك.

أن هناك ضرورتين تواجهان المرجعية الدينية في هذه الفترة الحرجة، إذا ما أخذنا الاعتبارات التي تحكمها.

الضرورة الأولى: متمثل في المحور الإنساني، أو المهمة الإنسانية، أو ما أصطلح عليه بمهام «الإغاثة»، حيث تساهم المرجعية مساهمة فاعلة لتقديم العون الغذائي والصحي، والثقافي للمتضررين، والمشردين في البوسنة والهرسك، كما حصل ذلك في أكثر من تجربة خاضتها المرجعية الدينية لدعم متضرري الكوارث الطبيعية في البلاد الإسلامية.

الضرورة الثانية: تتمثل في المحور التبليغي الاجتماعي الهادف. وان المسلمين في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى اليوم أكثر حاجة لمن يؤكد لهم هويتهم، وثقافتهم، وحضارتهم، وإسلامهم، ولا يمكن أن يتركوا عرضة للتيارات المشبوهة، فلا بد أن يصبح للمرجعية الدينية موقعها الريادي في عملية الانفتاح الاجتماعي في هذه المجتمعات الإسلامية، وتشجع كل ما من شأنِه أن يساعدهم في سبيل بناء اقتصادهم وتشجيع الراغبين في عمليات الاستثمار الاقتصادي في تلك البلدان. كل ذلك من أجل تقوية الأواصر الأخوية الإسلامية، والتقليل من الفرص التي توفر للأيادي الصهيونية من استغلال الفراغ السياسي، والاقتصادي، والديني في تلك البلدان.

أن توجه المرجعية الدينية لمثل هاتين الضرورتين أتصورهما يمكن أن تتم في الوقت الحاضر عبر أذرعهما الرئيسية في أوربا، ألا وهي المراكز الإسلامية المنتشرة في أرجائها.

أنني أتمنى أن تتناول توصيات هذا المؤتمر المبارك تبنى تشكيل لجنة تضم ممثلين من المراكز الإسلامية في أوربا تستمد شرعيتها من خلال دعم المراجع والقيادات الدينية ـ المعنوية والمادية ـ لفعالياتها، وإعطائها الصلاحيات بصرف الحقوق الشرعية بهذا الصدد.

وتعمل هذه اللجنة من خلال فرق ميدانية ودولية متخصصة تتجه للقيام بدورها الإنساني والاجتماعي، كجزء من الواجبات الملقاة على عاتقنا.

كما أن الواقع الّذي يعيشه المسلمون في المجتمع الأوربي واقع مرّ، وهناك محاولات عديدة من جانب الحكومات الأوربية في تحديد أمر الهجرة، واللجوء إليها، وإذا كان العذر الخارجي لها هو الضغط الاقتصادي الّذي يضرب أوربا. فإن الدافع الواقعي هو تحديد نزوح المسلمين من دولهم التي تمر بمراحل سياسية شاذة وصعبة.

وهذا الخطر المداهم نراه الآن في المجتمعات الأوربية على أشده وانه السبيل الوحيد الّذي يعتمده المثقفون الأوربيون، هو مواجهة المسلمين على الصعيد الحضاري بتجريدهم من روح دينهم التي تمنح حياتهم معناها، وتكسب مجتمعهم تماسكه وحيويته.

وفي هذا الصدد يمكن للمرجعية أن تسند المراكز الإسلامية في أوربا من تهيئة الندوات التثقيفية، والتوعية المركزة على القيم الإسلامية والتمسك بها.

إن الإسلام بقيمه العُليا، وتشريعاته القوية هي التي تطبع المجتمع بطابعه الأصيل، وتبني علاقات الإنسان ـ أفراداً وجماعات ـ على أسس متينة من أحكام الإسلام وقيمه الرائعة، وهذه الأفكار والآراء البناءة لا

يمكن انتشارها في المجتمعات الأوربية إلا عن طريق آراء وسياسة المرجعية الدينية الرشيدة، والمؤسسات الإسلامية المتطورة الفاعلة.

إن دور الإسلام في المعركة الحضارية يشكل نقطة مركزية في مسيرة الإنسانية وحين يلحظ التعصب الغربي مرونة الإسلام، وأهمية قيمه في تربية الإنسان، وصياغته الأخلاقية العامة وتفجير التحرك المضاد نحو الجالية الإسلامية، والمحاولة الجادة في وضع العقبات والمشاكل للحذر منهم، والتصدي لهم، وهنا ـ أيضاً يبرز دور المراكز الإسلامية في أوربا للقيام بدور فاعل لكبح يجتاح هذه العاصفة بما ينسجم وطبيعة الدولة، بأسلوب التحاور.

ندعو الله سبحانه أن يوفقنا في دار الغربة لكشف معالم الحضارة الإسلامية وبيان قيمه الرفيعة و ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: 19]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: 85].

دور العلماء، والمراكز، والعاملين الإسلاميين في الدفاع عن الإسلام بدار الغربة[1]

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

الظروف القاسية التي تمر على الأمة الإسلامية عامة، وأتباع مدرسة أهل البيت خاصة، حكمت على الكثير منهم أن يهاجروا، أو يهجروا من أوطانهم قسراً، حفاظاً على أرواحهم، أو عقيدتهم، أو أي سبب آخر اضطرهم إلى ترك مدنهم، والبحث عن مكان يتوفر لهم فيه الأمن والاستقرار، ولعل غالبية هؤلاء لم يجدوا غير أوروبا، أو أمريكا ملجأً آمناً لهم يحمون أنفسهم فيه من أخطار الأنظمة الحاكمة في بلدانهم، والتي تحكم شعوبها بالنار والإرهاب والقمع والإبادة.

وفي مقدمة هذه الحكومات المتخلفة، الحكم الدكتاتوري في العراق، كما في طليعة هذه الشعوب الهاربة من جحيم الفاشية، والعذاب، هو غالبية الشعب العراقي المسلم.

وبودي أن أقصر حديثي على الشعب العراقي المضام، والذي اضطر إلى الإنتشار في العالم يبحث عن ملجأ، ومن أجل أن أركز على المعالجة، فأحصر حديثي على بريطانيا، لأننا أكثر استيعاباً على المشاكل التي نعاني منها.

---

(1) ورقة عمل أولية مقدمة إلى المؤتمر السنوي التاسع والعشرين لرابطة الشباب المسلم في المملكة المتحدة المنعقد في «دار الإسلام - لندن» في الفترة «13- 15كانون الثاني 1995» حول «الجاليات الإسلامية في الغرب: التحديات... المسؤوليات».

ولعل من الأسس الضرورية التي تفرض نفسها على العاملين المخلصين في طرح أي تصور لازم لخدمة الجالية، والحفاظ على وجودها العام في مواجهة التحديات:

1 - التخطيط للمستقبل على ضوء الواقع المعاش. ويجب علينا إبعاد تصوراتنا عن الارتجالية، بل نخضعها إلى التخطيط المدروس القائم على واقع دراسة كافة جوانبه لأن يكون محل استفادة الجالية اليوم وغد. فقسم قد لا يستهان به من مشاريعنا تخطط بشكل ارتجالي وقد يكون هذا نابعاً من طبيعة محنتنا، معتبرين وجودنا ليس دائمياً في هذا البلد أو ذاك. صحيح أننا ضحايا هذا النظام الدكتاتوري الذي جعلنا نلتجيء إلى هنا، ولكن النتيجة والمحصلة أننا تغربنا، وفي الوقت نفسه نرى جيلاً كاملاً ولد في المهجر، ولازال الطريق طويلاً أمامنا. وعلى افتراض حدوث أي تغيير مستقبلي في العراق هل يا ترى سيعود الغالبية منا إلى الوطن؟ لذلك يجب أن يكون تخطيطنا واضعاً في الاعتبار أمر الانتقال الى الوطن.

2 - إبعاد المشاريع عن الأجواء السياسية والفئوية. ولعل تجربة العقدين الماضيين كافية لإثبات إن استمرارية مشاريعنا تعتمد على مدى قدرتنا على إبعادها عن انتماءاتنا، وتوجهاتنا السياسية. فديمومتها بحاجة إلى جهد الجميع بغض النظر عن تصوراتهم السياسية. علينا أن نكون على قناعة تامة من أن المشاريع التي تعتمد خدمة الجالية بشكل عام يجب أن تكون خارج دائرة الصراع السياسي، وأن تكون بعيدة عن أساليب الهيمنة، والاحتضان الفئوي.

3 - نحن نعيش في بلد له قوانينه، وأعرافه وتقاليده، ولعل أكثرها إن لم يكن كلها لا تنسجم مع قيمنا وأعرافنا، ولكن الضرورة تحتم علينا أن نتكيف في حدود الممكن معها، بما لا يخل بمبادئنا الإسلامية، خاصة فيما يعود لقضايا الأحوال الشخصية، والتي هي في نظرنا من المقدسات التي لا تغتفر لمخالفها.

وحين ينتقل الإنسان العراقي - المهاجر، أو المهجر - إلى ملجأه الجديد يصطدم أغلبهم بكثير من المشاكل، والمتاعب، مما تسبب له صعوبة الإقامة، وقد تدفعه إلى اختيار بعض دول الشرق الأوسط مقتنعاً أنها أقل مشاكل من البلاد الأوروبية، وقد يكون العكس.

ونظراً لكوننا نهتم كثيراً على الحفاظ على هويتنا، كجزء من تراثنا وتقاليدنا، ونحرص على قيمنا الاجتماعية التي نريد أن تكون - في رأينا - مظهراً أساسياً لحياتنا، نجهد بأن نكوّن لنا مجتمعاً يمثلنا ضمن أطار هذا المجتمع الغربي الكبير، شعوراً منا على رغبتنا في الحفاظ على وحدتنا، وحضارتنا الأصلية.

أهم المشاكل

ولما كانت المشاكل التي تعترض سبيل المهاجر، أو المهجر لهذه الديار كثيرة، ومن الصعب معالجتها مرة واحدة، فإن من أهمها ثلاثة جوانب من الضروري أخذها بنظر الاعتبار وهي باختصار:

أولاً: المشكلة الدينية:

حين انتقلنا من بلادنا - مهاجرين أو مهجرين - إلى هذه البلاد التي تضرب الحرية العامة أطنابها عليها بأوسع مجالاتها، أصطدمنا - و لأول وهلة - بصعوبة التلائم بين الواقع المعاش هنا، وبين الالتزام الديني الذي حملناه معنا، ونحرص كل الحرص أن لا نتخلى عنه، وإذا تمكنا وعالجنا بعض المشاكل كالحجاب إلى حد ما - مثلاً - فإن القضايا الأكثر أهمية بقيت بدون حل، وخاصة فيما يتعلق بقضايا الأحوال الشخصية، كموضوع الزواج، والطلاق، والحضانة، ومعالجات العقم وما يترتب عليها من مخالفات شرعية، وأمثالها من القضايا التي تجابه أمتنا في هذه البلاد، ولعل قسماً من هذه القضايا تواجه غير المسلمين التي تحكمهم تقاليد خاصة، وأكتفي بعرض ثلاث قضايا منها للتوضيح:

1 - المشاكل الزوجية التي تحدث بين المسلمين الغرباء، نتيجة تأثر أحد الزوجين، أو كليهما بالحياة الغربية، الفاقدة للقداسة التي تفرضها العقيدة الإسلامية، أو التقاليد العربية، أو الأعراف المحافظة على أتباعهم، وبالتالي تنتهي إلى الانفصال، وهدم الحياة الزوجية. وإذا حدث ذلك بواسطة المحاكم الغربية، فتنتقل إلى مشكلة تتعقد حينها القضية إلى أبعاد خطيرة. يمكن تصورها: بأن المحاكم الغربية تأمر بالانفصال، فينفصل الزوجان عن بعض. -وهو بمثابة طلاق عند الغربيين ولكن شرعاً ليس بطلاق-، وقد يحدث في كثير من الوقائع تعنت الزوج فلم يطلق شرعاً، ويصر على بقاء الزوجة معلقة، فلا هي ترضى بالعودة إلى حياة الزوجية، ولا هي مطلقة، وقد تتزوج المرأة بموجب قرار الانفصال الذي تصدره المحاكم الغربية، - طبعاً إذا لم يلتفت العاقد المسلم لهذا الإشكال، فيبرم العقد الشرعي -، وفي هذه الحالة يكون الزواج غير شرعي، وكل الالتزامات والواجبات الشرعية المترتبة عليه تكون باطلة.

2 - الحضانة في قانون هذا البلد للأم حتى بلوغ الرشد فتكون حينها حرة لها حق التصرف بشأنها دون مراجعة الأبوين، وقد عرضت على المحاكم قضية هنا خلاصتها: أن الأم تركت بيت الزوجية، لأنها تحب قريب الزوج، وعاشرته، متحدية قيود الزوجية، وبقيت معه، ولها بنت تجاوز عمرها السابعة، طلبت الأم بواسطة المحكمة حضانتها فحكمت المحكمة لها بذلك، وأخذت البنت من أبيها عنوةً في حين شرعاً الحضانة للأب.

3 - الحرية الشخصية تعطيها القوانين الغربية أهمية كثيرة، ويترتب على ذلك إن هذه القوانين تسلب صلاحية الأبوين من الإشراف على سلوكية أولادهم، وتوجيههم بما يصلح لهم وفق تقاليدهم وأعرافهم، ممّا يعرِّض الكثير من الأولاد والبنات إلى الإنحراف، والإبتعاد عن أجواء أسرهم، وتفكك تماسكها.

ثانياً: المشكلة الاجتماعية:

إن الحياة الاجتماعية التي تعيشها الدول الغربية، ونراها في بريطانيا، - ولعلها أخف بكثير من الدول الأسكندنافية -من الصعب أن نتقبلها، ونستطيع أن نتكيف معها، لأنها نمط تتوفر فيها الحرية الشخصية التي تسمح للإنسان أن يمارس كل ما يرغب فيه، ويحلو له، شريطة أن لا يضر بالنظام العام الذي يكفله القانون البريطاني.

إن الحرية الجنسية يسمح بها قانون هذا البلد بداية من المدرسة بكل مراحلها حتى الجامعة، وتعدد مؤسساتها، وأما ما تعرضه تقنية التلفزيون من أفلام فاضحة، وممارسة الجنس علناً، ودور السينما المعدَّة لهذا الغرض، أو المجلات الخليعة التي تتبنى هذا الاتجاه، وكل ما في هذا السياق.

واهتمام المدارس على أختلاف مستوياتها بالتعليم الإجباري بما يسمى عندهم بـ «الثقافة الجنسية»، وتوزيع أدوات منع الحمل على الطلاب والطالبات، وحتى الصغار منهم.

وكذلك انتشار المخدرات بكل أنواعها، وتفشي الإمكانات المتعددة لأغراء الناس، وجلبهم لهذه المؤسسات الهدّامة للحياة، وفتح أبوابها على مصراعيها للمراهقين والمراهقات، واستعمال الخمور، وتهيئة اللهو المشبوه.

كل هذه الوسائل المدمِّرة للإنسان تُمارَس علناً، وبكل صراحة في هذه البلاد، ومفتوحة للجميع، ونعيشها في كل مرفق من حياتنا اليومية في الشارع، وفي العمل، وفي محلات السوبر ماركت، والمتاجر وغيرها من المؤسسات التي نضطر إلى ارتياد الكثير منها لشراء السلع والحاجات اليومية.

ثالثاً: المشكلة الثقافية:

وإذا أمكن تجنب بعض ما يمكن تجنبه في إطار المشكلة الاجتماعية، فإن المشكلة الثقافية نكتوي بنارها لا محالة، ولا مهرب منها، فالتعليم في هذا البلد، على كافة مستوياته، لا بد أن نلجه باختيارنا، بداية من الصبي الذي بلغ السادسة، وحتى الإنسان الكبير الذي يلتحق بمعاهد تعليم اللغة، نظراً لحاجته الماسة لها، وحيث أن هذه المؤسسات تساعد على الاختلاط ومخاطره تصطدم مع تربية الإنسان المسلم، الذي يحرص كل الحرص على احتفاظه بقيمه السلوكية، البعيدة كل البعد عن الإنحلال الخلقي، والتدهور الاجتماعي، والتأثير السلبي على الجانب العقائدي.

في هذا الزمان لا يمكن أن تبقي الأولاد أميين، جاهلين، فالمعرفة أصبحت ضرورية للحياة الإنسانية في هذا اليوم. وأصبحت الحياة الثقافية تمثل الأهم في تنشئة أولادنا، الذين سوف يشغلون الدور الأوسع في حياتنا المستقبلية في عراق الغد ولنتصور جيداً مدى تأثير الاختلاط المدرسي الإلزامي على سلوك الكثير من الطلاب الذين لا يملكون المناعة التامة من الانزلاق في تيار الانحراف، الذي يقوده إلى الدمار بالنتيجة.

في البيت تجابه الإنسان أفلام التلفزيون ومساوئها، وفي الشارع يلتقي بالفضائح المنافية للأخلاق العامة الإسلامية، وفي المدرسة يعيش الاختلاط، ويُعلَّم الثقافة الجنسية - حسب إدعائهم - بأوسع صورها، ثم نتساءل لماذا يتفشى الانحراف بيننا؟

من المسؤول؟

هذه قد تكون أهم المشاكل التي تعترضنا، ولا بد من البحث في إيجاد الحلول لهذه القضايا الهامة التي تجابهنا في المهجر.

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا، ونحن نلتقي في خضم هذا «المؤتمر السنوي التاسع والعشرين، الذي تقيمه رابطة الشباب المسلم في المملكة

المتحدة» من أجل معالجة ودراسة بعض القضايا الهامة التي تجابهنا في هذه البلاد.

فهل أن معالجة هذه القضايا، ووضع الحلول لها، هي مسؤولية العلماء والمفكرين الإسلاميين عامة، أو المؤسسات المركزية المتبنية العمل الإسلامي في هذه البلاد، أو كل العاملين في الحقل الإسلامي، أعم من كونهم علماء، أو مراكز إسلامية، أو عاملين في الميدان الإسلامي؟

مما لا شك فيه أن المسؤولية عامة تشمل الأطراف المتصدية للعمل في هذه الساحة، كما يمليه الواجب الشرعي، فالعمل في سبيل المصلحة الإسلامية واجب عيني مفروض على كل مسلم ومسلمة. وبهذا الاعتبار فهو أعم من أن يكون عالماً، أو مركزاً دينياً، أو أي مسلم متصدي للعمل الإسلامي، لأن مسار العمل الإسلامي يشملهم جميعاً، وليس بالضرورة أن يكون العمل موحداً، فلكل أسلوبه واجتهاده، ولكن بالنهاية يلتقي الجميع في مسار واحد، وهو العمل الانقاذي.

ولكن يجب أن نؤمن بأن العلماء قادة الأمة، ومنار مسارها، وحكام شرعتها، وعلى المؤسسات التي وضعت نفسها في مضمار هذه المسار، أن يسترشدوا بإرشادهم، ويعملوا بتوجيههم، ويلتزموا بتنفيذ ما يخطط من قبلهم لمصلحة الأمة، وإنقاذها من مخالب الخطر المحدق بها، ليكونوا القوة المنفذة لهم، والساعد الأيمن لتحركهم الإصلاحي.

وللحقيقة التي يجب أن لا نتنكر لها، ونذكرها بكل تقدير إن في هذا البلد مؤسسات ومراكز إسلامية واجتماعية عراقية - حين نقصر حديثنا عن مشكلتنا، كعراقيين - تحملت مسؤولياتها بالقدر الممكن لها، وتقاسمت العمل الديني والاجتماعي إلى حدٍ ما في سبيل معالجة بعض هذه المشاكل التي تجابهنا في هذه المرحلة.

فمثلاً نرى: أن رابطة الشباب المسلم - وهي تمثل قاعدة عراقية -

ومنذ أكثر من ربع قرن أخذت على عاتقها العمل التثقيفي، وبث الوعي الإسلامي عن طريق المؤتمرات السنوية العامة، والندوات الأسبوعية، والحلقات الدراسية.

وجاء بعد ذلك دور مركز أهل البيت الإسلامي منذ خمسة عشر عاماً، ليضيف دوراً آخر في هذا المضمار الثقافي والإرشادي الإسلامي، بالإضافة إلى تأسيسه مكتبة ضخمة، تضم آلاف المجلدات في مختلف العلوم والآداب والفنون، ومدرسة تفتح يوم السبت لتدريس الأولاد والبنات.

وشيَّدت مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، وبادرت إلى فتح مدرسة أولاد وبنات كنا بأمسّ الحاجة إليها، ولازالت ترفد هذا العمل التربوي الهام، بالإضافة إلى مشاريعها العلمية والثقافية.

كما تأسس المعهد الإسلامي للسيد الصدر الذي تولى جانباً مهمّاً في هذا الخط العملي الإسلامي، وأعد لتعليم الخطابة، والوعي الديني في جلسات أسبوعية.

وفتحت الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية أبوابها مبتدئة بكلية الشريعة، واحتضان الطلّاب الراغبين في مواصلة الجهد العلمي الإسلامي، وفي هذا العام تتخرج الوجبة الأولى من خريجيها يحملون شهادة البكالوريوس، كما أصدرت مجلة بالمستوى العلمي المتناسب ومهمتها العالية.

وقامت رابطة أهل البيت الإسلامية العالمية بجهود خيرة، منها دورة دراسية مدتها ستة أشهر، يدرس فيها علوم الفقه والقرآن والأخلاق، بالإضافة إلى واجباتها الأساسية التي من أجل ها تأسست قبل أكثر من خمسة عشر عاماً.

وإلى جانب هذا برزت للوجود منذ سنتين أو أكثر جمعية الرعاية الإجتماعية للعراقيين والتنشيط الرياضي بين الطلّاب، والسفرات الترفيهية البريئة، ومساعدة العراقيين الذين يصلون للبلاد.

إلى غير ذلك من الدورات التدريسية الأسبوعية للطلّاب والطالبات كمدرسة أهل البيت في يوم السبت، وباقي المراكز الإسلامية، وكذلك مدرسة الهدى، ونوادي الشباب، ودورات تعليم القرآن وعلومه، والتي تتبنّاها المراكز الإسلامية.

وكذلك توجد مؤسسات إغاثة إنسانية تأسست هنا لجمع ما يمكن جمعه لمساعدة العراقيين المهجرين في إيران وسوريا، وداخل العراق.

إضافة إلى ذلك فهناك إيجابية أخرى ظهرت بمرور الزمن، وهو تجمّع أغلبية المراكز الإسلامية في أحياء متقاربة، ممّا يساهم ويشجع في إختيار السكن فيها، وتصبح بذلك وحدة جغرافية تساهم إيجابياً في خلق أجواء إسلامية.

هذه الإيجابيات كلها موجودة، وقامت بها جهود عراقية إسلامية، لكن الحاجة أكبر من هذا كله، فالجالية العراقية الملتزمة أخذت تزداد على مر الأيام، نظراً لبقاء النظام الحاكم في العراق واستمراره بحصد المواطنين.

ورغم هذا الجهد العملي لحل بعض القضايا التي تصطدم بها أمتنا، فإن الحاجة تدعو إلى أكثر من هذا، وإلى معالجة بناءة لها، ولهذا فإني أقترح تشكيل ثلاث لجان تقوم بوضع الدراسات، والتخطيط المبرمج لحل القضايا التي بحاجة إلى حل:

أولاً: مجلس العلماء:

يؤلف من بعض العلماء الفقهاء المقيمين في هذه البلاد لحل القضايا الدينية التي تحتاج إلى بحث علمي، وترتبط بالمراجع الدينية الكبرى، لتستنير بآرائهم العلمية، وتوجيههم الصائب ودعمهم المؤسسات الإسلامية العاملة في الساحة البريطانية، واحتضانها دعماً معنوياً، وأدبياً، ومادياً، ودفع الأمة لمساعدة المؤسسات، وأي متصدٍّ للعمل الجاد في سبيل تهيئة الإمكانات المتاحة لتحقيق الغرض المنشود.

وإنشاء معهد - على الأقل - في المراكز الدينية المعروفة، لغرض تهيئة مرشدين إسلاميين على مستوى ثقافي جيد، تنسجم قابلياتهم الفكرية مع وضع المتطلبات العصرية الحضارية، على أن يكون خريج هذا المعهد، والمتحمل لهذه المسؤولية، محصناً بوازع ديني قويم، بحيث لا يمكن إغراؤه بالوسائل المغرية ولا يتأثر بالأفكار المسمومة، المحاربة للإسلام باسم الإسلام، فيصبح حينها خطراً على الإسلام والمسلمين، بدلاً من أن يكون مصلحاً ومبلِّغاً.

ثانياً: لجنة إجتماعية:

تؤلَّف هذه اللجنة من أهل الخبرة والمعنيين بالشأن العراقي من خلال المراكز والمؤسسات الإسلامية في هذا البلد للإشراف، أو فتح الدورات الإجتماعية التي تقتضيها الحاجة، مثل فتح دورات تربوية للنساء المهاجرات، لتوعيتهم، وتدريبهم للعمل الممكن في بث الوعي الأخلاقي بين المجتمع النسائي، وشدهم إلى ندوات ثقافية نابعة من صميم واقعنا ومسارنا العقائدي، وتراثنا العظيم، وما يساعدهم على التأقلم مع المجتمع المعاش، والحفاظ على التقاليد الإسلامية الأصيلة.

وتشجيع الزواج بين شبابنا وبناتنا، وإبعاد الطرفين من الانزلاق في زيجات غير متجانسة، ومتوازنة قد تنتهي على الأعم الأغلب - لا سمح الله - إلى عدم النجاح في الحياة الزوجية.

وتشجيع الحياة الرياضية، والسباحة، والسفرات الجماعية التي تقوي أواصر المحبة والمودة بين العراقيين.

وتأسيس صندوق خيري، بإشراف لجنة أمينة منتخبة، تساعد المحتاجين، ومن لم يجد عملاً يتعيش فيه، على أساس الافتراض بدون فائدة.

ومساعدة الوافدين - المهجرين والمهاجرين - لديار الغربة، في المقتضيات اللازمة لهم، كالسكن أو اللجوء، وغيرهما.

ثالثاً: اللجنة الثقافية:

ونظراً لكون مسؤولية هذه اللجنة مهمة للغاية لما يترتب عليها من آثار جليلة، مهمتها الإشراف على التعليم، ومعالجة مشكلة المدارس، فلا بد أن يكون لأعضائها خبرة ودراية في مجال التعليم والثقافة، وترتبط بالعلماء والمؤسسات الإسلامية، لتنفيذ مقترحاتها.

إن في مقدمة مهام هذه اللجنة توفير المدارس الإسلامية بكل مراحلها، على أن يتحمل العلماء مصاريفها محسوبة من الحقوق الشرعية، أو تبرعات المحسنين، وعدم تكليف من لا يملك أجور المدارس بإلزامه دفع الأجور، وإلّا يحرم من الدراسة، فالتعليم أصبح ضرورة ماسة، وحاجة ملحة.

وكذلك شأن المدارس الأسبوعية، والتي تتكفل تعليم الناشئة: الدين، وقراءة القرآن، والعربية، والتاريخ الإسلامي، وغير ذلك من مستلزمات الثقافة الإسلامية.

وتأسيس مكتب إعلامي يتبنى إعلاماً مسموعاً، ومرئياً، ومقروءاً، بحيث يعوض الحاجة التي يتطلع إليها إنسان اليوم، وهو يكافح أخطار الحياة الغربية بكل حريتها، ويطلب تسليحه منها فكرياً، وفي هذا الحال لا بد من تهيئة ما يعوضه من برامج بناءة تقوِّم حياته بكل مراحلها.

وإنشاء دار طباعة ونشر تساعد المؤلفين والكتّاب والشعراء المعروفين باستقامتهم الفكرية، على طبع ونشر نتاجهم العلمي والأدبي والفكري، على كافة المستويات، ووضعه في متناول يد القرّاء بسعر مخفض ليستفيد منه الجميع.

وتكثيف الندوات والمؤتمرات الفكرية والأخلاقية، وتشجيع الدراسات القرآنية، والسنَّة النبوية، وتراث أئمة أهل البيت ﷺ، وما خلفه أعلام الفكر من ثروة ثقافية تبني الإنسان المسلم، وتصقل مواهبه.

إن هذه المقترحات لم تكن هي الأول والآخر، إنما هي مفردات قابلة للتحقيق لو آمنا بضرورتها، وصممنا على إنجازها، فإن في الإمكان وضعها على قائمة التنفيذ، فلا مستحيل في الحياة، إلّا ما خرج عن قدرة الإنسان، فهو لله وحده.

الزمن المعاش يتطلب الإنقاذ

إن الزمن الذي نعيشه في دار الغربة يتطلب منا الكثير من العمل الإنقاذي لأمتنا المضطرة للبقاء فيها، حتى تتهيأ ظروف العودة إلى الوطن، آمنين من سلطات الجور.

لقد عانى أجدادنا، وآباؤنا من قبلنا هذا الأسلوب القاسي من الحياة، ومنذ قرون طويلة، ولم تكن القضية الطائفية المقيتة بالجديد على هذه الأمة، ولا الأسلوب القمعي بالحديث في تاريخنا المضمخ بالدم، والمروع بالتنكيل، والمثقل بالتعذيب، والمجهد بالتشريد والتهجير، ومصادرة الأموال، وتدمير الأملاك.

إن القضية المأساوية لهذه الأمة تجاوزت هذا العصر، إلى زمان قديم، فهناك صراع طويل بين عامل الاستبداد والدكتاتورية، والتحكم في مصائر الأمة، وبين حرية الأمة، وعدالة الحاكم، ودستورية الحكم، ولم تكن الأنظمة الحاكمة في أغلب الوطن الإسلامي الكبير إلّا وجوداً قائماً على قوة الفاشية، والإرهاب، والقمع، والدكتاتورية، وهذا الأسلوب المتخلف الجبان، أدى إلى هذا الانتشار الواسع للإنسان المسلم الهارب من نار المحنة والبلاء، في كثير من بقاع هذا العالم المترامي الأطراف، وخاصة شعبنا العراقي المضام من حكم فئوي تسلطي، أسندته قوى دولية كبرى لأسباب معروفة للجميع.

وإن المسؤولية الإنسانية تحتم على جميع الطبقات: علماء، ومؤسسات، ومتصدين إسلاميين أن يعملوا متكاتفين في هذا المضمار،

منسقين فيما بينهم على إنقاذ الأمة من خطر المحق والدمار، ووصولاً إلى حل فيه مصلحة الأمة والوطن.

وهذا ما يستوجب توفر الثقة في النفوس، ووضع المصالح الشخصية جانباً، تحقيقاً للأمر الأهم، والاتفاق على حدود العمل المقتضي لإنقاذ الأمة والوطن، مع عدم المساس بأفكار ومباني الفرد، أو الجماعات، فالوقت لا يساعد للدخول في التفاصيل، والولوج فيها يضيع القضية المقدّسة، والتي يعمل الجميع من أجل ها.

والله سبحانه من وراء القصد، وهو الموفق للصواب.

أثر عناصر التبليغ في المجتمع المدني في ظل المرجعية الدينية الرشيدة[1]

للمبلغ وقع لدى المتلقي السليم.

وأداة التبليغ لها وقعها في نفسية المتلقي الملتزم.

ولكليهما أثر في صيانة المجتمع العام من الانزلاق إلى الهوة.

إن المجتمع الإنساني يتطلب من أجل توجيهه لما فيه مصلحة مسيرته الحياتية عاملاً جاداً يحمل في طياته الفكرية مستوى يمكنه من التأثير في المتلقي بما يدعه يستوعب ما يقوله على الأقل، شريطة أن يكون المُلقي مستوعباً لما يقول، وإلا فاقد الشيء لا يعطيه.

نحن أمام هذه الحقيقة الثابتة، فيجب أن لا نتقاعس من التبحر المعرفي، فيما إذا كنا رساليين في أداء مهمتنا التبليغية في مجتمعنا الرسالي الذي يتحمل المسؤولية الكاملة في هذا التوجه الذي تحتاجه الجماهير في الظرف العصيب الذي يمر به مجتمعنا، ونريد النهوض به إلى مستوى الوجود الشاخص ليمكن الإفادة به، والاستفادة منهُ.

هذه الشريحة من أمة مجتمعنا، والتي نطلق عليها صفة «المبلغين» هي في الواقع «الإعلام الفكري» الذي تعده الجامعة العلمية في النجف الأشرف ذات التاريخ العريق، والذي سيدق ألف عام من عمرها المديد، والمسدد بقيادات روحانية شريفة، ومرجعية رشيدة، تحمل من تراث مدرسة آل

---

(1) كلمة القيت في مؤتمر المبلغين الذي اقامته مؤسسة شهيد المحراب في النجف الأشرف: 20 شعبان 1429هـ

البيت ﷺ ما يكوّن لها المستوى الذي يؤهلهم بجد أن يكون المبلغون على مستوى المسؤولية، ويستطيعون أن يقوموا بالمهمة التبليغية بما يقتضيه الحال، ومقتضى المقام.

وشريحة المبلغين إلى جانب مسؤولياتهم الدينية يتحملون واجباً وطنياً أيضاً. فالعراق يحمل تاريخ حضارات أصيلة توّجها الإسلام العظيم في مسيرته الطويلة بما يرفع من كيانه الإنساني.

وهذا البلد تميز بروافده المعرفية على سائر البلاد الإسلامية التي تحمل طابع الإسلام مبدأ وعقيدة بأمور مهمة:

أولاً: كونه فيه مدينة تشرفت بمرقد باب مدينة العلم المحمدي، أمير المؤمنين عليه السلام أمام الفصاحة والبلاغة، والعلم الجم.

ثانياً: إنه مركز الجامعة العلمية لفقه أئمة أهل البيت ﷺ قرابة ألف عام منذ تأسيسه على يد شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي بعد إنتقاله من بغداد على أثر عاصفة طائفية هوجاء حصدت آلاف الناس في بغداد من الشيعةِ والسنة مما اضطر الشيخ الطوسي أن ينقل مركزه العلمي، و مرجعيته الدينية إلى النجف الأشرف سنة 448هـ.

ثالثاً: مركز المرجعية الدينية للمسلمين الشيعة، تناوب عليها أكثر من مئة مرجع شاخص دانت لهم مدرسة آل بيت الرسالية بداية من الشيخ الطوسي - رحمه الله - وإلى يومنا هذا المتمثلة بآية الله العظمى المرجع الديني السيد علي السيستاني -دام ظله - مرجعية رشيدة، ثابتة الرأي صلبة الإيمان، لا تأخذها في الله لومة لائم، وكان لها أكبر الأثر في حفظ هذه الجامعة العلمية من التمزق المقصود، والتفتت العنصري، والتي ضارعت الأقدار القاسية، والظروف الممتدة عبر الزمن الردي، وهي تحافظ على طابعها العلمي الديني، والتراث المحمدي العلوي، فكانت خير مرجعية لخير أمة.

وحين يكون الأمر كذلك فلا بد أن يكون مبلغ هذه المدرسة العتيدة، وهذا الصرح الشامخ بالمستوى المطلوب ليكون له تأثيره البالغ على المتلقي الذي هو بحاجةٍ إلى عنصر الإبداع الفكري المتطور المنسجم وأغراض هذا العصر، والمعروف أن لكل زمان لغة تعيشها جماهيره.

ولذا فإن على المبلغين الدينيين اليوم أن يعيشوا المجتمع وظروفه، وما يطرأ عليه من قضايا الساعة، وخاصةً فإن بلادنا تعيش قضايا حساسة عديدة ومعقدة للغاية، تثيرها أطراف لا تريد له استقراراً، ولا ترضى لأهله العيش بسلام وأمن، وقد لاحظنا طيلة السنوات الأربع الماضية كيف أصبح العراق بؤرة للإرهاب والاعتداء والاختطاف، ومطمحاً للتدمير والعبث والقتل.

وإن كنت أعتقد جازماً أن توجيهات مرجعيتنا الرشيدة، كبحت جماح الذين لديهم القدرة والاقتدار لرد الفعل المعاكس بصاعين بدل صاع بصاع، وساعد هذا الموقف العقلاني في تخفيف التوتر الذي كاد يعصف بالبلاد إلى الدمار الفظيع، والطائفية الرعناء البغيضة، والقتال الشرس بين أفراد الشعب الواحد.

وهنا لا بد أن أحدد المسؤولية التي تقع على عاتق هذه الشريحة المؤمنة بواجبها، فهي:

1 - إنها الصوت الأول للمجتمع الإنساني الذي يعمل جميع الشرفاء من أجل رفعته وحمايته من كل ما يشينه، ويعصف به. فالقوة لا تحل كل شيء، وكيل الصاع صاعين لا ينفع في أغلب الأحيان.

2 - كما وإن للكلمة الهادفة، والأسلوب الموجه الرصين الذي يتبعهما المبلغ لهما تأثيرهما الفعال في تخفيف حدة التوتر، وتفتيت الغيوم المتراكمة، بين تكتلات المجتمع، وحل مشاكله العالقة في حياتنا العامة.

3 - وكذلك الإخلاص في التوجه التبليغي لخدمة الأمة يدعم رسالة المبلغ العقائدية، وأي خلط للأوراق يفسد واقعه الإيماني، وقد يعود بما لا يحسن عقباه.

4 - ويتطلب الابتعاد عن كل ما يثير «النزق الطائفي، والعنصري» الذي يثيره دعاة السوء، أو حتى المغفلين من السذج الذي لا يعرفون من دنياهم إلا نسخ العبارة. وإن كانت مدمجة بلغة خطيرة، تضر بصالح قضيتنا المقدسة.

5 - ولست مبالغاً إذ ادعيت أننا -وان تجاوزنا المحنة الصدامية المرهقة، واحتضنت طاغيتها وأزلامه «المشنقة الوطنية» رؤوس الفساد والإفساد - ولكن أحذر بأن تحت الرماد جمر لاهب، فيه الاستعداد للانفجار في أي لحظة كانت، ولا زالت بعض البؤر الخارجية تدفع بعملائها إلى إثارة العواصف في البلاد بعد أن لاحظت أن أجواء الأمن في كل العراق أخذت بالتحسن، وانقشاع الأجرام عنه، ولكن علينا أن نكون حذرين للغاية من يقظة مفاجئة لهذه البؤر مهما كانت مصادرها المتعددة، وغاياتها الخبيثة، ونتائجها الخطيرة، وأن ندعم كل جهة سياسية تتربص لهذه الطغمة «السرطانية» بكل قوة وتصميم، وحنكة وحزم.

6 - وفي هذه الحالة المؤلمة تقع المسؤولية على مبلغين البلاد خاصة الذين يجب عليهم بث الوعي الجماهيري، والإرشاد الملتزم لفضح التوجهات الخطيرة التي ترمي إلى عودة اللا استقرار والاضطراب الأمني من جديد. ومن الممكن أن تكون بالغة الهدف، ومسعورة الاندفاع.

7 - وفي تصوري أن الأسلوب الرصين من ذوي المنطق الرصين سوف يدفع الخطر المستقبلي، ويصون الجماهير من عودة الإعصار القاتل، فلا زالت الأطماع الحاقدة تتلوى في مخابئها لتقفز إلى سطح وطننا الأصيل، فتدمر ما بقي منه.

8 - وإذا أحس كل منا بمسؤوليته تجاه الأمة والوطن، استناداً إلى القاعدة الشهيرة «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وتلاحمت قوانا، وشد بعضنا البعض، لنقف في خندق واحد في مقابلة العدو العربي وغير العربي، ممن يريد ابتلاعنا، وفرض الهمج الرعاع على رقابنا. حينها نستطع الوصول إلى الهدف المنشود لنا، وهو أننا أمة رصيدنا أصالتنا، وتاريخنا العظيم، وإيماننا بعقيدتنا الصادقة، وشموخنا في تمسكنا بأئمة أهل البيت عليهم السلام، ولا نرضى لأنفسنا أن نلتف بعباءة آخرين لتحمينا عوادي الزمن، حينها نكون من أمة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وبذلك كله نكون قد جنبنا أمتنا ووطننا المخاطر الملغومة، وهذه المهمة يتبناها أبناء العراق جميعاً:

فالبعض بلسان عامر، وقوة الجنان الثائر - وهم شريحة المبلغين.

والآخرون بقوة الفداء والتضحية، هم فرسان الجهاد وأبطاله.

وكلا الجهتين سياج البلاد، والدفاع عن عقيدة الأمة، والسعي لتحقيق كرامة الوطن.

دفع الله سبحانه كل شر عن العراق، وشعب العراق، وقيم العراق، ووفقنا لأداء مهمتنا الدينية والوطنية والإنسانية. وسدد سبحانه خطى جميع العاملين في هذا المضمار.

«الإسلام ومشكلات القرن الحادي والعشرين»[1] العراق إنموذجاً

في هذا العالم المترامي الأطراف بدت "ظواهر خطيرة" تجاوزت حداً لا يمكن السكوت عنها، وفي مقدمتها الإرهاب والفساد الإداري، ونشير إليهما بإيجاز:

الأولى: ظاهرة الإرهاب، وبصورة مرعبة اجتاحت العالم، وهزت كل قواه العاتية، وحسبت له الحساب المدروس، ولم تتمكن لهذه اللحظة من وضع خطة تحد من غلوائها.

والمشكلة الأساس في إثارة هذا الخطر دعاة "الإسلام المصنّع" والذي انطلقت دعوتهم من بعض الدول الإسلامية، واتخذ المتطرفون فيها مقراً لإدارة بركان العنف الإرهابي، وهذا التيار المداهم قد يكون دفعت به بعض الدول الكبرى في حينه لمقابلة التيارات الوافدة على المنطقة الإسلامية ذات المخزون النفطي، فأحالتها إلى ركام من المشاكل الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. حتى أصبحت هذه العصابات اليوم جهازا بيد الحكام الذين يقابلون الدول التي تعيش على ذخائر الآخرين، ويحاول هؤلاء الاحتماء بهم في إبقاء مصالحهم محفوظة من الانهيار.

إن تلكم التحديات المقنّعة بالإسلام المصنّع لازالت محتضنة من قبل بعض الدول المؤمنة بـ "الطفرة " لمصلحتها السياسية، ومنفعتها الخاصة، ورغم المحاولات الجادة من قبل هيئات ومنظمات عالمية أو شبه عالمية للحد من مظاهر هذه التحديات الموجة باءت بالفشل الذر يع رغم وقوف

(1) القيت في مؤتمر كلية الدراسات الإسلامية في جامعة كربلاء 16/ 3/ 2010م.

القوى الكبرى كـ: أمريكا والصين وفرنسا وروسيا والكثير من دول أوروبا والعالم الثالث في محاولة منها لتضيق الخناق عليها، وإصرارها على ردع هذا التيار الرهيب خشية زحفها لخارج المنطقة كما حدثت الكارثة في الحادي عشر من سبتمر 2001 بنيويورك، وهزت العالم رعباً ورهبةً.

الثانية: الفساد الإداري والمالي، وقد تصدرت هذه الحالة المدمرة في كثير من الدول الشرقية، خاصة الآسيوية، وكانت نتائجها على الدول التي ابتليت بها معاناة فظيعة لوضع لا تحسد عليه، حيث الفوضى المركزية، وخطر التدهور الاقتصادي مما سبب لها تراكماً من احتمالات الإفلاس.

ولعل الفساد الإداري سبب بروز عامل الفساد المالي، وتمازجهما كما حدث بعض مواقع دولنا الإسلامية كـ "دبي" - مثلا- في العام الماضي، والصومال وغيرهما، و سببت التجاء حكامها إلى الدول الكبرى للقروض الطويلة الأمد، ورضوخها إلى الخضوع والابتزاز الدولي هبوط المستوى الاقتصادي، كما حصل لنا في العهد الصدامي المباد.

هذا مجمل أبرز الظواهر الخطيرة التي برزت في المجتمع العالمي، ولعلهما برزا في العالم الإسلامي بصورة أوضح، - مع قضايا أخرى تطول الإشارة إليها، وسببتا مشاكل عُرفت بمشاكل القرن الحادي والعشرين.

هاتان الظاهرتان- خاصة- انعكستا على عراق اليوم بصورة مرعبة، وعلى الخصوص بعد سقوط النظام الشمولي، وأثرتا تأثيراً حاداً على مسيرة الحكومات المتعاقبة على السلطة، كما استنزفتا الكثير من المال العام للدولة، وإمكانياتها العسكرية بسبب صد عدوان الإرهاب الذي طال الوطن، وأضعف الحالة الاقتصادية فيه، وادى الى تلكّوء البناء الضروري لكيانه المرهقة من تأثيرات ركام الماضي، وبالتالي التأثير الكبير في مستوى نهوضها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وترتب على ذلك تردي السيئ على بعض العلاقات الخارجية: الإسلامية منها والعربية والدولية، وبالخصوص بعض دول الجوار.

وفوق هذا وذاك كلفت الوطن فقدان الآلاف من أبنائه الأبرياء سواء بواسطة الإرهاب، وما ترتب على الفساد الإداري والمالي قتلاً وعاهة، وترميل النساء وأيتام الأطفال، و تشتيت العائلة العراقية بالهجرة مرة ثانية لمن عادت للوطن لتبحث عن عش لها بعد تغرب طال زمناً قاسياً من أجل التأمين على الحياة ولقمة العيش.

إن الانتماء للوطن والشعور بالمواطنة هو أحد العوامل الأساسية التي تحد من تفجر الفساد الإداري والمالي، وقد يسعى البعض إلى ترسخ عدم "المواءمة" بين الانتماء إلى الإسلام، والانتماء للوطن. والحقيقة أن الإسلام يحث على حب الوطن، فقد جاء في الحديث الشريف: "حب الوطن من الإيمان".

كما حث على المحافظة على المال العام، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29] وأداء المسؤوليات، والوظائف على أكمل وجه ليشاد بناء الوطن على أسس قويمة.

والمؤلم والمؤسف أن هذه المشاكل جاءت على أيد تدعي الإسلام، سخرتها دوافع إقليمية ودولية بحجة دحر "المحتل" وإقامة "الدولة الإسلامية" مؤلفة من مجاميع تحاول شحن الأدمغة بأفكار التضحية والفداء كـ: القتل والغصب والاعتداء على الآخرين، بعيداً عن القيم الإنسانية، وتدمير سعادة البشر الذي كرمه الله سبحانه بالمعرفة، والبُعد الأخلاقي.

وأصبحت القضية في واقع المواطنة بحاجة إلى وضع حلول ناجحة يمكن إعادة الحياة الكريمة للأمة والوطن، بعد عذاب سنين عجاف ألقت بكللها الثقيل على العراق بما يزيد على نصف قرن، ولم تجلب من خلالها له غير الهموم القاتلة، والتخلف المؤلم، والعسر المحرج.

أليس من حق العراق أن يطالب العالم بكل أطيافه مساعدته في

التخلص من بقائه تحت وطأة الفصل السابع رغم انتهاء الأسباب والمبررات؟

أليس من حقه في تنمية شاملة لموارده الاقتصادية، وامتلاك الخبرة من عموم الدول العالم، لمساعدته على تجاوز أكثر من نصف قرن من "الحكم الظلامي" المتخلف؟

أليس من حقه في المطالبة في حصة مائية كافية من دول الجوار المتشاطئة معها في المياه كما هو المتعارف في الدول التي تشترك في المجرى المائي الواحد لاحتياجاته الحالية والمستقبلية في اختصاصه الزراعي؟

أليس من حقه النهوض بالمرأة العراقية، ومعالجة مشاكلها التي أثقلت كاهلها الحروب "العبثية" فزادت بمحنتها التي ترزح بها في عصر يتقدم فيه التطلع العلمي والثقافي والحضاري تقدماً باهراً، وأصبح ذلك كله في متناول كل إنسان يطمح للمعرفة والثقافة؟.

في هذه الحالة المؤلمة التي تحيط بالوطن، وعلى كافة المتصدين للمسؤولية السياسية القيام بموقف موحد جاد في "عملية تغيير للوطن" لتكون بمثابة عملية "إنقاذ" خاصة ونحن على أبواب تشكيل حكومة جديدة نخرج بها عن أجواء المحاصصة القاتلة، وإطار "الطائفية" المقيتة في ظل السابع من آذار هذا العام.

وإذا أردنا النهوض بـ "النقلة" التاريخية، والتخلص من هذا المنطلق المُوجه، ونقدم لشعبنا عملية "تغيير" تنهض به نحو التطلع للحياة، علينا أن نفرز طبيعة المكوّن العراقي منذ الفتح الإسلامي، والتغيرات السيكولوجية والديمغرافية عليه حينها نخرج بنتيجة واحدة هي:

إنَّ هذا الوطن يختلف عن بقية دول الجوار من حيث التكوين الاجتماعي الذي يصعب فيه "الاتفاق" على "معلم" معين يمكن بواسطته

توحيد المظهر المبدئي "الإسلام" بين أطيافه، كما هو الحال في بعض دول الجوار، ولا تصطدم به الأفكار المختلفة في الوطن، والمعوقة لمسيرة الحياة ونموها الاجتماعي نحو الأفضل بسبب تعدد القوميات، والطموحات السياسية المتنوعة لكل كيان منها، والتقسيم الطائفي، والتحفظ العرقي وغيرها.

اليوم وقد هيأ للعراقيين "السابع من آذار" فرصة جيدة لإعادة النظر في أجواء منطلقاتنا السياسية السابقة القائمة على المحاصصة والحزبية والطائفية، والقضايا الأخرى المثبطة لعزائم المخلصين لعملية التغير، والاهتمام الجاد في تطوير مشروع عراقي يؤكد على "الولاء للوطن" وإنقاذه من براثن الصراع المرير نحو "السلطة" كي لا نعود إلى نقطة الصفر.

إن الأمل ليحدوني بهذا المؤتمر العتيد أن يخرج بقرارات هامة ليتأخذ منه المتصدون للعملية السياسية في ولادة العراق الجديدة مرسما يهيئ لنا "خريطة الطريق" نحو مستقبل هادف واعد لشعب ووطن عانيا من تخبط مرير ما يكفينا عناءً وضيماً.

فلكم الشكر -أيها الإخوة المؤتمرون- وكل الشكر سلفاً للأساتذة الباحثين الأفاضل للجهود المشكورة في البحوث التي أعدت، والتي يعتز بها المؤتمر.

كذلك الشكر والتقدير للإخوة الذين عملوا على عقد هذا المؤتمر لما فيه من عمل بناء لعراقنا الغالي وفي مقدمتهم الأخ الدكتور الفاضل الأستاذ عبد الأمير زاهد.

ولكم جميعا من الله سبحانه التوفيق والتسديد.



هذا الكتاب يعبر عن تجربة غنية لرمز من رموز الحركة الاسلامية والوطنية، قضى معظم حياته في سبيل العقيدة والوطن، يستشعر المرء أمامها بعظمة الوطن ورجاله وان هناك من يتحمل المسؤولية الدينية والوطنية بكل اقتدار وجدارة، اتمنى ياسيدى ان يوفقنا الله كجزء من واجب البر ان نكون أوفياء مع الوطن والنجف وعذرا ياسيد النجف عن كل تقصير من ابناءك.

بمناسبة مرور أربعين يوما على رحليه

٧ نيسان ٢٠١٥ ـ ١٧ جمادى الثاني ١٤٣٦

ISBN 978-614-441-059-2



